خزعل الماجدي

متون سومر

الكتاب الأول

التاريخ ◆ الميثولوجيا ◆ اللاهوت ◆ الطقوس

الأهلية

مقدمة

تزداد ، مع تقادم الزمن، قناعة الباحثين والمؤرخين بأن كلّ ما ورثناه من نواميس حضارية وثقافية وفنية وروحية يعود في أصوله الى البذور السومرية التي هي أقدم بذور حضارة الإنسان وثقافاته في مطلع ما يسمى بـ (العصور التاريخية) .

كانت المتون الأولى للإنسان في حقول الدين والشرائع والملاحم والآداب والفنون والأساطير والرياضيات والطب والفلك والكيمياء، متوناً سومرية، ولا خلاف على ذلك اليوم بين مؤرخي الحضارات القديمة .

لقد امتلك كل حقل من هذه الحقول، مع ظهور سومر ، جهازاً معرفياً واصطلاحياً وحفل بنصوص غزيرة كانت الأساس الذي بنيت عليه منطلقات هذه الحقول عند الامم الوارثة أو المجاورة لسومر .

وكانت حضارات وعقائد ما قبل التاريخ إرهاصات أولى من أجل تكوين ثقافة شديدة التماسك والوضوح وذات نظام حضاري وروحي وثقافي وديني دقيقٍ ومفصل. . . وكانت سومر المهد الذي تشكلتْ فيه ملامح هذه الثقافة .

لقد حاولنا في هذا الكتاب دراسة أربعة حقول أو متون أساسية من متون الثقافة السومرية هي (التاريخ، المثولوجيا، اللاهوت، الطقوس)، وسعينا لكشف أعماق هذه المتون فلم نكتف بالسرد التقليدي للنصوص التي تقع في هذه المتون بل عمدنا إلى التحليل والمقارنة سعياً للوصول الى نتائج جديدة .

حاولنا في البداية وصف الحضارة السومرية وأهميتها، ثم وقفنا أمام التاريخ السومري في محاولة جدّية لتقسيمه إلى حقب وأزمان متجانسة على أساس الطبيعة السياسية والإجتماعية لكل فترةٍ مرّ بها هذا التاريخ .

سيتّعرف القراء من خلال هذا الكتاب على المثولوجيا السومرية من منطلق بحثي جديد ومن طريقة جديدة في التصنيف والسرد والمعالجة ، فقد حاولنا ترتيب شجرة أنساب دقيقة للآلهة السومرية ودخلنا منها لمعالجة اساطير ورموز وقصص الأدب الديني

السومري . . ولذلك بدا الأمر متسلساً مفصلاً واضحاً وتجنبنا ما تطرحه الكتب التي تبحث في هذا الأمر من فوضى وتداخلات لا نهاية لها .

وكانت لنا وقفةٌ جديدة مع اللاهوت والعقائد الدينية السومرية فقد عرضنا لأهم هذه المعتقدات الروحية والفكرية والتي شكلت نقاط انطلاق في نسيج العقيدة الدينية السومرية ، فعرضنا لماهية الآلهة عندهم وفكرة الألوهية وعلاقة الآلهة ببعضها وبالإنسان والطبيعة ، ثم عرضنا بعض أوجه الفقه السومري والقوانين والعادات الدينية التي تنظم الحياة الاجتماعية عندهم ثم تفصلنا في دراسة المؤسسة الدينية السومرية وأنظمتها الكهنوتية والمعبدية . وبعد ذلك وصفنا بعض أوجه العقيدة الدينية من خلال الحكماء السبعة والقوة الالهية وعقائد الموت وأفكار الجنة والنار والحساب والعقاب والثواب . وأفكار الأرواحية والتشبيهية وفكرة العود الأبدي . . وتتبعنا جذور الغنوصية والهرمسية إلى الأصل السومري لها .

أما الطقوس والشعائر السومرية فقد عالجناها بالتفصيل وقد أعاننا تبويبها إلى طقوس (يومية ، مناسبات ، دورية ، سريّة) لظهور طريقة عرض جديدة جعلتنا نطرح أغلب ما عرف عن هذه الطقوس ونجمع ما يشترك فيها قرب بعضه .

وإذا كان كتابنا هذا قد عرض هذه المتون الحضارية الأربعة لسومر ، فإن كتابنا القادم سيعرض لأربعة متون أخرى وهي (اللغة ، الآداب ، الفنون ، العلوم) وبذلك نكون قد أتينا على وصف وتحليل معظم جوانب الحضارة السومرية . ورغم أن الكتابين يكملان بعضهما لكن هذا لا يمنع من استقلالية كلّ كتاب بمادته .

وأخيراً . . نودُّ أن نعتذر سلفاً عن ما سهوناه أو عبرنا عليه أو لخصّناه بعجالة ، فبحار سومر عميقة وغزيرة ونتمنى أن نكون قد قدمنا منها ما يروي بعض العطش الروحيّ للقارئ الباحث عن الينابيع الأولى لحضارة الإنسان على وجه هذه الأرض .

خزعل الماجدي

دكتوراه تاريخ قديم

التراث الفكري والعلمي

١٩٩٧/٧/٨

القسم الأول

الحضارة السومرية

أرى أن التاريخ البشري، على مستوى الإنجاز الحضاري المادي والثقافي ، قد أمدنا بثلاث معجزات نوعية كبرى ، كانت كلّ معجزة منها الأساس الراسخ لحقبة بشرية طويلة ظهرت فيها حضارات عديدة .

المعجزة الأولى هي المعجزة السومرية ، وأستطع أن أسميها معجزة التأسيس أو معجزة الأصول ، فقد وضعت الحضارة السومرية الأسس الأولى الراسخة والنوعية والمتينة المادية والثقافية والروحية التي سارت عليها البشرية بعدها . . مثل الكتابة والتشريع والدين والعلوم والآداب والصناعات والحرف والفنون والقيم الأخلاقية والطب والعمارة والري والفكر وغيرها وقد أطلق السومريون أنفسهم على نواميس الحضارة هذه مصطلح ال (مي) الذي أحصى منها الباحثون أكثر من مائة ناموس حضاري .

ولم تكن نواميس الحضارة وأصولها موجودةً قبل السومريون إلاّ بالشكل البدائي لبعضها ، والذي لم يكن قد تبلور أو وصل الى حدّ الإنجاز النوعي المؤثر .

مع السومريين انعطف التاريخ وظهرت العصور التاريخية التي ضجت فيما بعد بالحضارات والمدنيات المختلفة للجنس البشري الذي يعيش على وجه الأرض . ونرى أن جميع ما ظهر في هذه الحضارات التي تلت السومرية حتّى الحضارة اليونانية ماهو إلاّ

وجزءاً على الأقل من جنوب آسيا الصغرى وغرب ايران وتركمانستان (توينبي ١٩٨١ : ٥٦).

كانت هذه الأقوام في شمال العراق وما حوله بؤرة الأويكومين الزراعي الذي ساهمت فيه شعوب متجاورة وهيأت بمنجزاتها الزراعية الاجواء لظهور حضارات أو ثقافات عديدة وصلت آخرها الى سومر.

أما المعجزة اليونانية فلم يكن بالإمكان تحققها لولا ظهور من حضارات بشرية بعد سومر كالحضارات المصرية والبابلية والآشورية والعيلامية والفارسية والهندية والصينية والكريتية والحورية والحيثية والكنعانية والفينيقية والآرامية والحضارات اليمنية وغيرها .. حتى أنفجرت لحظة يونانية أعطت شيئاً جديداً أو صياغة جديدة للمنجزات التي سبقتها وأضافت لها روحاً نوعياً.

أما المعجزة الغربية التي بدأت تتبلور بدايتها في عصر النهضة الأوربي فقد قامت على هضم منجزات الحضارات الشرقية التي استمرت كالهندية والصينية والفارسية وعلى ما ورثته الحضارة الرومانية من اليونانية، وعلى هذبه وصقله الدين المسيحي للأقوام الأوربية الأولى البربرية، وقبل كل هذا على المنجز النوعي والكبير للحضارة العربية الاسلامية التي كانت جسراً عظيماً بين المعجزتين اليونانية والغربية.

إن وجهة النظر الحيادية التي أقدمها هنا لمشهد المنجزات البشرية تأخذ بنظر الاعتبار المنجزات المادية والروحية بشكل خلاق ومبدع ولا تتكئ على منجز روحي أو ديني لوحده أو على منجز مادي لوحده، بل تأخذ الثقافي والمادي والروحي والعقلي والعلمي والديني في جهاز أو نسق (SYSTEM) حضاري يعمل بانسجام وتناغم وايقاع وتساوق في كل قطاعاته، وتبدو نبضاته الحضارية وكأنها تحصيل حاصل كل هذا الانسجام والإتساق في قطاعاته.

كان الشعب السومري شعب الكتابة والمدن والمعايير والشرائع والطب والديمقراطية (مجلس النواب ومجلس الشيوخ، مثل مجالس الآلهة)، ورغم أن بيئة كانت قاسية مدمرة يعج بها المناخ الحار والجاف والتربة التي تتصاعد فيها الملوحة بسرعة، والأرض الخالية من المعادن والأشجار والأحجار، لكن (يد الله عليها) كما يقول صموئيل نوح كريمر.

كان الإنسان هو العامل الحاسم، كانت عبقريته في صبره ودأبه على تفحص هذا

الكون بثبات وبصيرة ودون يأس، حتى فتح له باب التاريخ فدخل كأول شعب مكلل بالغار إلى حلبة التاريخ المضاءة التي كانت تراقبها الآلهة وتطلق على هذا الشعب (ذوي الرؤوس السود) لا لأنه الوحيد الذي كان شعر رؤوس افراده أسود، بل لأن السواد هنا كان يعني التميز والخصوبة والعبقرية، مثل الأرض التي كانت يعيش عليها (أرض السواد).

كان الشعب السومري، اكثر من غيره، اختلافا عن ما حوله من شعوب كانت، رغم دأبها تعيش منهج الاستهلاك والاسترخاء بعيون مغمضة أمام الكون . . ولذلك بعد أن فجرت الأيدي الأرض وبنت بهندسة خلاّقة نظاّم الري، تفجر العقل وتوقد وتوتر الروح الإنساني واضاء ظلام الأرض وأحرّاشها.

إن من ينظر إلى خارطة سومر والمدن السومرية الأولى التي تمتد من جنوب غربي بغداد حيث (سبار) إلى أقصى جنوب الناصرية حيث (أريدو) ويرى بدقة كيف أن حدود الفرات (القديمة والجديدة) من خاصرة غرب بغداد حتى منطقة الفهود، وحدود دجلة من مروره ببغداد حتى الكوت (كوثا) حيث يمتد منها نهر الغراف باتجاه المدن السومرية (أوما) و(لكش) وباتجاه الفهود أيضاً تاركاً (أي الغرّاف) إلى الشرق منه، بينه وبين دحلة، أهوراً كبرى تتصل بالخليج العربي.

إن هذه الحدود المائية التي تشبه الشكل المعّين الضيق تحصُر بينها سهلاً رسوبياً خصيباً يحتاج إلى تنظيمٍ إروائي لكي يعطي كل ثماره .

من هذا الشق المعّين، الذي يبدو وكأنه فرج الأرض أورحمها، ولدت أو لحضارة بشرية وظهرت على جوانب هذا المكان وداخله المدن السومرية المتلاحقة التي حيّرت الآثاريين في كنوزها المادية وفي ما تركته من كنوزٍ معرفية مكتوبة على ألواح الطين.

كانت روح المغامرة التي سيطرت على هذا الشعب هائلة، فأنكبَّ السومريون على الأرض التي بين أيديهم وحولّوها من أرض غفلٍ إلى جنة عدن . . وبقيت هذه الجنة في أذهان مدوني التوراة على أنها الجنة السماويةّ .

أول شرارات الخلق هي السيطرة على الماء واكتشاف الري، لم يكن هناك مطرٌ فاخترعوا الري . . ولم يكن هناك خشبٌ فاستعلموا البردي والقصب . . ولم يكن هناك

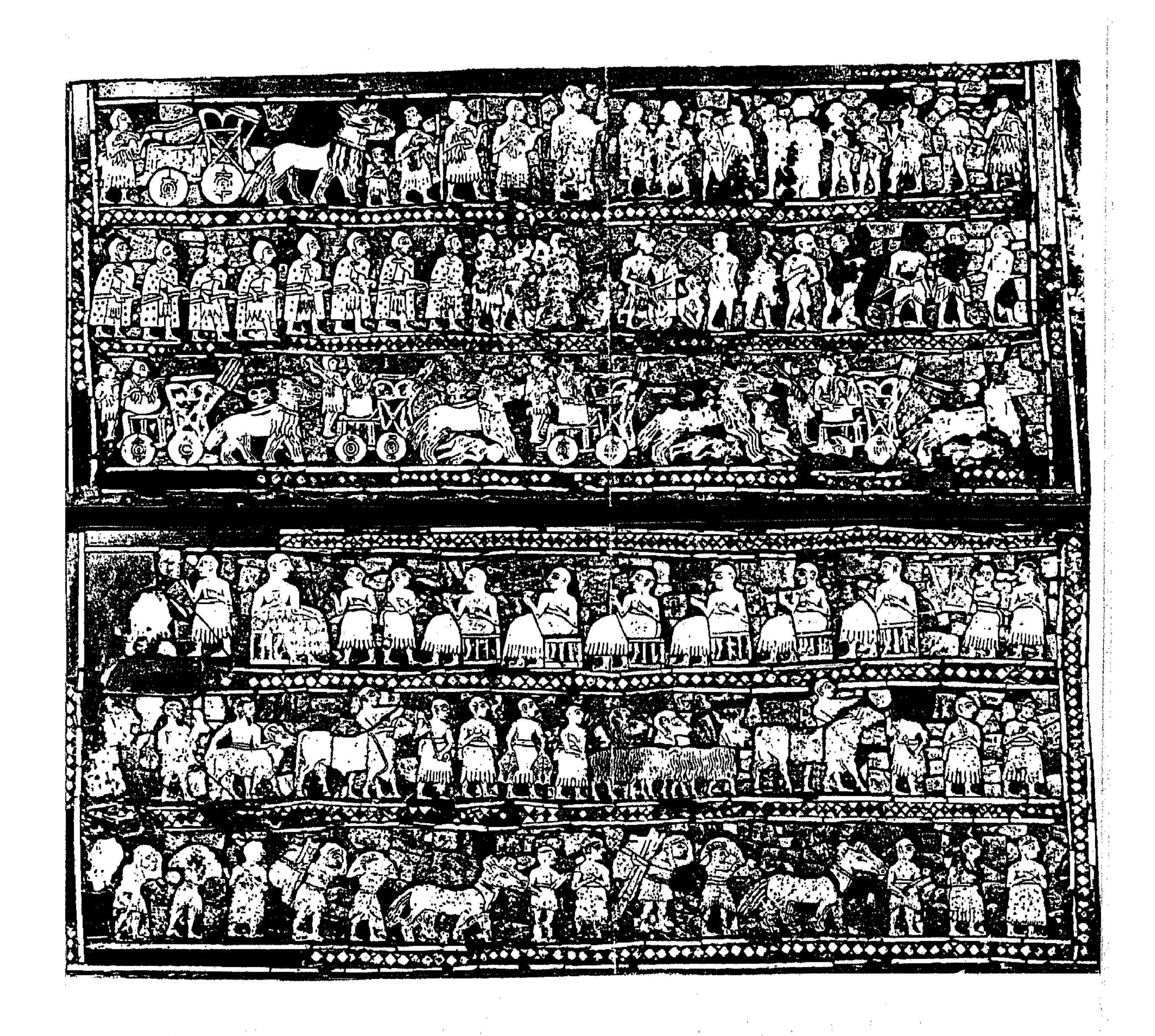

شكل (١)
الراية السومرية
(راية أور)
راية الحرب والسلام
في زمن أور الثالثة

لم يكن شعباً خرافياً، ولم يخلط الواقع بالخوف لينتج الخرافة، كان واقعياً متزن العقل وئيداً بصيراً ينطق بالحكمة البسيطة (المدينة التي لا يكون لها كلاب يحرسها الثعلب)، (ليس القلب هو الذي يقود الى العداوة ، وإنما هوا للسان)، (تدخل الذبابة في الفم المفتوح)، (اذا بنيت بيتاً كزعيم تعيش كعبد، وإذا بنيت كعبد تعيش كزعيم)، (بيد مع يد يبنى البيت، بمعدة مع معدة ، يأتي خرابه)، .

لم يوهم هذا الشعب نفسه أو أفراده بالخلود . . جسدُ الانسان غير خالد ولا خلود الآ بالعمل والذكر الطيب . . ليست الآلهة كائنات بل قوى خلف ستار المرئي **(كريمر : ب.ت)**.

شعبٌ تقول كل ألواحه بالطموح والنجاح والشرف، كانت قيمه الاخلاقية مثل القوانين والأعراف يلتزم بها الجميع بصمت وهدوء وكان أغلب كهنته وملوكه مثلاً أعلى لهذه القيم . . إن من يقرأ سيرة الملك الامير (گوديا) حاكم لگش يذهل من تقواه وعدالته وحبة للبناء (گوديا معناها النبي) فهل كان نبياً بالفعل ؟ .

كان (گوديا) يحب الحمار لأنه يعمل وهو صامت دون كلل وكان يتشبه به . . وكان أوركاجينا أول مصلح اجتماعي كبير في هذه الأرض .

كانت الاخلاق جزءً من العبادة أو فلنقل جزءً من شروط وجودالانسان على الأرض حياً ومتوازناً.

كانت أرضه أهوراً موحشةً تطفو عليها مستوطنات متفرقة ويائسةٌ تمتلأ بالأحراش . . لكنّ عرق السومريين هو الذي ارتفع بها للنجوم بنى السومريون ما يقرب من ستة عشر مدينة كبيرة في السهل الرسوبي الجنوبي للعراق، سوّروها فيما بعد، وفي وسط كل مدينة بنوا معبداً ذا مصطبة عالية . . تطورت إلى برج مدرج ضخم اسمه الزقورة . . وكان هذاً أهم اسهام في العمارة الدينية التي تلتها الاهرامات ثم الكنائس ثم المساجد ثم الملوية (زقورة المسلمين الفريدة).

والمدارس . . التي يختلف المؤرخون على قدمها وكثرتها في الحضارات المختلفة لأنها مؤشر تمدن أساسي ظهرت أول ما ظهرت في أوروك السومرية حوالي ٣٠٠٠ ق.م، ونفاجأ أن «عدد الكتبة الذين كانوا يمارسون مهنة الكتابة كان يبلغ الألوف، وأن أولئك

كان المجتمع السومري مكوناً من المزارعين وأصحاب الماشية والملاحين وصيادي الأسماك والتجار والكتّاب والأطباء والمهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والصاغة والفخارين ورجال الدين والمغنين وأصحاب الحانات وصانعي الخمور . . فكيف تسنى لمجتمع في الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد أن يتنوع بهذه الطريقة؟

لقد ظهرت كلمة (حرية) لأول مرة في تاريخ البشرية عند السومريين وتحديداً مع اصلاحات أوركاجينا وكان اسمها (أمارجي) التي تعني العودة إلى الأم أو الرحم . . فما أحلى هذا الفهم الشعري للحرية . . على أنها في الواقع وعلى الأرض أشد صلابة من تسميتها ، فالشرائع والقوانين منذ أوكاجينا ومروراً بأورنّمو وبيلا لاما ولبت عشتار بذرة الشرائع البابلية واليونانية والرومانية ، وأول ما يتبادر إلى الذهن لدى درسها وتمحيصها إنها تختلف كلياً عن شريعة الثأر، شريعة - العين بالعين والسن بالسن - التي سنها حمورابي واقتبسها عنه العبرانيون . ففي قوانين اورنّمو نزعة أنسانية غايتها الأصلاح لا الانتقام . لذلك حلت فيها الغرامة النقدية محل العقوبات الجسدية» (حتي ب.ت :٩٨).

شكل (٤)
تمثال نصفي لملكة او اميرة سومرية

وكانت بداية علم الفلك مع (إنانا)التي وصفت بأنها نجمة العشاء والصباح (الزهرة) ومع (نانا) إله القمر ومع (أوتو) إله الشمس . . ثم جاءتنا الألواح من سومر لتصف لنا اكثر من (٢٥) نجمة . . وكان الآلهة يسكنون الكواكب والنجوم وتسمى على اسمائهم . . وربط (گوديا) الأحلام بالنجوم . أما الزمن فانقسم عندهم إلى أيام وأسابيع وأشهر قمرية وسنوات عادية وكبيسة . . وكان (السار) دورة فلكية كبرى تتغير معها المصائر ، وكان الزمن يقاس بساعة مائية (كليبسدرا) وهي على هيئة إسطوانة أو منشور، وربما كانت ساعة الظل أوساعة العصا (المزولة)، ساعة شعبية يعرفها الرعاة .

اخترعوا النظام الرياضي الستيني الذي كان يتضمن النظام العشري، وبعد أن ساد الأخير في الحساب والجبر أصبح النظام الستيني وما زال أساس الهندسة والمثلثات والدوائر . . ثم أساس علم الفلك .

أول دساتير الصيدلة (الاقرباذين) ، أول الأطباء، أطباء النفس والعيون والفم، والجراحون والممرضون والأطباء البيطرون، والنحاتون، ومصممو الأزياء . . التنورات ذات الأهداب، ملابس الرجال ، ملابس الملوك والمحاربين، التيجان، الشالات التي تغطي كتفاً وتترك الآخر عارياً (ما يذكر بملابس اليونان والرومان)، أغطية الرؤوس الخرزية، آلات الموسيقى الايقاعية والوترية والهوائية . . وقد لا يصدق إذا قلنا السلم الموسيقي السومري (ألواح النوتات) .

كانت الأختام المسطحة والاسطوانية مثل برقيات الحضارة إلى الأمم المجاورة والبعيدة، وكانت في سومر مثل البريد السريع التنقل والذي يحمل الفن والكتابة والرموز وغيرها . . بعضها تحول إلى وثائق عامة وخاصة بل وتعاويذ حامية من الأشرار .

كانت مصانعهم تستعمل النحاس والبرونز والأخشاب والسكاكين والمناشير والأسلحة والقدور والمسامير والدبابيس والحلقات والمرايا والجلود وإطارات العجلات والمقاليع والأحذية والصنادل، استعملوا مسحوق الذهب لزخرفة بعض المصنوعات واستعملوا الذهب لأغلى تماثيلهم رفعةً، صنعوا السلال وكانت آلاف الأطنان منها تنسج سنوياً في أور فقط، وكانت احتفالات جزّ الصوف تبدو مثل ورشة عمل للبدء بالغزل والنسيج وصناعة الملابس، الأنوال العمودية والأفقية والقصارون الذين يزيلون الالوان بمحاليل قلوية وملابس الكتان .

الكتبة على أصناف ودرجات منهم الكتبة الصغار المبتدؤن، والكتبة المتقدمون، والكتبة الملكيون، وكتبة المعابد، وكتبة من ذوي التخصص العالي في بعض نواحٍ خاصة بالشؤون الإدارية. وكتبة أصبحوا من كبار موظفي الحكومة. وفي حقيقة الأمر هناك من الأسباب المعقولة ما يحمل المرء على الأعتقاد بأن عدداً من المدارس الكبيرة ذات الأهمية التي كانت تعد الكتبة، كانت مزدهرة في جميع أرجاء البلاد، (كرير ١٩٥٧ : ٤٤).

كان برلمانهم مكوناً من مجلس أعلى من الكبار (مجلس الشيوخ)، ومجلس عموم من الرجال هو (مجلس النوابّ)، وكان الحاكم (الانسي) يخضع لقراراتهم، وبظهور الحروب اصبح وجود الملك بدلاً عن (الانسي) ضرورياً وكان الملك ينتخب، لكنه فيما بعد أصبح يرث الملكية . . ومع ذلك ففي كل رأس سنة يرتجف قلب الملك هلعاً من عدم رضا الآلهة والكهنة والشعب عن أعماله . . وقد لا تتجدد ملوكيته بل يخلع ويوضع غيره.

شكل (٣)
حلي سومرية من الذهب عثر عليها في اور

وضعت تقاويم المزارع في كتيبات طينية اسمها (في الأزمان القديمة أرشد فلاح إبنه)، وكانت أنواع المحاريث والمباذر وأدوات الحصاد والسقي تتكاثر.

وضعوا مقاييس الطول (اصبح، ذراع، قصبة، حبل، فرسخ).

وضعوا مقاييس المساحة (سار، ايكو، بور، بستان، حقل).

وضعو مقاييس المكيال (كَن، سلا، كور، كورلوكال)

وضعوا مقاييس الوزن (قمحة، شيقل، من، تلنت) .

أما النقود فخاتمٌ فضي بوزن قياسي معين هو دينارهم وهناك ما هو أعلى منه أو أقل منه وزناً.

وضعوا شعراً في الغزل سيبقى، بعد آلاف السنين، من أعظم ما أنتجه الروح الانساني، ووضعوا شعراً مذهلاً من المراثي والمدائح والصلوات والتراتيل والأمثال والحكم . . وصنعوا أساطيراً هي بذرة كل أساطير العالم . . أما ملاحمهم التي ضاع أغلبها فقد بقي منها ما يدل على عصر البطولة الإنساني بأكمله .

هذا الشعب الذي شغل التاريخ لأكثر من (١٥٠٠) سنة وقدّم نواميس الحضارة لمن حوله ومعه من الشعوب، طعنته شعوب معه وحوله كانت تتطلع إلى منجزاته بذهول وعجز، وتكررت الطعنات حتى سقط في بداية الألف الثاني قبل الميلاد وبدأ صوته بالخفوت، كان اسمه (شعب أحراش القصب - كي . إن . جي - كينجي) ثم اسموه الساميون (سومر) .

هذا الشعب طوى اسمه النسيان منذ ذلك الوقت ولما يقرب من أربعة آلاف سنة . . لكن رهبان المعرفة من الحفارين والآثاريين بعد منتصف القرن التاسع عشر جلوا عن ذهبه الصدأ والغبار وهالهم ما رأوه :

لقد رأوا شعباً من ذوي الرؤوس السود المليئة بالحكمة والمعرفة يسد ثغرة مطلع التاريخ، وهو يعمل بمعاوله، ويرمي بالواح كتابته إلى أطراف الأرض . . وبذلك فسر لنا ذلك كيف جرى التاريخ وكيف تكون في أدق وأحرج مراحله .

لم يكن اكتشافهم لهذا الشعب مقصوداً بل كان صدفةً ، حيث ظهرت لغة غريبة على الآثاريين ليست بابلية أو آشورية أو آرامية أو فارسيّةً، ولا علاقة لها باللغات القديمة أو الجديدة.

ويوم توصل (أوبرت) عام ١٨٦٩ إلى أكتشافه الخطير بأن هذه اللغة هي لغة قوم هم (السومريين) وأنها تشير إلى الحضارة التي أسست مفتتح التاريخ وعلى أساسها قامت حضارات وادي الرافدين . . صرخ بوجهه اليهودي (جوزيف هاليفي) مرعوباً بأن لا شعب غير الشعب السامي قد بنى حضارات العراق، وأن اللغة السومرية هذه كانت مجرد اختراع مصطنع قام به الساميون أنفسهم لأغراض سرّية وكهنوتية .

ولكن سبيل الاكتشافات الذي بدأ من گرسو (تلّو) ثم نفّر ثم بقية المدن السومرية كان مهولاً . . وكان مدعاة للتفكير بجدية بوجود حضارة سومرية كبرى تأسس بها التاريخ.

كانت سومر قد اختفت من التاريخ منذ حوالي (٢٠٠٠ ق . م) وتوارى امسها مثل مدنها تحت تراب وأبنية الغزاة والساميين ومن بعدهم . . حتى أن اسمهم (سومر) لم يذكر مطلقاً في التاريخ، وساد اسم بابل على جنوب العراق، وحتى كتبة التوراة تلاعبوا عن قصد أو ذوت ذاكرة جيلهم فسموا أرض سومر بسهل (شنعار).

وما كادت أربعة آلاف من سنوات النسيان تكتمل حتى عاد هذا الإسم برّاقاً قوياً وكشفت خارطة شعبه وخطوط مؤثراته، ثم عُرف بعده بشيء من الدهشة، أن كل ما أتت به الحضارات كان فيه خيط من سومر.

العربات ذات العجلتين والسفن الكبيرة والمراكب والمشاحيف والقفف والسفن الشراعية. أما الري ونظام القنوات والحواجز والسدود والخزانات فلم يكن لها نظير، وكان هناك ما يرافقها من آلات التسوية وقضبان المقاييس والرسم وإعداد الخرائط.

شكل (٥)
كبش أمام شجرة مزهرة (من الذهب واللازورد) من أور

٣ . مرحلة دول مدن السومرية (فجر السلالات السومرية) (٣٠٠٠-٢٤٠٠) ق . م حيث ظهور النظام السياسي ممثلاً بدول المدن السومرية وكثافة انتشار المنجزات الحضارية السومرية إلى الاصقاع القريبة والبعيدة، وتنتهي هذه المرحلة بمحاولة لوكال زاكيزي تكوين دولة سومرية واحدة .

٤ . مرحلة الدولة السومرية (مرحلة لوكال زاكيزي) (٢٤٠٠ - ٢٣٧١ق . م). التي استمرت في حدود ربع قرن أو أكثر بقليل (٢٩ سنة) ثم قضى عليها سرجون الاكدي وكوّن الدولة ثم الامبراطورية الأكدية وأتى بعده الغزاة الكوتيون لوادي الرافدين .

٥ . مرحلة الامبراطورية السومرية (سلالة أور الثالثة) (٢١١٢ - ٢٠٠٤) ق . م التي استمرت أكثر من قرن بقليل ثم سقطت على يد العيلاميين والاموريين .

١ . مرحلة الأصول (؟ - ٣٥٠٠) ق.م

لا أحد يعرف من هم الأجداد القدامى للسومريين، ولا أحد يعرف على وجه الدقة أصل السومريين، رغم أنه لا أحد يعرف أيضاً أصل الكثير من الأقوام المزامنة للسومريين أو التي ظهرت قبلها بقرون أو بآلاف السنوات، الاّ أنه بسبب الأهمية الحضارية للسومريين وحصول انعطاف التاريخ على يدهم من مراحل ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية . . ولاسباب اخرى معروفة وضعت نظريات عديدة نرى أنه من الضروري المرور على أغلبها، ولو بعجالة ، للتعرف على وجهات نظر العلماء في هذا المجال .

هنالك ما يقرب من العشر نظريات أو أفتراضات تبحث في أصل السومريين وهي مرتبة حسب الجهات التي تشير لأصل السومريين ابتداءً من الشمال إلى الشرق فالجنوب والغرب (ما عدا النظرية الأخيرة المحلية أو العراقية) (انظر المخطط ١) .

١- الأصل الأناضولي (آسيا الصغرى) :

إعتماداً على نوع اللغة السومرية الملصقة والمتكونة من مقاطع غير قابلة للتصريف مثل اللغات الآرية أو السامية، ولها جذور لا تتغير ووحدتها القواعدية الأساسية هي

المركب اللفظي وليس الكلمة المفردة، وقد قام بعض الباحثين بمقارنتها بالكثير من اللغات الملصقة الأخرى مثل التركية والهنغارية وبعض اللغات القوقاسية وخصوصاً اللغة الطورانية القديمة، حيث قام رولنسن في وقت مبكر باثارة مثل هذا الرأي ثم تبعه أوبرت

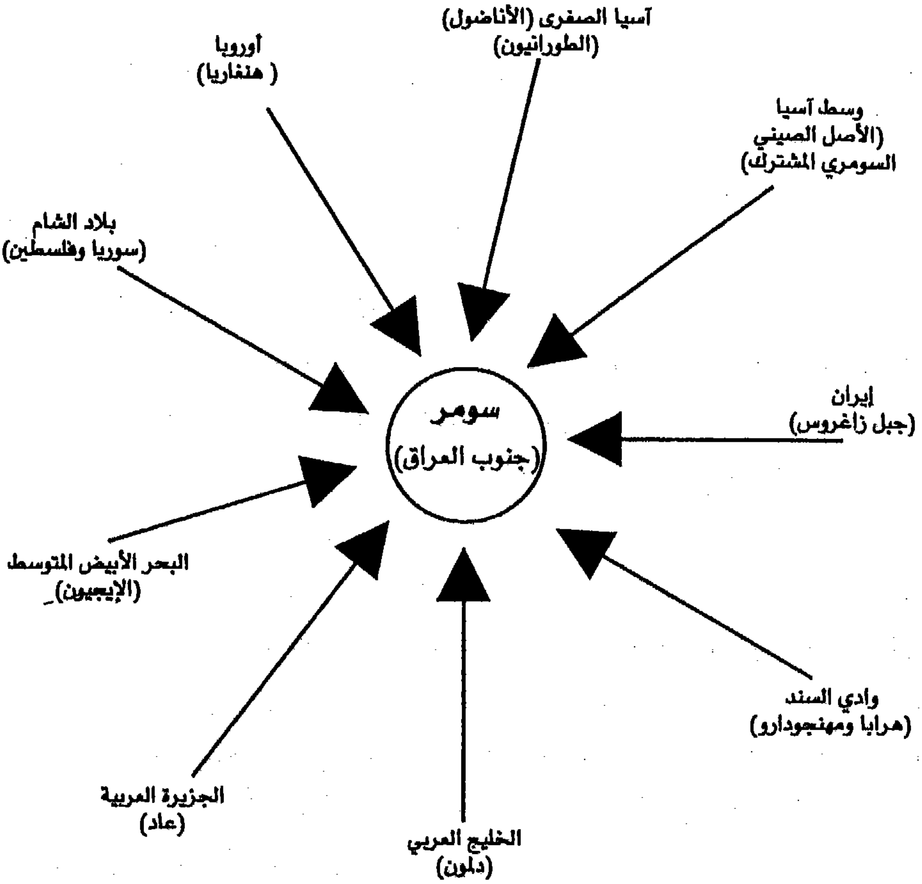

مخطط (١)
نظريات أصل السومريين من خارج وادي الرافدين

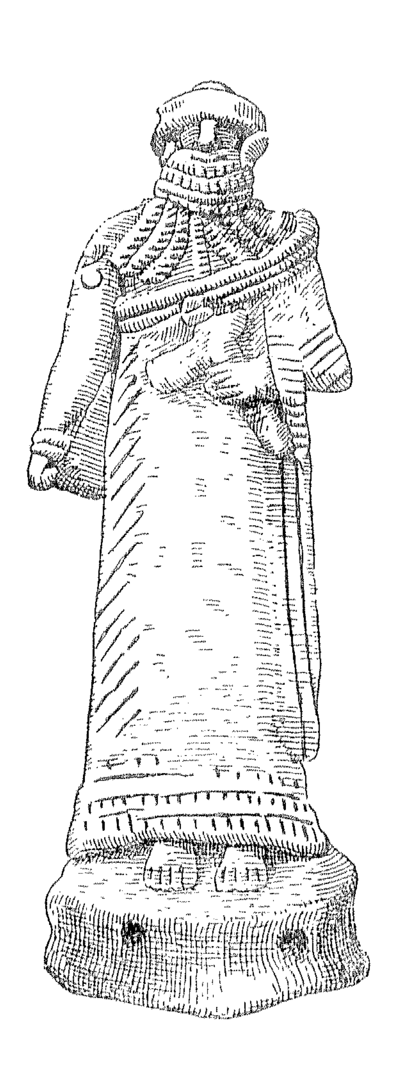

شكل (٧)
محارب سومري

شكل (٨)
مناظر أسطورية وجدت مرسومة على آلة موسيقية
من أور الثالثة توضّح طرب ورقص الحيوانات

٣ . الاصل الايراني وجبال زاغروس :

لاحظ بعض الباحثين أن السومريين يستعملون في كتابتهم ولغتهم رمزاً واحداً لمدلولين هما الجبل والوطن (البلد) . . وهو كور (Kur) . ورأو أن في ذلك ما يدل على أنهم يعنون بأن وطنهم هو الجبل، ووضعوا احتمالاً لأقرب الجبال المحاذية لجنوب وادي الرافدين وهي جبال زاغروس ، وقد عزز هذا الرأي أن السومريين لم يبنوا معابدهم على أرض مستوية مثل البيوت والقصور بل على أرض مرتفعة ووضعوا مصطبات بنيت عليها هذه المعابد، ثم بنوا المعابد على شكل زقوات تشبه في شكلها الجبال العالية، وجعلهم هذا يربطون بين المعبد كمكان مقدس وبين الوطن كمكان قمدس قدموا منه وأن هذا المكان هو الجبال الايرانية شرق سومر .

وازداد تعزيز هذا الرأي ما وجد في الأختام السومرية الاسطوانية من رسوم الأشجار وحيوانات جبلية مثل (السرو والارز والوعل والماعز الجبليين من ذوي القرون الطويلة) .

ثم ازداد هذا الرأي رسوخاً مع اكتشاف التشابه بين فخار العبيد في سومر مع فخار سوسة، ولكن ظهور فخار أريدو السابق عليهما والذي شكل مصدرهما خفف من هذه الحجّة، ثم أن الزقورات كانت تنفيذاً لتصوير مثولوجي لاهوتي عن جبل الكون الاول الذي ظهرت الآلهة على قمته حسب اللاهوت السومري، وانه لا يمكن الاعتماد على مفردة أو مفردتين للدلالة على أصل شعب له عشرات الآلاف من المفردات في لغته وكتابته .

٤. الأصل السندي (هارابّا ومهنجو دارو) :

بعد أن اعطت الاكتشافات المثيرة في حوض نهر السند (مناطق هرابّا Harappa وموهنجودارو Mohenjo - Daro) صورةً جديدة لاصول الحضارات القديمة في الهند، وجد بعض العلماء أن هناك تشابهاً كبيراً بين الآثار السومرية والهندية الثقافية والمادية والأختام التي تعود إلى حوالي (٣٠٠٠ -٢٧٠٠ ق. م) ومما زاد في ذلك العثور على مدن سومرية مثل (أور، كيش وتل أسمر) على أختام تحمل صفات الأختام المعروفة في وادي السند من حيث الشكل والاسلوب وصور المنحوتات المحفورة عليها كالثور ذي السنام فوق الرقبة والفيل والكركون والتمساح (أنظر علي ١٩٨٩ : ٢٧).

والنظرية التي تقول بوجود علاقة عرقية حقيقية بين السومريين وبين أقوام هارابّا ذات جاذبية خاصة لاولئك الذين يحاولون أن يجدوا صلة لغوية بين اللغة السومرية واللغة الدرافيدية، وهناك دلائل قوية على شكل طرز فنية واشياء مادية خاصة بحضارة وجدت في المواقع الاخرى ولعلاقات تجارية في الألف الثالث بين السومريين وأقوام وادي الهند أو بلوخستان (انظر ساكز ١٩٧٩ : ٥٣).

٥ . الأصل الخليجي (دلمون)

من اساطير الكاهن البابلي اليوناني (برعوشا) ومن قائمة ملوك ومدن ما قبل الطوفان هناك ما يشير إلى أن الرجل السمكة أوانيس Oannes الذي خرج من الخليج وجلب معه مقومات الحضارة. وهذا يتفق مع الأفكار السومرية حول إله الحكمة إنكي (إيا) والذي شكل الإله المحلي لمدينة اريدو وهي أقدم مرئية كانت تقع على ضفاف الخليج العربي ثم استوطنت المدن الاربعة الاخرى بنزوحٍ من البحر من الجنوب الشرقي فصاعداً حتى الخليج العربي (انظر ساكز ١٩٧٩ : ٥٢).

أما النظرية التي تحمّس لها جيوفري بيبي على أساس أن ما عثر عليه في دلمون (البحرين) من آثار سومرية ومن آلاف القبور تشير بوضوح إلى أن دلمون كانت الموطن الذي نزح منه السومريون عبر الخليج العربي مرواً بجزيرة فيلكا ثم إلى جنوب وادي الرافدين، ويعتمد في ذلك أيضاً على أن السومريين كانوا يذكرون دلمون في أساطيرهم على أنها الجنّة الخالدة وعلى أن الخالدين من البشر يسكنون فيها (زيوسدرا أو أوتونابشتم في ملحمة كلكامش) وأنها تذكر بالعصر الذهبي الذي عاشوا فيه (انظر بيبي ١٩٨٥).

ويتوسع مناصرو هذه النظرية أكثر من ذلك عندما يقررون أن حضارة ما جان (مكان) في عُمان وحضارة التاروت في الجزيرة العربية وحضارات أم النار والباربار في دول الامارات وقطر تشكل الخلفية الخليجية لحضارة دلمون وأن هذه الحضارات مجتمعة كانت أصل السومريين وموطنهم الأول قبل أن يظهروا في وادي الرافدين.

٦ . الأصل الجزيري (عاد)

تعتبر نظرية الأصل الجزيري التي جاء بها الدكتور بهاء الدين الوردي **(الوردي ١٩٨٣)** من أكثر النظريات إثارة ودهشة، ففي كتابه (حول رموز القرآن الكريم) يذهب الوردي إلى

القسم الثاني

التاريخ السومري

لا تستوي معرفتنا بالتراث السومري أو بأي مظهر من مظاهر الحضارة السومرية دون معرفة دقيقة بالتاريخ السومري، هذا التاريخ الذي ما زال قابلاً لإعادة النظر فيه والذي ما زال يثير جدلاً عريضاً بين المؤرخين.

لقد اعتاد المؤرخون الغربيون والعرب على تقسيم التاريخ السومري إلى مرحلتين هما القديمة قبل مجيء الاكديين والحديثة وهي مرحلة سلالة اور الثالثة .

ولكنّنا وجدنا أن هذا التقسيم لا يعطي للقارئ صورة دقيقة عن تاريخ سومر، ولذلك اتبعنا منهجاً جديداً في تقسيم التاريخ السومري إلى خمس مراحل على أساس التطور الحضاري ثم السياسي للشعب السومري وحضارته وهذه المراحل هي :

١ . مرحلة الأصول : وتبدأ من زمن غير معروف على وجه الدقّة ولكنّها تنتهي إلى ٣٥٠٠ ق . م وسنناقش فيها نظريات أصل السو مريين.

٢ . مرحلة الظهور (٣٥٠٠ - ٣٠٠٠) ق . م حيث بناء نواميس الحضارة السومرية وبدء الإشعاع الحضاري لسومر .

السومريين متمماً للتطورات التي سبقته. فقد تطور وادي الرافدين في التعدين والزراعة والري وإنشاء المدن والمعابر وظهور الحرف . . فما الذي يمنع أن تنمو هذه النواميس الحضارية وتتطور ويكون ذلك على أيدي اناس أُطلق عليهم بعد ذلك إسم : السومريين .

يقول المؤرخ (جورج رو) بأن الأدب السومري يقدّم لنا صورةً لشعب مُجد مثقف، وجد متدين، غير أنه لا يعطينا معلومات عن أصله. وتدور حوادث القصص والأساطير السومرية في وسط غني بالأنهار والبحيرات وبالبردي والنحيل - وهذه خلفية نموذجية لمنطقة جنوب العراق - وتعطي انطباعاً قوياً بأن السومريين قد عاشوا دائماً في ربوع هذه المنطقة. وليس هناك ما يؤكد وجود أي موطن سالف للسومريين يختلف عن وادي الرافدين، ، (رو ١٩٨٤ : ١٢١).

بعد الثورة النيوليتية الهائلة في شمال وادي الرفدين وعلى سفوح جباله وظهور القرى والعبادات المنتظمة وسبل التحضر، وصلت كانت هذه الثورة إلى ذروتها في حضارة أو ثقافة سامراء في الألف الخامس قبل الميلاد. وقد هذه الحضارة تعتمد في اقتصادها على الزراعة . . والزراعة بدورها تعتمد على الأمطار المتذبذبة السقوط. ولم يكن هناك سبيل امام السامرائيين إلاّ الاعتماد على الأنهار وتنظيم ريها . . وكان لا بد أن يرافق ذلك انحدارهم إلى الجنوب مع مسيرة دجلة فبدأو بالنزوح تدريجياً.

كان الإسم القديم لمنطقة سامراء في الألف الأول قبل الميلاد (سرمراته) وذكر أيضاً (سيمراوم) و (سيمراء) . . اما الرأي الذي يقول أنه في العصر العباسي اشتق من عبارة (سُرّ من رأى) فهو خرافة ولا شك. ويدل على أن هذه المنطقة وما حولها كان لها علاقة باسم (سومر) بدليل ذكر (سور سومر) عند احد المورخين الرومان ووجود منطقة (سومار) إلى الشرق من سامراء بإتجاه ايران .

إن هذا كله يشير إلى أن سامراء النيوليتينة كانت الموطن الاصلي للسومريين وقد حاول الدكتور فوزي رشيد اثبات ذلك في أكثر من مناسبة .

ولا نستبعد مطلقاً أن انتشار السامرائيين النيوليثين كانوا في الأرض المحصورة بين (سامراء) على دجلة و(حديثة) على الفرات. وأن انحدارهما ، كلٌ على نهره، بدأ في منتصف الألف الخامس قبل الميلاد مع بدء الثورة الكالكويتية واستخدام المعادن. وقد تكون جبال حمرين مصدراً اساسياً في هذه الهجرة .

ويبدو مع الزمن، في حدود الألف الخامس قبل الميلاد ، ظهر في المناطق التي حول نهر دجلة في اراضي جنوب وادي الرافدين الخصبة اقوام اطلق عليهم اسم (الدجلويون الاوائل) وهم ابناء حضارة سامراء. أمّا الذين تتبعوا نهر الفرات في اراضي جنوب وادي الرافدين الخصيبة فاطلق عليهم اسم (الفراتيون الأوائل) . وكان لكل من هؤلاء لغة تختلفُ إلى حد ما عن الأخرى وباندامجهما في مدن السهل الرسوبي ظهر ما نسميهم بـ (العبيدون) الذين يمكن أن نطلق عليهم السومريون الأوائل حيث شكلوا الأجداد المباشرين للسومريين . ويمكن تتبع ما أسلفناه في (المخطط رقم (٢))

وبذلك نرى أن القسم الجنوبي من وادي الرافدين كانت تسكنه ثلاثة أنواع من الأقوام المتجانسة (بين الألف السادس والخامس) ق.م. وهي :

١- الدجلويون الأوائل (proto - Tigridians) وهم الأقوام الذين سكنوا حول النصف الجنوبي من نهر دجلة واستقروا في النصف الأعلى من السهل الرسوبي، وقد بحث الباحثون في ما تبقى من اسمائهم لغتهم فوجدوا ان هناك اسماء بعض الآلهة مثل «داگان وزابابا ورب الشمس أمبا AMBA وعشتار وأداد ، وبأن المنطقة قد سكنت من قبل العناصر المتكلمة باللغات السامية باقوام تختلف عن الفراتين الاوائل، اطلقوا عليهم اسم سكان دجلة الأوائل » (الأحمد ١٩٧٨ : ٢٣١).

٢ . الفراتيون الأوائل Proto - Euphratic: وهم النازحون الشماليون الذين اسسوا مدنهم على نهر الفرات وشكلوا اغلب سكان النصف السفلي من جنوب العراق. وقد قام لاندز بيركر بدراسة بعض مفرداتهم التي شملت أسماء مدن معروفة وأسماء حرف وصناعات ضرورية وأساسية للمجتمع الزراعي السومري فيما بعد . وقد أطلق هو هذه التسمية على هؤلاء الأقوام، وشخص ما يقرب من (٣٥) مفردة لهم، ثم أضاف لها (غلب) (٢٣) مفردة أخرى.

٣ . العبيديون : وهم في رأينا الخليط الحضاري من الدجلويين والفراتيين الأوائل وجميع الفلاحين والحرفيين الذين نزحوا من شمال وادي الرافدين واستوطنوا سهله الجنوبي الرسوبي وابدعوا في مجالات زراعة الري وصناعة الفخار الخاص بهم واستعمال المعادن وبناء المدن. ونرى أن من أوائل المناطق التي ظهر فيها العبيدون كاصحاب حضارة جديدة هي منطقة أريدو ثم تل العبيد ثم الوركاء . . الخ . وكان زمن ظهورهم ينحصر بين

وكان أمر اكتشاف اللغة السومرية ما زال في بدايته ، وقد تحدث صموليل نوح كريمر عن احتمال كون اللغة السومرية تنتمي إلى نمط الطورانية ، الآ أن طه باقر الذي لمح إلى ذلك أيضاً في مقدمته حسم هذا الموضوع برأي علمي عندما قال « ومع أن اسلوب الإلصاق مستعمل في جملة لغات بشرية ملصقة قديمة وحديثة مثل اللغة العيلامية ولغات عائلة (الاورال - الطاي) كالمغولية والتركية والمجرية ولغات أخرى مثل البولينيزية والباسكية وبعض اللغات القوقاسية مثل الجورجية . بيد أنه يمكن القول أن اللغة السومرية لا تمت بصلة قربى إلى أيٍّ من هذه اللغات الملصقة ، ولعل أقرب فرضية لتعليل تفرد اللغة السومرية أنها من عائلة لغوية أنقرضت في أزمان بعيدة عن عصور ما قبل التاريخ ولم يبق منها سوى اللغة السومرية التي تكلم بها السومريون في حضارة وادي الرافدين ، وكانت أقدم اللغات المدونة في هذه الحضارة (باقر ١٩٧٣ : ٦٠).

٢. الأصل الوسط آسيوي (الاصل الصيني السومري المشترك) :

يرى بعض الباحثين أن السومريين قدموا من هضاب ومرتفعات أواسط آسيا ، وانهم سلكوا طريقاً باتجاه ايران جنوباً حتى استقروا في جنوب العراق . ودليلهم على المسلك الايراني هذا تشابه فخار العبيد الملون في العراق وايران (وهذا بالطبع لا يدل علي ما ذهبوا اليه بل يدل على انتشار فخار العبيد باتجاه ايران) .

وقد ذهب الباحثان (بالي ولت) إلى مذهب أبعد فقد استدلا من خلال بحثهما الدقيق في الكتابتين المسمارية الصينية والسومرية في كتابهما (الصينيون والسومريون) إلى أن هناك تشابهاً صارخاً بين المراحل الصورية الأولى من الكتابة الصورية المسماوية (التي اخترعها السومريون) والمراحل الأولى من الكتابة الصينية القديمة (الكو . ون) ووضعا معجماً صينياً سومرياً مقارناً للكثير من الكلمات المشتركة في معانيها وأصواتها ، واستنتجوا أن اسلاف الصينين والسومريين جاءوا من اصول جبلية في وسط آسيا منحدرين باتجاهين ، أحدهما ذهب إلى الصين والآخر اخترق ايران واستقر في جنوب العراق . وكان كل منهما يحتفظ باصول الكتابة المشتركة البدائية لأسلافهما مع تصويتاتها المشتركة (انظر Bali, Litt 1913: introduction) .

٢ . مرحلة الظهور (٣٥٠٠ - ٣٠٠٠) ق.م

مع ظهور ثقافة أو حضارة اوروك (الوركاء) (والتي تقع على بعد ٣٠ كم جنوب شرقي السماوة) بدأ ظهور السومريين يتضح في العراق ، ومع هذا العصر بدأت الحضارة في جنوب العراق تنعطف نوعياً خصوصاً وأن حضارة العبيد كانت قد انحلت تماماً ، فقد بدأ الفخار بأنواعه الثلاثة (الأحمر والرمادي والعادي) بالظهور أولاً كدلالة على تغيير مزاج وذوق الناس الذين يستعملون هذه الأدوات الفخارية في حياتهم . وبدأت معابد المصطبات بالظهور والإنتشار . وفي حدود ٣٢٠٠ ق . م ظهرت أول أشكال الكتابة التصويرية في معابد أوروك وسميت مرحلة الكتابة هذه بالمرحل الصورية(pictographic) حيث أصبح بالإمكان التعبير عن كلمة بعلامة واحدة ، فمثلاً العلامة :

(GU) (كو)

تمثل صورة رأس الثور وتعني كلمة ثور (انظر رشيد١٩٧٢ : ٢٠) .

وكانت الحياة الإجتماعية والإقتصادية تشير إلى تبدلات نوعية كبيرة . وانتشر فن النحت ، ونقشت الألواح من الحجر ، وصنعت الأختام الإسطوانية وكان فن العمارة راقياً جداً فقد زينت واجهات المعابد بنقوش مصنوعة . . منها معبد (آن) في اوروك ، ومعبد العقير . او زينت بالفسيفساء المتكون من مسامير ملونة من الفخار أو الحجر .

وبعد ثقافة أوروك السومريةالأولي بدأت ثقافةجمدت نصر السومرية الثانيةالتي تصاعدت فيهاالانجازات السومرية ، وتقدمت فنون الحضارة السومرية وتأسست أغلب نواميسها ، ويذكر أنه قدعثر فيها على مسلة صيد الاسود والاءناءالنذري ورأس القناة الرخامي وتمثال إمرأة عارية ومجموعة من الأختام المسطحة والإسطوانية والأسلحة والفسيفساء وتطورت الصناعات المعدنية كثيراً .

أما الكتابة فقد انتقلت من طورها الصوري الى الطور الرمزي (Ideographic)حيث أصبح يمكن التعبير عن الاشياء والأفكار المتعلقة بها أو التي يمكن أن توحي بها ، فصورا المحراث يمكن أن تعبر عن الفلاح ايضاً ، وصورة الفم ومعه صورة الماء تعبير عن الفعل (شرب) فاذا كان معه قطعة خبز تعبر عن الفعل (أكل) . . وهكذا .

وتطورت الكتابة المسمارية بعد ذلك إلى الطور الصوتي (Phonetic) حيث أصبح

الاهتمام بالعلامات المسمارية، دون معانيها التي تعبر عنها الصورة في الأصل، لتكتب بواسطة الأصوات فمثلاً كلمة (السهم) ترسم بعلامة معينة تلفظ بـ(تي) ، ولكن لفظ (تي) يعني في نفس الوقت كلمة (حياة) . . لذلك أصبحت كلمة حياة وسهم تكتبان بنفس العلامة دون أن يكون بينهما علاقة .

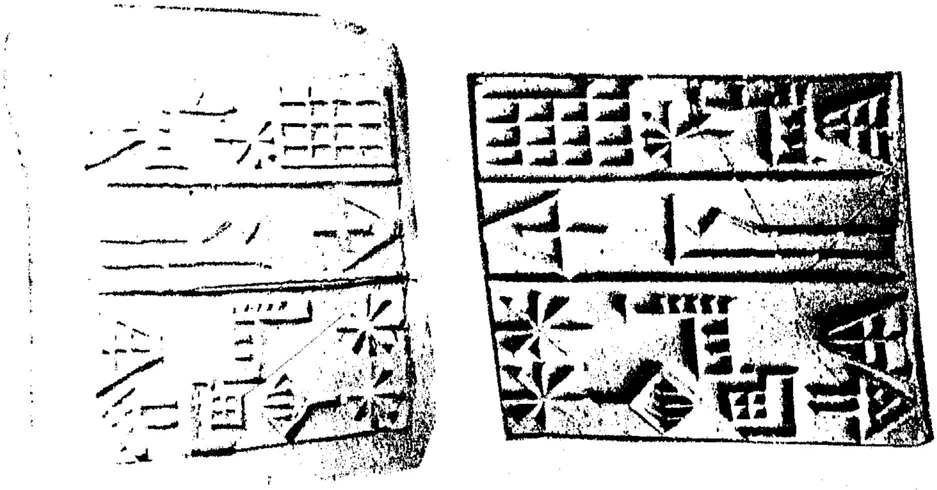

شكل (٩)
كتابة سومرية مسمارية

أما المرحلة الرابعة فهي المرحلة أو الكتابة المقطعية (Agglutinative) التي مهدت لها المرحلة السابقة، حيث أصبح الاعتماد كلياً على الألفاظ الصوتية دون المعاني . فبدأ دمج العلامات ليدل على كلمات مادية ومعنوية جديدة، واصبح مع هذه المرحلة كتابة الاسماء سهلاً، فمثلاً اذا كان اسم الشخص (كيتي ki- ti) فيتم رسم علامة ki التي تدل على المكان أو الأرض، ثم بعدها علامة Ti التي تدل على السهم أو الحياة دون أن يعني

بالضرورة معنى اسم الشخص (مكان أو أرض الحياة) مثلاً . . وهكذا ، وقد انتشر الخط المسماري في مرحلته الصورية في جميع بلاد سومر ، بل ويظن أنه قد أنتشر إلى خارج سومر بإتجاه الشرق نحو الصين ، ومن الشكل الصوري للكتابة المسمارية السومرية ظهرت الكتابة الصينية القديمة المسماة (كو - رون) (انظر Bali, litt, 1913) .

وكذلك نرى أنه من انتشار الحضارة السومرية والسومريين وكتابتهم في المرحلة الصورية غرباً بإتجاه البحر المتوسط ومصر نشأت الكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة وانتشرت معها نواميس حضارية سومرية كثيرة (انظر waddell 1930) .

شكل (١٠)

الأعلى: مخلوقات خرافية سومرية الوسط والاسفل: قبضة السكين التي عثر عليها في تل الأراك في مصر (قبل ٣٠٠٠ ق.م) وهي تشير الى تأثيرات سومرية واضحة (المخلوقات الخرافية، الزوارق ، الحيوانات المتصارعة، الشخوص .. الخ).

٩ . الأصل الاوربي (الهنكاري) :

قام الدكتور بندنك من جامعة بوينس ايرس باصدار كتاب (الاعجوبة السومرية The sumerian wonder) عام ١٩٧٤ ، حاول أن يثبت من خلاله أن السومريين جاءوا من هنكاريا «وأغرب ما في هذا الكتاب قائمة تحتوي على عشرات من المفردات السومرية التي أوجد لها المولف بطريقة أو بأخرى، ما يوازيها في الهنغارية معناً ولفظاً، وقد خلص المؤلف في نهاية الأمر إلى رسم خريطة توضيحية لهجرة السومريين من الأراضي الهنغارية- الرومانية إلى بلاد الأناضول وصولاً إلى مناطق الفرات العليا ، ومن ثم النزول باتجاه جنوب وادي الرفدين نحو ما يعرف ببلاد سومر، (على ١٩٨٩ : ٢٧).

ويبدو تهافت هذه النظرية واضحاً حيث عكس الدكتور بندنك الأمر ، فبدلاً من الإشارة إلى انتشار الحضارة والكتابة واللغة السومرية إلى أصقاع بعيدة في اوربا ودخول مفردتها إلى اللغات الاوربية القديمة، عكس الأمر دون مراعاة البعد التاريخي للموضوع.

١٠ . الأصل العراقي (الرافديني المحلي) :

أرجأنا الحديث عن هذه النظرية إلى آخر هذا العرض، وذلك لنبين، أولاً ،أن الباحثين لم يتركوا جهة من جهات الأرض إلاّ وجعلوها أصلاً للسومريين، وثانياً ،لنبين أن كل نظرية من النظريات التسع السابقة إعتمدت على عامل واحد أو عاملين كأساس لها مثل اللغة أو الثقافة او البابولوجيا دون الأخذ بالاعتبار القضية السومرية باكملها، وكقضية شاملة متصلة بماضٍ قبلها ومستقبل بعدها .

ونحن نرى أن نظرية الأصل العراقي للسومريين تحلّ الكثير من المشكلات التي طرحتها النظريات الأخرى، رغم أن بعضها ما زال عالقاً.

السؤال الذي نطرحه أولاً هو: أي الاماكن او البلدان كان اكثر تطوراً من بلاد الرافدين في الأرض كلها قبل ظهور السومريين في جنوب وادي الرافدين حتى نقول بأن السومريين قدموا من خارجه وجلبوا معهم نواميس الحضارة ومنها الكتابة ؟

والجواب الحتمي هو لم يكن هناك اكثر تطوراً من وادي الرافدين على الاطلا ، لأن العراق ومنذ عصر الميزوليت ثم النيوليت ثم الكالكوليت كان يتطور بطريقة متصاعدة متسارعة ويجعل جميع الاماكن التي حوله تلهث وراء تطوره . . ولذلك جاء تطور

٣ مرحلة دول المدن السومرية (عصر السلالات السومرية)

٣٠٠٠ - ٢٣٥٠ ق.م

إذا اتبعنا ثبت الملوك السومريين بعد الطوفان ، وما أظهرته الحفريات الآثارية لهذه المرحله نستطيع أن نقدر أن التاريخ المعروف لبدءمرحلة دول المدن والسلالات السومرية تقريباً ٣٠٠٠ ق . م، ويحدد بعض العلماءبدء هذه المرحلة في ٢٨٠٠ ق . م أو ٢٩٠٠ ق . م (أنظر باقر ١٩٧٣ : ٢٥٢) أي أن هذه المرحلة استمرت ما بين خمسة أو أربعة قرون فهي تقترب من زمن المرحلة السابقة (مرحلة الظهور)، ولكنها تمتاز عنها سياسياً وحضارياً وثقافياً في تقدمها الهائل وانتشارها الكبير ، وكأن سومر تحولت في هذه المرحلة إلى مصباح مضيء أنار الأرضَ كلها بعلومه وفنونه وآدابه وأديانه ونواميسه الحضارية المتعددة التي انتشرت إلى المناطق المجاورة لها في كل الإتجهات ، ليس عن طريق الحروب أو الغزوات بل عن طريق التجارة والهجرات السلمية الحضارية . . حيث امتازت سومر، وهي بلد الحضارة الأولى ، أنها في نفس الوقت بلد السلام والأمن ، حيث لم تكن الحروب الجماعية معروفةً في عصرها إلاّ بعد أن فاجأتها أقوام أخرى غير متحضرة بلغة الحرب والموت، أما سومر فكانت أم نواميس الحضارة البشرية التي انطلقت من جنوب العراق إلى الدنيا بأسرها .

امتاز النظام السياسي السومري في هذه المرحلة بما يسمى بدولة المدينة(city state) حيث تحتفظ كل مدينة باستقلالها السياسي وبحاكمها ومعابدها وآلهتها ، رغم أن هذه المدن جميعها تسودها معتقدات دينية عامة وعلاقات سياسية واجتماعية وحضارية عامة . وقد ظهرت في هذه المرحلة حضارة المدن السومرية العظيمة التي كان لها الفضلُ في تصعيد المنجزات الحضارية السومرية بأكملها . وسنذكر أهم سلالات المدن السومرية وأهم حكامها :

١ . سلالات كيش الأربعة : الأولى عدد ملوكها (٢٣) ملك وآخر ملوكها (أكا) الذي حاربه كلكامش خامس ملوك اوروك ، والثانية عدد ملوكها (٨) ملوك منهم (داداسك) و(ماما كال) . والثالثة حكمتها ملكة واحدة هي (كوبابا) ، أما الرابعة فقد حكمها (٧) ملوك أولهم (بوزرسين) .

وسلالات ملكية ولكنها كانت لا تقل أهمية عن مدن السلالات الحاكمة . وتمتاز هذه المرحلة حضارياً بابتكار نظام دولة المدنية السياسي بعد أن ظهرت المدن في وادي الرافدين منذ الألف الخامس قبل الميلاد ، وهو نظام يدل على التمدن والعمران الحضري وأول شكل من أشكال الحكم المتمدن في تاريخ العالم والذي ظلّ افضل حكم سياسي لعصور طويلة ، حيث ظلّت بلاد الشام مثلاً طيلة تاريخها القديم تحت ظل هذا النطام ولم تظهر دولة مركزية في الشام ، ولكن هذا لم يمنع ظهور حضارات متنوعة ومتجددة في المدن الشامية في سوريا ولبنان وفلسطين والاردن .

شكل (١١)
إناتم الأول ملك لكش (٢٥٥٠ ق .م)

(٤٠٠٠ - ٣٥٠٠) ق. م. وهم في رأينا (السومريون الأوائل) أو أجداد السومريين القريبون. وقد نشر العبيدون ثقافتهم وحضارتهم إلى شمال العراق والاناضول وسوريا والمتوسط وبلاد عيلام والجزيرة العربية والخليج وكانت إنجازات نوعية هامة على جميع المستويات، وهكذا فعل مثلهم أسلافهم السومريون الذين أكملوا نشر الحضارة الرافدينية وكل ما في الأمر، أن بدء ظهور الكتابة جاء بعد أفول العبيديين بقليل. ومع بزوغ السومريين، (بسبب الكتابة)، أدار هؤلاء القوم التاريخ من مراحل ما قبل التاريخ إلى أول المراحل التاريخية وهنا تكمن أهميتهم وفرادتهم.

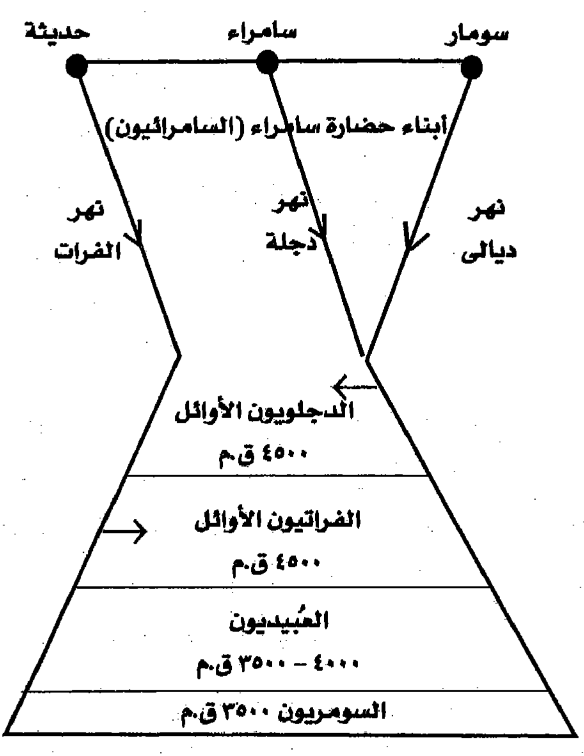

مخطط (٢)

مخطط مقترح للأصل الرافديني الشمالي (العراقي) ولكيفية تشكّل أجداد السومريين في الجنوب الرافديني

رأسها ومعهم الارستقراطيون والكهنة وشيوخ المدينة ، أما الطبقة الثانية فقد كانت من عامة الناس من (لأحرار) وهم الطبقية الوسطى كالفلاحين والصناع والأجراء، والطبقة الثالثة تتكون الأتباع الذين يعملون في أرض المعبد والصناعات المختلفة والذين يتبعون للأرستقراطية السومرية . والطبقة الرابعة هم العبيد الأرقاء التابعين للمعبد أو القصر وأغلبهم من العاجزين عن دفع ديونهم أوالأسرى أو المشتَرون .

ولا نريد ان نستطرد أكثر في مجال الانجازات الحضارية فنقول أن أول المدارس النظامية وفكرة المعلم والتلميذ والواح المدرسة ظهرت في هذه المرحلة ،وأن اول الشرائع والقوانين ظهرت . وان علوم الطب والكمياء والرياضيات والفلك ظهرت ، وان أول تصورات الإنسان عن الكون وفلسفة الخلق والوجود وأول الملاحم والاساطير المدونة وقصائد الحب وقصص البطولة قد دونت .

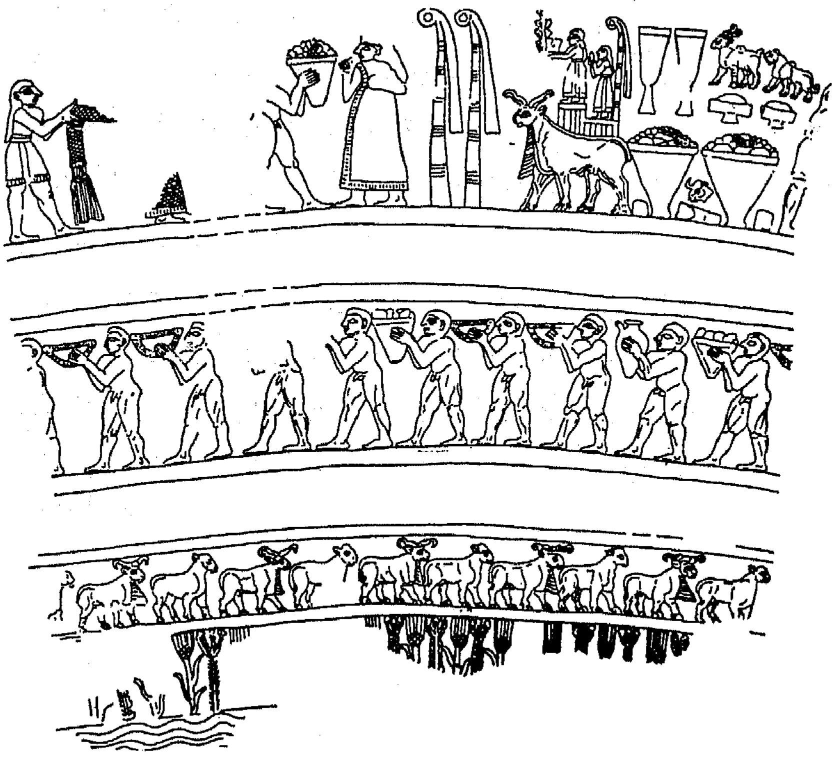

شكل (١٢)

الكأس النذري السومري من أوروك

وكـان لابد لهـذا الكنز الحضـاري السـومـري المدوّن ان ينتـشـر الى أصقـاع الأرض المحيطة به أولاً ثـم البـعـيـدة عنه . ويبـدو ان فكرة انتـشـار المنجـزات الحضـارية قـبل هذه المرحلة، وفي هذه المرحلة من خـلال الكتـابة وغيـرها هي التي أوحت لمخترعي نظريات الاصول السومرية بالبحث عن أصل السومريين خارج أرض الرافدين . لكن الحقيقة هي أن الأمـر مـعكوس تمامـاً فـإذاعكسنا رأس الأسـهم في المخطط رقم (١) الذي هو عن نظريات أصول السـومريين من خارج وادي النهرين فإننا سنحصل على المخطط الحقيقي لانتشار الثقافة السومرية إلى هذه «الأصول المزعومة ؟ » وإذا زودنا المخطط الجديد بالسنين والوثائق فستنكشف الحقيقة كاملة (انظر المخطط ٤) وسنرى أن ذلك الانتشار الحضاري السومري كان ضرورياً للسومريين أيضاً ، فالنمو العظيم للحضارة السومرية كان يحتاج من أمـاكن خـارج وادي الرافدين إلى أمور كـثيـرة ,, فالذهب من ميلوخيـا ووادي الهند واللازورد من برخشان Badkhshanوالاحجار الجيدة لصناعة الأواني من الجبال الايرانية في الشرق والفـضة من «جبل الفضة»، ربما طوروس والنحاس من ماجان Magan ومن ساحل البحر العربي . والاخشاب من سلسلة الجبال الشرقية . . وكـانت بلادسومر مرتبطة في ذلك الوقت بخطوط تجارية مع معظم العالم المعرف آنئذ، ، (بوتيرو ١٩٨٦ : ٥٨) .

أمـا التأثير الاكبر الذي مـارسته الحضـارة السـومرية فـفي وادي الرفدين نفسـه وخصوصاً على الأقوام السامية التي بدأت تدخل العراق خلال الالفين الرابع والثالث قبل الميلاد والتي كـانت علاقتها ودية مع السومريين واعتبرت جزءً من سكان وادي الرافدين لا غريبة عليه . . حتى اذا ما استوعبت هذا التراث السومري وهضمته وكان عدد هذه الاقوام يتزايد قياسياً للسومريين، قفزت الى مرحلة الحكم السياسي للعراق القديم وهو ما فعله الاكديون (الساميون) كما سنرى .

٤ . مرحلة الدولة السومرية (مرحلة لوكال زاكيري)
(٢٤٠٠ - ٢٣٧١) ق.م.

كان عصر دول المدن السومرية عصر حضارة وبناء وسلام سياسي ، لكنّ الجزء الاخير منه شهد توتراً سياسياً بدأ بين سلالتين متنافستين فيّ لكش وأوما . بدأ اولاً بينهما حول مياه الري والأراضي الزراعية وتحديد الحدود، وختم بينهما بظهور ملك (أوّما) القوي لوگال زاگيري الذي قضي على سلالة لكش في زمن آخر ملوكها اوروكاجينا (الذي يقرأ اسمه الآن اورو أنيمكينا) وهو مصلح اجتماعي كبير ونحنُ نعتبره أول مشّرع في سومر، ولكن العنت السياسي للوگال راگيري جعله يندفع باتجاه المدن السومرية الأخرى فحكم أوروك ثم سقطت المدن السومرية بيده واحدة بعد الأخرى، حتى لقب نفسه (ملك سومر) وتأسست بذلك مملكة أو دولة سومرية واحدة هي الأولى من نوعها في التاريخ .

وإذا أردنا التوقف قليلاً عند هذا الحدث الخطير فإننا بروح الموضوعية نقول أن ظهور دولة سومرية واحدة كان مقدمةً لزوال سومر كلها . . لأن سومر ابتكرت نظاماً سياسياً عظيماً هو (دويلات المدن) وكان الحكم فيها يعتمد على اللامركزية السياسي وهو نوع من الكونفدرالية الذي كان يلائم حياة ذلك الوقت . . ولم يعق ذلك النظام ان يكون هناك كيان سومري وحضارة سومرية عظيمة، لكن استخدام القوة والسيطرة المركزية كانا من السوابق التي ستتكرر بطريقة سيشهد فيها التاريخ زوال سومر نفسها، فقد دام حكم دولة زاگيزي السومرية الموحدة بين (٢٥ -٢٩) سنة . . وهناك ما يقال عن زاگيزي هذا بأنه توسع في دولته وحولها الى امبراطورية تعدت حدود وادي الرافدين وشملت سوريا، وهذا ما نراه مدوناً في سنديانةٍ حجرية مكرسة لإنليل في نفر تدور حول فتوحات لوگال زاگيري :

> *« عندما وهبه إنليل ، ملك كل البلدان ذات السيادة، الملكية على الوطن (سومر) ، ووجه أنظار الأمة اليه ، وجعل كل البلدان تنتظره، وجعل كل فرد، من حيثما تشرق الشمس إلى حيثما تغرب الشمس، يستسلم له . بعد هذا، ضمّ اليه أقدام كل شخص من البحر الأسفل (الخليج العربي)، وعلى امتداد دجلة والفرات، وحتى البحر الاعلى (البحر الابيض المتوسط) ، لم*

وانتشر الخط المسماري السومري ومعه اللغة السومرية إلى منطقة (عيلام) جنوب ايران . . وبدت منطقة عيلام وكأنها امتدادٌ لأرض سومر، لا يفصل بينهما سوى مياه الأهوار (انظر Hinz 1972) . حيث ظهرت آواخر العصر الشبيه بالتاريخي حوالي ٣٠٠٠ ق . م الكتابة العيلامية الاولى (Proto - Elamit) وفي مثل هذه المرحلة بدأت الحضارة والكتابة السومرية بالانتشار بإتجاه الخليج العربي ووصلت إلى دلمون (البحرين) وقد عثر على آثار تشير إلى ذلك (بيبي ١٩٨٥) .

أي أن الاشعاع السومري في فترة الظهور قبل بداية الألف الرابع قبل الميلاد إتجه أربع اتجاهات مهمة وأثر فيها ومهد لقيام حضارات فيها (انظر المخطط رقم (٣)) وسيساهم تقديرنا لهذا الامر ، على ضوء الموجودات الآثارية بحل مشكلة الأصول التي ناقشناها في الفقرة السابقة حيث أن الأمر حصل معكوسا، وقد بدأ بهذا الانتشار في هذه الإتجاهات الأربعة .

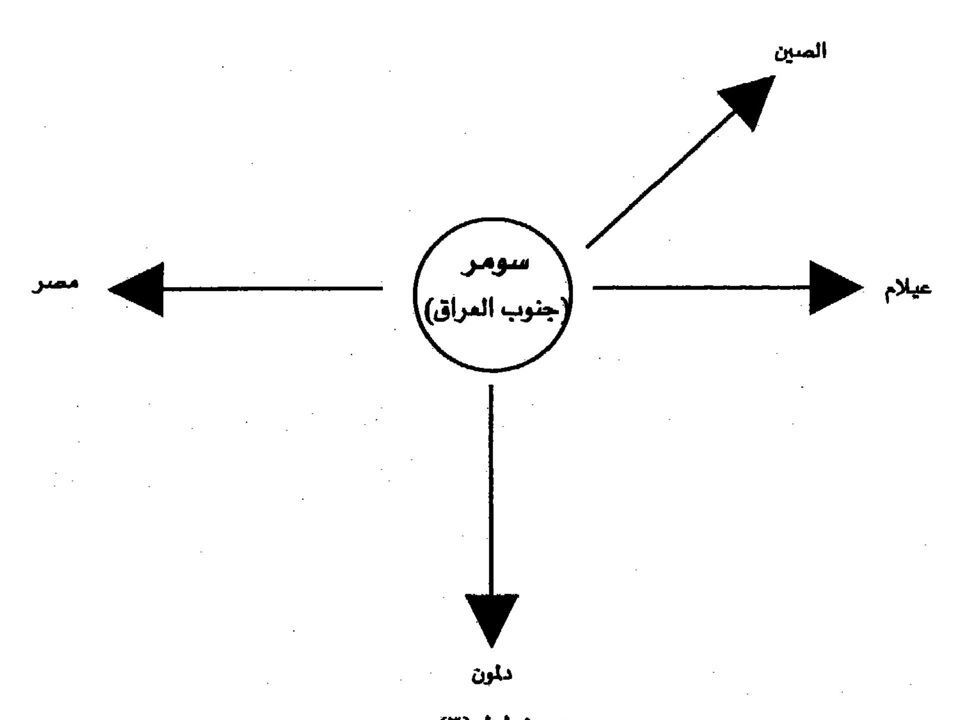

مخطط (٣)

يوضح انتشار الثقافة والكتابة السومرية خارج وادي الرافدين ما بين ٣٥٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م

الاكديين إذا كانوا قد اتخذوا القسوة إزاء بعض المدن السومرية فإن سبب ذلك لأنها أعلنت الثورة وليس لأن أهلها من السومريين وأنهم ساروا على السياسة نفهسا تجاه بعض المدن الاكدية إذا أظهرت العصيان (باقر ١٨٧٣ : ٣٥٥) أما الثقافة السومرية فلم تتقوض أو تذوب خلال القرنين الاكديين بل اكتسبت عناصر جديدة منشطة من الاكديين مثلما منحت هي الارض الخام التي بنت الحضارة والثقافة الاكدية نفسها عليها . . وحتى على المستوى السياسي بقي بعض حكام المدن السومرية الذين من أصل سومري يحكمون مدنهم ، ولولا هذا الامر لما استطاع السومريون بعد ان اسقط الگوتيون الامبراطورية الاكدية طرد الگوتين واستعادة وادي الرافدين بأكمله .

حكم الدولة الاكدية عشرة ملوك اشتهر منهم الخمسة الأوائل، ثم استطاع الگوتيون وهم من اقوام جبال زاغروس المتاخمة لحدود العراق الشرقية مع ايران القضاء على الدولة الاكدية وورثوا أغلب مدنها خصوصاً الشمالية منها وحكموا (١٢٥) عاماً لم تقدم خلالها أيّ ثقافة أو حضارة للعراق بل خربت مدنه ودمرت بعض جوانب حضارته، أول ملوكهم (شارلگاب) وما لبثت قليلاً في جنوب العراق حتى انسحبت إلى الشمال واتخذت مدينة (أرابخا) أي كركوك مركزاً لهم بحيث مهد مثل هذا الجو العودة لدول المدن السومرية للتطور والانتعاش، فظهرت سلالة حاكمة في الوركاء حكمها خمسة ملوك. وظهرت سلالة لگش الثانية التي بعثت الحياة في الروح السومري من جديد خصوصاً في عصر ملوكها (گوديا) . وقد حكم فيها (١٣) ملكاً سومرياً، ثم ظهر في اوروك مؤسس السلالة الخامسة لها وهو (اتو حيگال) الذي كان قوياً فقام بطرد الگويتين من وادي الرافدين كله واعاد السيادة السومرية على البلاد، ويبدو أنه قام بمحاولة تسوية من مدينتي لگش وأور التابعتين له، لكن حاكم مدينة أور واسمه (أورنّمو) انفصل عنه، ثمّ تغلب عليه واسس سلالة سومرية جديدة هي سلالة أور الثالثة التي قدر لها أن تعيد المجد السومري وتجعل في سومر إمبراطورية جديدة .

٢ . سلالات أوروك الثلاثة : الأولى عدد ملوكها (١٢) ملكاً ، وقد ظهر منهم ابطال سومر الذين ذكرتهم ملاحمها المعروفة وهم (أنمركار) و (لوكال بندا) و(كلكامش) . أما الثانية فعدد ملوكها (٣) ، أما الثالثة فقد حكمها ملك واحد قوي وطموح هو (لوكا زاكيري) الذي حاول أن ينشيء دولة سومرية موحدة لكل المدن السومرية ولكن سرجون الأكدي قضى عليه ، ونفذ مشروعه بل وأنشأ امبراطورية أكدية تعدت وادي الرافدين .

٣ . سلالتا أور : كانت المقبرة الملكية في أور تشير إلى سلالة ملكية مبكرة في أور ، ولكن أور حكمت في هذه المرحلة من قبل سلالتين الأولى حكم فيها (٥) ملوك أولهم مسانيبدا وآخرهم بالولو .

٤ . سلالة لكش : ظهرت في لكش سلالتان الأولى في هذه المرحلة وقد انصرفت للعمران والبناء وأهم ملوكها (أورنانشة) و (أنتمينا) والمصلح العظيم (أوركاجينا) الذي كان آخر ملوكها أما السلالة الثانية فستتحدث عنها بعد الغزو الكوتي لوادي الرافدين .

٥ . سلالة أومّا : حكم فيها (٦) ملوك أولهم أيابورز .

٦ . سلالة أكشاك : حكم فيها (٥) ملوك أولهم أونزي .

٧ . سلالة أوان : حكم فيها (٣) ملوك .

٨ . سلالة أدب : حكم فيها ملك واحد هو لوكال آني مندو .

٩ . سلالة ماري : حكم فيها (٦) ملوك منهم لوكال تارزي .

١٠ . سلالة حمازي : حكم فيها ملك واحد هو (هادانيش) أو (انيش) .

كانت هذه هي المدن السومرية الأساسية التي حكم فيها ملوك سومريون ، لكن هناك مدناً أخرى في سومر تحضى بنفس أهمية هذه المدن مثل نيبور (نفّر) وهي أكبر مدينة دينية سومرية وتكاد تكون العاصمة الدينية المقدسة لبلاد سومر كلها ، حيث عبد فيها أكبر آلهة سومر (أنليل) ، ومدينة أريدو على ساحل الخليج ، ومدينة سبار (أبو حبّة) التي عبد فيها إله الشمس اوتو ، ومدينة أشنونا (تل اسمر) ومدينة خفاجي (تل اجرب) ومدينة ايسن ، ومدينة نينا (سرغل) ومدن أخرى . كل هذه المدن لم يظهر فيها ملوك

هكذا زال الكيان السياسي للسومريين الى الأبد، ولكن حضورهم الثقافي كان الأساس الذي بنيت عليه حضارات العراق القديم كلها، كما أن اللغة السومرية ظلت تستخدم كلغة دين وعلم لفترات لاحقة.

كانت الامبراطورية السومرية في أواخر حكم اباطرتها قد بدأت بالتفكك فقد انفصلت عنها عيلام، ثم انفصلت المدن السورية، أما مدن وادي الرافدين فقد تشكلت مثل رقع موزائيكية من الممالك الكبيرة والصغيرة، ففي جنوب وادي الرافدين ظهر صراع حاد بين مملكتي إيسن ولارسا لاحتلال مركز اور وحكم بلاد سومر واكد. اما في الشمال وادي الرفدين فقد ظهر صراع حاد بين مملكتي أشنونا وآشور للسيطرة علي الطرق التجارية الكبيرة وعاد العراق بالتدريج مفككاً الى دول مدن جديدة ساميّة هذه المرة حتى ظهرت سلالة بابل الاولى التي اعادت الوحدة له تحت حكم ساميّ قوي.

إن التاريخ السومري يظهر لنا متدرج التطور، فمن الأصول الزراعية البعيدة لفلاحي الشمال العراقي الى الظهور الواضح والزعامات والكهانات في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد الى ظهور دول المدن السومرية الى ظهور دولة سومرية واحدة إلى ظهور الامبراطورية السومرية، وهو تاريخ يستحق التأمل وإعادة الفحص دائماً بسبب من كونه أول تاريخ مكتوب في العالم لأول حضارة تدرجت سياسياً من حكومة المجلس إلى المدينة إلى الدولة إلى الامبراطورية.

وكان لابد لهذا الكنز الحضاري السومري المدوّن ان ينتشر الى أصقاع الأرض المحيطة به أولاً ثم البعيدة عنه . ويبدو ان فكرة انتشار المنجزات الحضارية قبل هذه المرحلة، وفي هذه المرحلة من خلال الكتابة وغيرها هي التي أوحت لمخترعي نظريات الاصول السومرية بالبحث عن أصل السومريين خارج أرض الرافدين . . لكن الحقيقة هي أن الأمر معكوس تماماً فإذاعكسنا رأس الأسهم في المخطط رقم (١) الذي هو عن نظريات أصول السومريين من خارج وادي النهرين فإننا سنحصل على المخطط الحقيقي لانتشار الثقافة السومرية إلى هذه «الأصول المزعومة ؟ » وإذا زودنا المخطط الجديد بالسنين والوثائق فستنكشف الحقيقة كاملة (انظر المخطط ٤) وسنرى أن ذلك الانتشار الحضاري السومري كان ضرورياً للسومريين أيضاً ، فالنمو العظيم للحضارة السومرية كان يحتاج من أماكن خارج وادي الرافدين إلى أمور كثيرة ,, فالذهب من ميلوخيا ووادي الهند واللازورد من برخشان Badkhshan والاحجار الجيدة لصناعة الأواني من الجبال الايرانية في الشرق والفضة من «جبل الفضة»، ربما طوروس والنحاس من ماجان Magan ومن ساحل البحر العربي. والاخشاب من سلسلة الجبال الشرقية . . وكانت بلادسومر مرتبطة في ذلك الوقت بخطوط تجارية مع معظم العالم المعرف آنئذ، ، (بوتيرو ١٩٨٦ : ٥٨) .

أما التأثير الاكبر الذي مارسته الحضارة السومرية ففي وادي الرفدين نفسه وخصوصاً على الأقوام السامية التي بدأت تدخل العراق خلال الالفين الرابع والثالث قبل الميلاد والتي كانت علاقتها ودية مع السومريين واعتبرت جزءً من سكان وادي الرافدين لا غريبة عليه . . حتى اذا ما استوعبت هذا التراث السومري وهضمته وكان عدد هذه الاقوام يتزايد قياسياً للسومريين، قفزت الى مرحلة الحكم السياسي للعراق القديم وهو ما فعله الاكديون (الساميون) كما سنرى .

٢ . التنين أساج والاله ننورتا

٤ . أساطير إنانا Myths of Inanna

١ . إنانا والآلهة (آن ، انليل ، انكي)

٢ . إنانا ودموزي

٣ . إنانا وملوك سومر (كلگامش ، شولجي ، شوسين ، ايدن داجان ، ايشمي داجان)

٤ . إنانا والانسان (شوكالتيودا ، بيلولو)

٥ . إنانا والعالم الآخر

أ . إنانا وجبل إيبيخ

ب . إنانا وكور

ج . هبوط إنانا إلى العالم الأسفل

تمتاز الأساطير السومرية بقدمها وعراقتها وأصالتها قياسياً إلى كل مثولوجيات الامم الأخرى، فقد كانت ولا شك في بدايتها قبل ٣٠٠٠ ق . م شفاهية وغير مدونة ، ثم بدأ السومريين تدوينها ، ويرى كريمر أن أقدم الأساطير السومرية المدونة وصل الينا مكتوباً باللغة السومرية على إسطوانة من الطين مقسّمة إلى عشرين حقلاً وتعود إلى حدود ٢٤٠٠ ق . م وهي اسطورة تتعلق بالاله انليل والالهة ننخرساج (انظر Kramer 1963: 168)

ولم يكن الشاعر السومري الذي كتب الاساطير (أو القصائد الشعرية) عارفاً بالوزن والقافية (كما في العصر الأكدي ثم البابلي الآشوري) لذلك جاءت قصائد، وأساطيره أشبه ما نسميه اليوم بـ(قصيدة النثر) ولكنها كانت مشروطة بتقنيات تعوض عن الوزن والقافية وهذه التقنيات هي (التكرار والمقابلة والوصف والتشبيه) .

ويرى كريمر أن السومريين استخدموا التشبيه على نطاق واسع ويبدو أنه كان التقنية الشعرية الرئيسية ، وقد اعدت دراسة لأكثر من عشرين نموذجاً تمثل جميع الأجناس الادبية ورغم ظهور المقارنات التي كانوا يفضلونها والتي لم تكن بالخيالية ولا بالعميقة ، الاّ أنها

تعكس درجة من رهافة الحس ذات صلة بالعالم الطبيعي والحيواني كصلتها بعالم الانسان ومصنوعاته (انظر كريمر ١٩٦٨ : ٦٥).

وتحفل الاساطير السومرية بمبدأ التشبيه الانساني (Athropormohpism)-حيث تشبه الآلهة بالبشر تماماً في كل سلوكها وشكلها وولادتها واحياناً موتها (وهو نادر لأن الآلهة تتصف بالخلود) واحياناً لا نشعر مطلقاً أننا امام إله أو آلهة بل أمام إنسان عادي أو ملك أو حكيم .

ونختلف تماماً عن الاستاذ صموئيل نوح كريمر الذي يرى أن معظم الاساطير السومرية اساطير سببية Etiological Myths اي أنها تحاول أن تفسر الاحداث الكونية وتخلق لها قصصاً مناسبة ونرى أنها أساطير منوعة فيها التأمل والسببية وهي صدى لعصرها وللطبيعة التي نشأت فيها ، وفيها ما هو رمزي وفيها كيفية تنظيم الكون وتطوره وليس أسباب وجوده فقط .

ولم تكن الأساطير السومرية شعائر مقروءة في الممارسات الدينية، وليس هناك ما يشير الى أن هذه الأساطير كتبت لتمثل أو لتكون جزءاً من الدراما الطقوسية بل كانت أشبه بالنصوص المقدسة يرى فيها السومري إرثاً لما رأوه الاجداد وعرفوه عن بدايات الأشياء أو عن تاريخها المقدس كما يقول مرسيا الياد، ولذلك ايضاً لم تكن تعامل كنصوص أدبية فيها قوة وغنى التعبير. بل كنصوص حقيقية لا خيال ولا شطح فيها .

وأنه لما يثير الانتباه حقاً ما لاحظه كريمر من أن الاساطير السومرية كانت على صلة بالمدارس ودور العلم السومرية (اي دُبّا E- dubba) او بيوت الالواح اكثر من صلتها بالمعابد. وكانت مادة للتعليم والاستنساخ ولم تكن مادة للوعظ والكهانة فقط، فقد عثر في مدينة نفّر (وهي العاصمة الدينية المقدسة لسومر) على الأساطير والتراتيل والمرثيات في التل المعروف بـ(حي الكتاب Seribal quarter) ولم يعثر عليها في معابد نفر الشهيرة .

يُبق له انليل أي منافس من حيثما تشرق الشمس إلى حيثما تغرب، فخضعت له كل البلدان ذات السيادة لسيطرته (كالأبقار) في المراعى، وكانت الأمة تروي (حقولها) بحبور في ظل حكمه، وانحنى له كل حكام سومر التابعين وكل امراء البلدان المستقلة أمام مكتبة التحكيمي في أوروك، ، (رو: ١٩٨٤ : ١٩٨).

ورغم وجود ما يشير الى ظهور المؤثرات السومرية الثقافية في هذه الأصقاع منذ المرحلة السابقة الاّ اننا لا نستطيع أن نجزم سياسياً بظهور امبراطورية سومرية في عصر لوگال زاگيزي، رغم أننا نستطيع أن نؤكد تماماً ظهور دولة أو مملكة سومرية موحدة في عصره شملت جنوب وشمال وادي الرفدين ودامت اكثر من ربع قرن بقليل .

ويبدو أن هذه الفترة من ظهور الدولة السومرية المترامية الاطراف أثارت شهوة رجل غير سومري الاصل كان يعيش في دولة سومر هذه، وهو من اصل سامي، كان يعمل (حامل كاس) أو نادل ملك كيش (أور - زبابا) السومري. فبدأ يخطط ليكّون توتاليتاريا سياسية عراقية كالتي فعلها لوگال زاگيزي واكثر، وقد كان مما يسانده تماماً زيادة العنصر السامي على حساب السومري والوجود الكثيف لهم في المدن السومرية ذلك الرجل هو (سرجون الأكدي) الذي أطاح بلوگال زاگيزي واسس الدولة ثم الامبراطويرة الاكدية (٢٧٣١ - ٢١٥٤) وعاصمتها اكد، أي أنها دامت بحدود قرن ونصف وتوسعت خلالها وشملت الاقطار المجاور فصارت أول امبراطورية في التاريخ، ولقد نوهنا ان هاجس التوسع والسيطرة الذي بدأ به زاگيزي أدى إلى هذه النتيجة التي نرى أنها حطمت التنوع وامكانيات نمو حضارات محلية مهمة وأنعشت هاجس التوسّع وفتح البلدان والقسوة عليها، وعلى شعوبها وربما تدميرها . . وهو ما سيتصف به تاريخ الشرق الادنى القديم بأكمله . . وما سترثه اليونان مع الاسكندر وروما . . الخ .

لقد كان انتقال السلطة من السومريين إلى الأكديين سلمياً بسبب العلاقة التاريخية التي تربط الشعبين وبسبب احتضان سومر لهما لقرون طويلة وتهذيب امكانيات التطاحن بينهما « ومن الامور الحضارية التي يجدر التنويه بها موضوع انتقال السلطة السياسية الى الاكديين الساميين انتفاء الصراع القومي الذي كان يفترضه الباحثون القدماء ما بين الساميين وبين السومريين على أن منشأه أسباب قومية . اذ الواقع من الامر ان الملوك

يشتمل على كل الانظمة والحكمة والالوهية الصافية، أنه الجامع للغمر وللآلهة . ويذكّر هذا بفاتحة التكوين العبري- وكان الله يرّف على وجه الغمر - ولذلك تعتبر نمّو هي أم جميع الاشياء والنواميس وتسمى (أما - تو - آن - كي) أي الام التي ولدت السماء والارض، وتسمي أيضاً (أما - باليل- و - تو - دنكر) أي الأم الاولي التي ولدت الآلهة (انظر الحوراني ١٩٧٨ : ١٣٣) .

إن الزمن الأول (أوريا) والمكان الأول (آن - كي) يشكلان في ذهن كل شعب من الشعوب نقطتين عميقتين في الوجدان، وتسبغ عليهما صفة القدسية الكاملة ، ويتحولان إلى جذرٍ للزمان المقدس، وجذرٍ للمكان المقدس.

إن الزمان المقدس «هو زمان ميطيقي ، بدئي ، لا يتواجد مع ماض تاريخي، زمان أصلي بمعنى أنه انبثق «فجأة» لم يكن مسبوقاً بزمان آخر، لأنه ما من زمانٍ يمكن أن يوجد قبل ظهور الحقيقة التي ترويها الاسطورة» (إلياد ١٩٨٧: ٧٠).

إن الزمان الأول الذي انبثق عن الكوزموغونيا السومرية اصبح الزمان المثالي لكل الازمنة الأخرى، وأحيط بالقداسة بل أصبح هو جزءاً من (المقّدس)، وبذلك كانت تتم استعادته سنوياً مع اعياد رأس السنة السومرية، فأيام الاعياد هذه ايام مقدسة تقطع مسرى الأيام الدنيوية العادية لبقية العام.

بعبارة أخرى « يكون في العيد إسترجاع لأول ظهور من الزمان المقدس كما حصل في الأصل، «في ذلك الزمان» . ذلك لأن الزمان المقدس الذي يجري فيه العيد لم يكن له وجود قبل «البوادر» الالهية التي يجري إحياء ، ذكراها في العيد ، (إلياد ١٩٨٧ : ٦٨).

أما المكان الأول (أن - كي) فكان يضم الأرض والسماء في حالة اندماج وإتصال وتصف الأدبيات الرافدينية هذا الجبل بأن نهايته في السماء وقاعدته المحيطة به هي الأرض، وأن الآلهة تجتمع على قمته .

ويتحول المكان الأول في الأساطير وفي الوجدان الجمعي إلى (مركز العالم) أو (سُرة العالم) ولذلك يولد العالم من هذا المركز، وينتج عن ذلك أن هذا المكان المثالي المقدس يصبح النموذج الاصلي أو البدئي لكل ما سيفعله الانسان على مستوى المكان (السكن أو البناء أو التطويب لمكان). «إن الاقامة في أرض تكرر فعل نشوء الكون. بعد أن

٥ . مرحلة الامبراطورية السومرية (سلالة اور الثالثة)
(٢١١٢ - ٢٠٠٤ ق.م)

دام حكم سلالة أور الثالثة زهاء القرن الواحد لم تكتف فيه بتوحيد المدن السومرية بل واستطاعت مدّ نفوذ سومر الى خارج وادي الرافدين مقلدّة ما فعلته الامبراطورية الاكدية ، فقد شملت فتوحاتها أغلب الشرق الأدنى فبالاضافة إلى شمال الرافدين وصلت فتوحاتها الى عيلام وسوريا ووادي الخاور والبالخ والاجزاء الشرقية من آسيا الصغرى ومناطق الخليج العربي.

وحكم في سلالة أور الثالثة خمسة ملوك هم (اور - نّمو ، شولكي ، أمارسين ، شوسين ، أبي - سين) .

وخلال هذا القرن السومري الأخير أنجز السومريون أعظم انجازاتهم في جميع المحالات وثبتوا أركان حضارة كبيرة ستكون أساس ما بعدها ، فقد انتعشت الثقافة السومرية القديمة بالمصل الاكدي الذي أضاف لها الكثير وبذلك نشأت ثقافة سومرية جديدة اصبحت أكثر قدرة على منح العالم القديم (الذي بدأ ينهض ويؤسس دوله وحضاراته) رؤية عالمية نشطة وقوية.

لقد كان الملك السومري أورنّمو (٢١١٣ - ٢٠٩٦ق . م .) هو أكثر ملوك سلالة أور شهرةً وعظمةً، فقد كان مهتماً بالبناء والعمران في كل سومر ، وتعتبر زقوة أور التي بُنيت لإله القمر (نانا) من أشهر وأروع انجازاته العمرانية . كذلك يعتبر من أقدم المشرعين في التاريخ فقد وصلت شريعته المدونة باللغة السومرية ، والتي تعكس إحساسه الإنساني بالعدل وسنّة لقوانين الغرامات المالية بدلاً من القصاص الجسدي (العين بالعين) وهو ما سنته لاحقاً شريعة حمورابي.

ويعتقد أن السبب العميق لسقوط الامبراطورية السومرية هو سبب اقتصادي ، فقد أصبح من العسير على بلد بدأت الملوحة تصعد في أرضه الخصبة ويقل انتاجه الزراعي ، ان يقوم بمدٍّ الغذاء والحياة الهائلة لأصقاعه البعيدة . . وان يلتفت لادراتها بصورة صحيحة.

أما الأسباب السياسية والعسكرية فقد كانت مباشرة وعنيفة ف ، قد كان من الواضح ان قلب سومر في جنوب العراق أصبح بين فكين شرسين الأول أتى من الشرق حيث هجم

ويمكننا من منطلق جديد، مناقشة مبدأ الخلق الكوني (الكوزموغوني) في المثولوجيا السومرية عن طريق الكلمة (أو ما تسمي في اليونانية والمسيحية باللوغوس)، ففي اللغة السومرية هناك كلمة (نّم) التي تعني خواص الشيء وفعله وقدرته وقدره . . وقد ترجم الاكديون هذه الكلمة إلى (شمتو) أي السمة والأسم والطبيعة الكامنة فيه، ويبدو أن هذه اللفظة ما زالت حيّة في اللغة العربية حيث (نم) تعني جوهر الانسان وطبعه وكل ما ينّم عنه. وسنناقش ذلك تفصيلياً في الفصل الثالث .

لكن الغريب أن كلمة (نم) قريبة جداً من (نمّو) وهذا يعني أن معنى (نم) كامن (نمو) أي أن (نمّو) تعني سمة واسم والطبيعة الكامنة لهذه الالهة التي بفعل اسمها وكلمتها الكامنة فيها تحرك الحلق وبدأ ، خصوصاً اننا اذا تعاملنا بالقاموس العربي مع كلمة (نمو) فإننا نجد أن فيها معنى (نام) ومعني (نمى ، نمو) وهذا يعني أن هذه الالهة التي كانت نائمة تحركت خواصها أو (نمّها) وبدأت (تنمو) وكان من هذا النمو أو الحركة أن ظهر حبل الكون (آن-كي).

إذا أخذنا بنموذج (المسكون والحركة) أو (الاوربوس وهي الأفعى الكونية المائية التي ذيلها في فمها وتكّون دائرة مغلقة) أو (الكلمة) فأننا نرى في جميع الأحوال أن (نمّو) تحركت على محورها ونتج عن حركتها انفتاح الذيل عن الرأس، والسالب والموجب، وتكوّنت كتلة جديدة بقطبين هي (الجبل الكوني) وبذلك تكون المرحلة الكوزموغونية الأولى قد انتهت وكانت حركة الاوربوس، وحركة (نمو) على محورها قد تمت برغبة محضة من الالهة السومرية الام الأولى (نمّو) دون استجابة لشيء . فهو خلقٌ ذاتي انبثق من داخل الكلمة نفسها وليس بأمرٍ منها.

٢. المرحلة الكوزموغونية الثانية

بعد أن تكون جبل الكون (بفعل انفتاح أوروبوسي) عاد اوربوس (أن -كي) وانغلق ثانيةً واصبحنا أمام أوربوس كوني (غير هيولي أو عمائي) ونرى أنه بفعل اطلاق الاسم (النم) أو الكلمة تحرك هذا المغلق الجديد وحركته هذه خلقت هذه المرة عنصرا الذكورة والانوثة، وهنا في هذه المرحلة يمكننا (وفق النصوص المسمارية) الحديث عن الخلق الجنسي الذي أمرت به (نمّو) بكلمتها (نم) لأن يسمّى الأعلى من جبل الكون السماء

ويكون ذكراً، ويُسمى الاسفل من جبل الكون والأرض وتكون انثى .

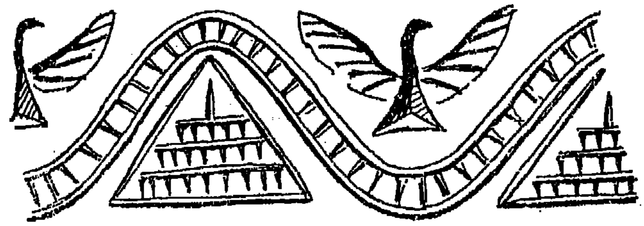

شكل (١٧)

جبل أسطوري سومري

إن حركة الأوربوس الثاني لم تكن ذاتية (كما في الأول) بل بدأت بالكلمة ونفذت بالجنس، لأن بعض الاشارات السومرية تصف السماء والأرض قبل خلقهما بأنهما لم يكن لهما اسم، وعندما أصبح لهما إسمين كانا ملتصقين وبدءا بممارسة الجنس، وكان ان ولدا الاله (انليل) الذي وضع بينهما، ولكنه كلما كان يكبر كان يبعد الأب عن الام، كان الهواء أو الفضاء الذي يمثله (إنليل) يبعد (آن) عن (كي) فينفصلان، ومطلع اسطورة (خلق الفأس) توضح لنا ذلك :

«الرب الذي يملك حقاً، هو الذي أظهر للعيان

الرب الذي لا تبدل في احكامه

(انليل) الذي يجلب البذور إلى الأرض لزراعتها

تولى برعايته فصل السماء عن الأرض

من أجل أن تنمو الكائنات التي خلقت»

(كريمر ١٩٧١ : ١٨١).

ونرى في قصيدة أخرى كيف أن السماء أصبحت ملك (آن) وأن الأرض ملك (إنليل) :

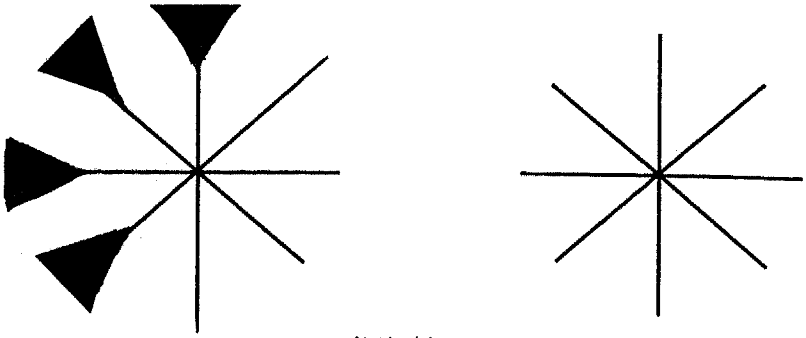

شكل (١٨)

رموز الإله آن

١- الجهات الثمانية (رمز الالوهية) الألف الخامس ق.م

٢- العلامة الكتابية دنكر (الإله، الإلوهية، الاف الرابع ق.م)

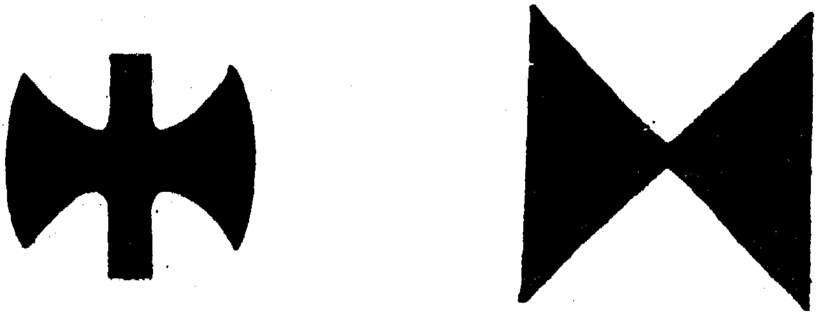

شكل (١٩)

رموز الإله إنليل

١- المثلثان المتقابلان (الألف الخامس ق.م)

٢- الفأس المزدوج (الألف الخامس) ق.م

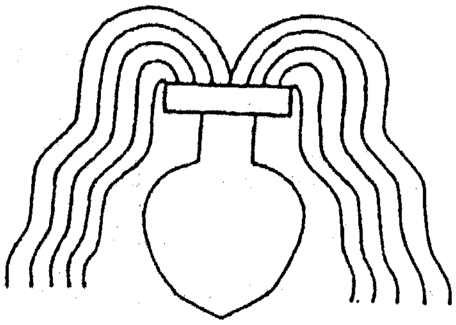

شكل (٢٠)

الكاس (الاناء) الفوّار

رمز الإله إنكي (الألف الثالث ق.م)

«الأرض الفسيحةُ المسطحة لبست تألقها ،
جّملت ببهجة جسدَها
الأرض العريضة ، بالمعدن الثمين واللازورد
زينت جسدها
تبرجت بالينع والعقيق الأحمر البّراق ،
زينت السماء رأسها بأوراث الشجر
وظهرت كأنها الأميرة
الأرض المقدسة العذراء تبرجت
من أجل السماء المقدسة
السماء ، الاله الرائع الجمال ، غرس
في الأرض العريضة ركبتيه
وسكب في رحمها ، بذرة الأبطال
الاشجار والمقاصب
الأرض الطرية ، البقرة الخصيبة تشعبت
بمنيّ السماء الغنيّ ،
وبالفرح ولدت الأرض نباتات الحياة
وبغزارة حملت الارض هذا التاج الرائع
وجعلت الخمر والعسل يسيلان ، ،

(الشواف ١٩٩٦ : ٢١)

هذه الصورة لمضاجعة السماء للأرض واضحة جداً ، فقد حصلت بعد أن انفصل كلاهما عن بعضهما ، أي بعد أن ولد (إنليل) ولذلك نعني أن الولادة الثانية حصلت بعد الانفصال وانتجت الإله (إنكي) وهو سيد الأرض الذي تولى بعنايته الأرض كما سنرى .

الكوزمولوجيا السومرية (علم الكون السومري)

بعد ان ترصدنا كيفية نشوء الكون والعالم عند السومريين من خلال الآلهة وأجيالها، يمكننا الآن أن نرى طبيعة هذا الكون وم يتكون وشكله وأقسامه.

يظهر لنا الكون السومري كله طافياً أو سابحاً فوق بحر هيوليّ من تالماء تمثله الالهة السومرية الام (نمّو) التي تحيط به من كل الجهات والذي لا نهاية له، أعني ماء نمّو (شكل ٢١)

أما الكون فهو عبارة عن كرة عملاقة تتكون من الأقسام التالية:

١- العالم الأعلى (العُلى) وهو الفضاء الذي فوق السماء حيث تسكن الآلهة السماوية فيه.

٢- السماء (آن) وهي سطح صلب على شكل قبة يحيط قرص الأرض الذي تحتها «أما ماذا كان يعتقد أن تكون هذه الكتلة السماوية بالضبط فإنه أمر ما زال غير مؤكد، ومن المحتمل أنها كانت قصديراً وذلك استنتاجاً من حقيقة أن التعبير السومري من القصدير هو «معدن السماء»»، (كريمر ب.ت: ١٤٩).

ويعتقد أن في قمة السماء أو على السماء السابعة هناك الـ(أنونّا) وهو اسم يعني بالسومرية (بذرة الحياة الأميرية) ويشير الى جموع الآلهة في السماء والأرض ثم اصبح يشير الى أيّ مجموعة من الآلهة حتى المحلية منها.

٣. الفضاء (ليل Lil) : وهو الفراغ الموجود بين السماء والأرض وكانت كلمة ليل التي تدل على الظلمة تعني أيضاً الريح، الهواء، والنفس، الجو، الروح وتمتاز بقدرتها على الحركة والامتداد.

وكان السومريون يعتقدون أن الكواكب والنجوم مكونة من نفس مادة (ليل) أو (الجو) مع امتيازها عليها بالإضاءة والاشراق. والكواكب، في حقيقة الأمر ظهرت من الظلام فهي بناته (وهذا ما يقول به الصائبة أيضاً) وهي من الناحية النسلية بنات الاله إنليل سيد الفضاء أو الهواء.

ويبدو أن السومريين حددوا، في زمنهم، ثلاث طرق أو مسارات في هذا الفضاء هي (طريق آن، طريق انليل، طريق إنكي) وتتوزع الكواكب الثلاثة فيها (الزهرة، القمر، الشمس).

ونحو عشرين قصيوة غنائية وحوالي عشرين قصيدة اخرى من نوع المراثي - تزيد في مجموعها على عشرين الف بيت من الشعر السومري» (كريمر ١٩٨٦ : ٥٥).

وبرغم الكثير من الطرق التي عرضت فيها الأساطير السومرية الا اننا وضعنا تصنيفاً يتناسب مع ما هو متوفر منها ويأخذ بنظر الاعتبار الطريقة العلمية في تصنيف الاساطير وهي كما يلي :

١. أساطير الخليقة (التكوين) Myth of Gensis

أ- الاساطير النشكونية (الكوزموغونيا Cosmogony)

ب - أساطير نشوء الآلهة (الثيوغونيا Thoegony)

ج- اساطير نشوء الإنسان (الانثربوغونيا Anthropogony) .

٢. أساطير تنظيم الكون Myths of Organization

أ- الأساطير المرتبطة بالإله انليل

١. أسطورة خلق الناس

٢. رحلة (نانا) إلى نفّر

٣. إيميش وانتين

٤. لاهار وإشنان

ب- الأساطير المرتبطة بالإله إنكي

١. إنكي وتنظيم سومر

٢. إنكي واريدو والرحلة إلى نفر

٣. أساطير تدمير الكون Myths of Destruction

أ- الطوفان (اسطور الدمار القادم من العالم الأعلى)

ب- التنين (اسطورة الدمار القادم من العالم الأسفل)

١. التنين كور والآلهة (إنكي وننورتا وأنانا)

حد التناقض أحياناً فتجعل بعض الآلهة أبناءً أو آباءً أو إخواناً لبعضهم أو تنسبهم إلى نسب بعيد ومختلف عمّا هو معروف.

الصعوبة الرابعة تكمن في استحالة حصر الآلهة الثانوية والشخصية والهة المدن والقرى الصغيرة في جداول أو أغصان أنساب دقيقة، وأخيراً الاختلاط بين اسماء الآلهة السومرية والأكدية سواء في اللغة أو في الواقع وهذا ما أشاعة ، للأسف، اولئك الذين يكتبون، عادة، عن الدين السومري بعجالةٍ وسطحية.

ولكننا هنا سنحاول أن نضع شجرة انساب إلهية سومرية مقنعة حسب ما توفره الأساطير و النصوص السومرية من علاقات وأنساب بين الآلهة.

إن شجرة أنساب الآلهة السومرية هي السبيل الوحيد لنا لدراسة أساطير نشوء الآلهة (الثيوغوتيا) وهي التي ستدلنا على أساطير الآلهة واحدة بعد الأخرى حسب نشوئها وارتقائها.

أما الطرق التي صُنّفت بها الآلهة السومرية فمتعدّدة، وسنعمل على عرض بعضها، وجميعها أكّد على أكبر وأهم الآلهة السومرية وأهمل الآلهة الصغيرة والمندثرة.

تصنيف الآلهة السومرية

يصعب الركون الى تصنيف واحد للآلهة السومرية واعتباره مقنعاً وشاملاً ولذلك سنقدم عرضاً لأهم التصنيفات التي عرضتها المراجع الاساسية للمثولوجيا السومرية.

١ . **التصنيف السومري الشائع** الذي كان يأخذ به السومريون أنفسهم والذي يعتمد على عظمة وقوة ورفعة وتأثير الآلهة السومرية ووضعها في مجاميع أو مقامات متدرجة، حيث ينقسم بانيثون (مجمع) الآلهة السومرية الى ثلاث طبقات هي :

أ) آلهة المصائر الكبرى : وهي الآلهة الكونية صاحبة الأقدار والمقدرات على الكون والإنسان، والتي لها صلاحيات مطلقة ونفوذ شامل وهذه الآلهة هي التي تهب الملوكية وتخلعها وهي مصدر السلطة بالمعنيين الديني والسياسي.

القسم الأول

أساطير الخليقة والنشوء (التكوين) السومرية

Myths of Gensis (creation)

لا شك أن جوهر الاسطورة وبؤرتها الحقيقية تكمن في أساطير الخليقة والنشوء، لأنها تشير إلى الأول دائماً (الكون والعالم الأول)، الآلهة الأولى، الانسان الأول. ولذلك تؤجج هذه الأساطير الشوق إلى معرفة الأصول، وهو شوقٌ أصيلٌ في الروح الإنساني ونزعةٌ من نزعاته القوية. ونجد في مثل هذه الأساطير ما يمسّ أعماقنا القصّية أو المستوى الضمني Emplicate Order الذي تحدث عنه (ديفيد بوم) سواء كان في الكون المحكي عنه في الاسطورة أو الكون العميق الذي في داخلنا كمتلقين للإسطورة.

سيطر البحث عن أصول اللغة والمجتمع والفن والأجناس والدين وغيرها على علماء الإنسانيات في القرن التاسع عشر، مثلما سيطر على علماء الطبيعة لمعرفة أصل الأرض والفلك، ولمعرفة أصل الكون والبايولوجيا ولمعرفة أصل الحياة (انظر الياد ١٩٩٤: ٢٧).

إن أساطير نشوء الكون وظهور سلسلة الآلهة من أقدمها واكبرها إلى أصغرها واحدثها أو كيفية خلق الإنسان . . لم تكن تسير وفق أقاصيص اعتباطية ورؤى وأخيلة كيفية، برغم أنه كان يخضع لتداول أجيال متعاقبة، إنها مشيدٌ ببنية محكمة خفية تحملُ

الطب .

٢ . ننكشزيدا Ningishzida : من آلهة العالم الأسفل ، ابن ننازو ويسمى حامل العرش وهو اله الطب ورمزه ثعبانان ملتفان على عصا.

٣ . دامو Damu من آلهة العالم الأسفل، ابن ننكشزيدا وهو اله الشفاء، وكانت اسطورته تختلط باسطورة دموزي . وهؤلاء الآلهة الثلاثة من الأب إلى الحفيد كلهم من العالم الأسفل، ولكن لهم علاقة بالطب من جهة وبالاشجار من جهة أخرى، ويقف وراءهم الهان معروفان هما الالهة (إنانا) في اوروك باعتبارها الهه المخازن والاله دموزي - أما شوم غالانا Dumuzi-Amashumgalana(طاقة نمو الحياة الجديدة للنخيل) وكلاهما يقف وراء أساطير بانثيون مربي الفاكهة .

ج) **آلهة الرعاة** : وهي آلهة مجموعة مدن الفرات الأسفل مثل أور، كايش، كيابرج، لارسا، كولأب. وتنحدر آلهة هذه المدن من اله القمر (نانا) ، أما المدن الأخرى شمالاً قليلاً فهي في وسط سومر وهي اوروك، بادتبيرا، اوما، زبالم، بتكركارا التي تنحدر "آلهتها من انانا (الزهرة) وزوجها دموزي (الراعي) ونانا (القمر) واوتو (الشمس) وآن (السماء) وهم على صنفين .

الأول : آلهة الرعاة الجنوبية وهي :

١ . نانّا Nanna اله القمر زوج ننكال

٢ . ننهار Ninhar اله الرعد والامطار في الربيع وهو ابن نانا وننكال وزوج ننكارا (سيدة الزبد والقمر) والهة الألبان.

٣ . اوتو Utu اله الشمس زوج إيا (آي) وشنيراد

٤ . ننسون Ninsun وهي أم دموزي

٥ . آن An اله السماء .

الثاني : آلهة رعاة الحمير الشمالية وتشمل عائلة الإلهة ننخرساج (بيليتيلي) Nin hursag (Belitili)هي إلهة أدب وكيش ، وتمثل الهة الأرض الصخرية ، ومعها زوجها

بيّنا ما للمركز من قيمة كوسموغونية، صار بوسعنا الآن أن نفهم بصورة أفضل لماذا يكرر كلُّ بناء يشيده الإنسان خلق العالم إنطلاقاً من نقطة مركزية (السّرة) علّى صورة العالم الذي ينمو ابتداءً من مركز ويمتد نحو الجهات الاصلية الاربع» (الياد ١٩٨٧ : ٤٥).

وتحدثنا الكثير من ثقافات العالم عن جبال اسطورية أو واقعية تقع في مركز العالم مثل جبل ميرو في الهند، وهرابر زايتي في ايران، وجبل جريزيم في فلسطين، و(جبل البلاد) في وادي الرافدين وهو جبل اسطوري يفسر لنا لماذا كان السومريون يرسمون بنفس العلامة الكتابية الجبل والبلاد باعتباره الجبل الكوني وليس لأن اصولهم جبلية!

كان (دوكو) يعني بالسومرية (الجبل المقدس) والمقصود بذلك مكان تجمع الآلهة في المنطقة الجبلية الشرقية لبلاد وادي الرفدين (ترد في اسطورة لاهار واشنان). وكان يقصد بالإسم (دوكو) في نصوص العصر البابلي الحديث المكان الذي كان يقيم فيه الإله مردوخ في معبده الرئيس في بابل ليقرر من هناك مصاذر البشر (انظر اذزارد ١٩٨٧ : ٩٥).

وسيصبح المعبد لاحقاً تقليداً لشكل هذا الجبل الكوني، حتى أن اسم المعبد في الكثير من المدن السومرية كان يسمى (دور– أن – كي) أي (صلة ما بين السماء والارض) أو إرباط السماء والارض)، فكلمة (دور) السومرية تبدو وكأنها اعادة دورية للجبل الكوني (أن – كي) في هيئة المعبد وكذلك الزقورة.

١. المرحلة الكوزموغونية الأولى :

وإذا ذهبنا أعمق في التحليل المثولوجي لحادثة الخليقة السومرية فلا بد لنا أن نحلل شخصية الإلهة السومرية الأم الأولى (نمو أو نامو) تحليلاً يتناسب مع قدسية (التكوين) الذي هو في رأينا جوهر أي مثولوجيا .

أنحدرت الطبيعة الانثوية للالهة (نمّو) من عصور بعيدة ربما تعود إلى العصر الحجري الحديث (النيوليت) عندما سادت الالهة الام ذلك العصر كله طيلة أكثر من ثلاثة آلاف سنة شمال وادي الرفدين . وانحدرت الطبيعة الفيزيائية (المائية) لها من المحيط المائي الذي وجد السومريون نفسهم فيه خصوصاً الأهوار ومياه الخليج العربي ومياه دجلة والفرات وفروعهما .

وهي اذ تقابل الآلهة الام البابلية (تيامت) فإنها تختلف عنها اختلافاً جذرياً لأن

الأعظم، وهو على ما يبدو يمثل (الله) لان المقابل الاكدي (السامي) لعلامة آن (دنكر) كانت تلفظ (إيلو) أو (ايل) وهو الله.

ويبدو أن الإله آن احتل المرتبة الاولى عند العبيديين ثم السومريين لكن تفوق الإله إنليل عليه بسلطاته جعله منزوياً بعيدا في أقاصي السماء، ورغم ذلك فقد كان له معبد كبير في مدينة اوروك واسمه (إي - أنّا E- anna) الذي يعني بالسومرية (معبد السماء) أما زوجته فهي الإلهة آن ايضاً أو (كي) التي تعني الأرض، وله عشيقات عديدات من الالهات وهن (نن زالي) و (نن اوسلا) وكانت الالهة إنانا من عشيقاته ايضاً وأحيانا توصف كإبنة له.

ومن زواج الإله (آن) مع الإلهة (كي) ظهر الهان عظيمان الاول هو إنليل وهو (إله الهواء) والثاني هو (إنكي) إله الماء. وللإله آن ابنٌ ناري هو الاله نسكو (إله النار) الذي صار وزيراً لاخيه الإله (إنليل).

وللإله (آن) سبع بنات مسؤولات عن الزراعة والشفاء هن(باو، ننسينا، كولا، ننكارك، جتومدو (مزب)، ناناي، ننتي نوجّا).

إن السماء والأرض انتجت لنا العناصر الأربعة التي تكون منها الكون ثم تكونت منها الحياة (النار، الهواء، التراب، الماء) وفي هذه التركيبة الخلقية السومرية المبكرة يظهر الاسطقس الرباعي الذي عرفه اليونان بعد آلاف السنين وهو(التراب والنار والهواء والماء) والذي أقاموا عليه نظريات الابراج ثم نظريات النفس وامزجتها (الدموية والسوداوية والصفراوية و(البلغمية) وهي النظرية العلمية التي سيطرت على علوم اليونان ثم العرب واوربا في القرون الوسطى.

ويظهر (آن) هنا وكأنه الأب الذكري المتفوق الخالق لهذه العناصر الأربعة. وهو هنا يعادل (الكلمة) الخالقة السماوية.

كان الاله آن يكتب بالعلامة المسمارية التي تشير الى النجمة الثمانية الرؤوس التي تسمى بالسومرية دنكر، ويرى الدكتور فوزي رشيد أن هذه العلامة قد تطورت في الأساس عن الخطوط المتقاطعة التي تشير إلى الجهات الثمانية وهي جهات العالم أو الكون وآن يعبر عنها، وقد سادت هذه العلامة في المرحلة الصورية (٣٢٠٠ق.م) ثم تحولت بعد ٣٠٠٠ ق.م الى شكل يشبه النجمة بسبب الكتابة المسمارية (رشيد ١٩٨٥: ٥٠).

وينحدر من نسل الاله آن آلهة عظام (انوناكي) وآلهة ثانويون (ايجيجي) وفي نفس الوقت ينحدر من نسله عدد كبير من الجن والعفاريت الذين يسكنون العالم الاسفل ومن ضمنهم الآلهة الشريرة السبعة التي تدعو (سبيتو) ولا نعرف ما إذا كان هناك أصل سومري لهذه التسمية الأكدية.

ولهذا السبب أصبح الإله آن مصدراً للخير والشر بالنسبة للإنسان والكون.

وإذا كان الاله (آن) قد فقد بعض أهميته مع بداية حكم السلالات السومرية فإنه استعادها بقوة في زمن گوديا أمير لكش (٢١٤٣ - ٢١٣) ق.م ثم انتشرت معابده في الوركاء واور ونفر ولكش وسبار ودير (مدينة آن) ثم في آشور.

وكان مسكن سماوي (في السماء السابعة أو الثالثة) يحرس بابه الإلهان دموزي وننكشزيدا. وكان حيوانه الدال عليه هو (الثور السماوي).

إن الرقم الرمزي او السري للإله آن هو اكمل واعلى الأرقام السومرية (٦٠) الذي كان اساس النظام الستيني الرياضي والفلكي. ويعد (آن) النموذج الأول لعبادة التوحيد Monothesim بسبب من كونه لم يكن الهاً قومياً أو محلياً بل كان الهاً كونياً عالمياً وكان يسمى (أبو الآلهة والبشر). وكذلك يعد مانح السلطة والحكم ورموزها (شكل ٢٣) التي استحوذ عليها لاحقاً إنليل.

وهناك أساطير أكدية لاحقة ذكرت أن الإله آن من سلالة (٢١) إلهاً ومن أجداده الإله إنشار والإلهة كيشار والإله لخمو والالهة لخامو. وكان له عدة عشيقات وزوجات غير زوجته أنتو وهن (نن زالي، نن اورسلا، وإنانا).

٢. **إنليل Enlil**: كانت جذور الإله إنليل تمتد إلى الألف الخامس قبل الميلاد، ربما في سامراء ثم في حلف فقد عثر في سامراء على علامة الفأس المزدوج باشكال مختلفة، وكان يدل على بداية ظهور الاله الذكر، ولكن الفأس المزدوج ظهر واضحاً في حضارة حلف ودل على إله ذكر يمثل الهواء والمطر، وبدأ ذلك يرافق بناء المدن ونتذكر في هذا الصدد اسطورة خلق الفأس الذي قدمه إنليل هدية للبشر لبناء مدنهم.

ويشكل إنليل جذر كل الآلهة القوية في الحضارات اللاحقة مثل مردوخ البابلي وآشور الآشوري وبعل الكنعاني وزيوس اليوناني وجوبيتر الروماني بسبب من هيمنته على

«بعد أن ابتعدت السماء عن الأرض

بعد أن انفصلت الأرض عن السماء

بعد أن عين اسم الانسان

بعد أن أصبحت السماء بحوزة (آن)

بعد أن اصبحت الأرض بحوزة (انليل)» .

(كريمر ١٩٧١ : ٦٣) .

وهكذا أعطتنا هذه المرحلة الكوزموغونية الثانية ثالوثاً الهياً مهماً مكوناً من آلهة (السماء، الهواء، الارض) وهم (آن، انليل ، كي) .

٣. المرحلة الكوزموغونية الثالثة

هناك ما يشير إلى أن الإله (إنليل) اله الهواء الذي اصبحت أمُه الأرض الالهة (كي) بحوزته ، قد اتصل بها جنسياً حيث أنه في حقيقة الأمر أبعد الأب (آن) عنها، أما هو فقد بقي ملتحماً بالأرض متصلاً بها وعلى هذا الأساس تعينت مراحل تنظيم الكون وخلق الإنسان وتأسست الحضارة (انظر كريمر ١٩٧١ : ٦٦) .

أن هذا الأمر غير الموثّق عندنا بنصّ سومري واضح ، يوحي لنا أن الابن أبعد إباه وتزوج أمه (وهو ما يذكر بعقدة أو ديب الفرويدية) وقد نجد الصدى الواسع لهذه الاسطورة في التراث الرافديني في اسطورة بابلية صغيرة هي اسطورة (دُنّو) حيث الأرض تضاجع ابنها (أماكندو) فيقتل اباه ويتزوج الهة البحر، ثم يأتي ابنه لخار ليقتل أباه ويتزوج امه وهكذا . (انظر Grayson 1969: 517) .

وهذا يشبه أيضاً الى حد ما مسلسل قتل الآلهة في اسطورة الخليقة البابلية . إن ما يدعونا الى التأمل الحذر في الحادثة السابقة هو محل الاله (إنكي) . فهل ظهر الإله (إنكي) من تزاوج (إنليل) مع (كي) ؟ وهو ما نشك به ونستبعده تماماً، لأن الإله انكي هو ابن إله السماء (أن) والذي حبلت به وودلته الارض (كي) وهو الذي بنى نواميس الحضارة على الأرض، أما الإله (إنليل) فكان يرعى سلطات أبيه في السماء وأشرف على تنظيم الكون (وليس الأرض) كما سنرى، ولكي نعزز قولنا هذا بنص سومري لا بد من ذكر نص القصيدة التي تذكر ولادة مظاهر الحياة المرتبطة بالاله إنكي وهي كما يلي :

والرقم السري او الرمزي له هو (٥٠) ولذلك هو رئيس مجمع الانوناكي (اي آلهة الأرض الخمسين) وسيأخذ صفاته الخمسين لاحقاً الإله مردوخ (مقابله الاكدي) في ملحمة الخليقة الأكدية وقد كان هذا الإجراء الأكدي استكمالاً لنزعة التفريد التي بدأت مع إنليل .

لقب الساميون الاله إنليل بالاله (بل)أو (بعل) الذي دمج مع شخصية مردوخ وأصبح فيما بعد إشهر الآلهة الشامية بشكل خاص ممتصاً في طريقه صفات الاله الشعبي دموزي أو تموز وصفاته الإخصابية .

إن (بل) يعني (سيد) ومؤنثه (بلت) ويقابلهما في سورية (بعل) و (بعلة) وهما من أسماء الآلهة التي تركب مع اسماء أخرى ، وغالباً ما يرتبط اسمهما بأسماء المدن مثل (بل حران) و(بلت نفر) وهي زوجة الاله (ننورتا) وبلت ايلي سيدة الآلهة ويستخدم هذا الاسم في وصف الإلهة الام . ومنذ العصر الكشي المتأخر أصبح يطلق اسم (بل) غالباً على (مردوخ) وكان مردوخ نفسه معروفاً عن اليونانيين باسم (بلوس) ، ويعادل بل (إين اولوجال) في اللغة السومرية ويعني سيد أو ملك ومؤنثه (نين أو نن) (انظر اذزارد ١٩٨٧ : ٧٥) .

وينحدر الاله إنليل من (٤٢) جداً أي ضعف اجداد آن أشهرهم هو (اين مشّرا En-mesarra وهو إله العالم السفلي مع اولاده السبعة وابنته نارودو Narudu التي دعاها الآشوريون بالإلهة سبتي Sibitt) .

إن الثيوغونيا الإنليلية تنتج أولاً أربع سلالات من الآلهة كلها لها علاقة بالجو والأنواء والظلام والنوز الأولى يترأسها ننورتا اله العاصفة ، والثانية يترأسها ايميش وانتين الها الصيف والشتاء . والثالثة يترأسها نركال (اله العالم السفلي) المظلم ، والرابعة يترأسها الاله ننار (اله القمر) أما الأساطير الخاصة بهذه الثيوغونيا فهما اثنان الاولى توضح زواج الاله إنليل من الفتاة (سود) التي صار اسمها ننليل ، والثانية تخص إنليل وننليل وولاده إله القمر وآلهة العالم السفلي :

وقبل ان نذكر الاسطورتين نقول أن الإنليل معبد في لكش يسمى (معبد الأب) وله وزير خاص هو نسكو اله النار وهذا يدل على ارتباط النار بالهواء ثيوغونياً «وتيرأس مع آن

مجاميع الآلهة في بلاطه المسمى - اوبشواوكينا - ولكونه ملك كل البلدان فهو يمنح مع ابيه آنو المناصب العليا كالملك والإمارة، كلمته هي الريح التي تنفذ مقررات المجمع الالهي، فاذا قررت الآلهة تدمير مدينة ما نفخت «كلمة» إنليل كالعاصفة ودمرتها، إن «كلمته» تهز السماء وتزلزل الأرض» (بشور ١٩٨٩ : ٦٢).

وكان إنليل يستحوذ ، بالاضافة إلى رمز السلطة من آن، على رموز اخرى منها الفأس ورمز آخر هو التشييد والبناء واستحوذ على رمز أبيه الخاص بالتاج المقرن ودكة المعبد نهاية الألف الثاني ق. م (شكل ١٩، ٢٣، ٢٤, ٢٦).

ولعل من الأمور اللافتة للانتباه والسؤال هو ظهور رمز (الحمامة السماوية) شكل (٢٧) الذي كان يشير إلى الإله إنليل ايضاً أو يرافقه وقد اعتبر السومريون هذه الحمامة السماوية من رسل السماء وكانت تدعى عند السومريين (إياهو Iahu) ونرى أن هذا الإسم هو الجذر السومري الذي ظهر منه اسم الإله (يهوه) العبري فيما بعد حيث أصبح (يهوه) في السومرية دالاً على (الإله الخالق)، ويكاد هذا اللقب (أياهو) يكون أقدم اسم يرد للدلالة على الحمامة السماوية والإله الخالق فيما بعد . . وبذلك نكون قد عثرنا على الأصل السومري لإله اليهود والعبريين، وفعلاً فأن في كلمة (يهوه) ما يشير الى الهواء وهو ما يشير أيضاً إلى الإله إنليل .

يتضح من ذلك أن الإله إنليل أختص بالغلاف الجوي الذي حول الأرض، وبالأجسام والظواهر التي تظهر فيه كالكواكب والهواء والعواصف والرعود ولأن العالم الأسفل يقع في فضاء تحت قرص الأرض لذلك أصبح من اختصاصه، حيث أنجب له ولداً اسمه (نركال) اصبحَ فيما بعد ملكاً . عليه ولذلك صار الزمن والتقويم والفلك والتنجيم ضمناً من اختصاص إنليل أو أحد ابنائه لانه يخص الفضاء الذي هو ملك له. وقد وجد رمزٌ للاله إنليل في مدينة نفر باعتباره إلهاً للطقس وكان الرمز يمثل ثوراً يقفز إلى الأمام تحت قوس هو عبارة عن حربتين ضخمتين وكأن الثور كان يمثل القوة التي تدور بها الأفلاك، لأن الحربتين كانتا تحملان رسوماً لاثنتي عشرة كرة ترمز إلى شهور السنة الاثنى عشر (انظر Van Buren 1930: 593)

وكان الإله إنليل مرتبطاً بالقوة والبطش وصوّر دائماً على أنه يميل إلى القسوة، وكان صارماً مع الإنسان فإذا خالف الانسان القوانين فإنه يعاقبه بقسوة، ولذلك فهو

نحن الآن أمام رابوع إلهي هو (السماء، الهواء، الأرض، الماء) وهم آلهة المصائر الكبرى الذين سيطروا على الكون بأكمله .

٤. المرحلة الكوزموغونية الرابعة

لو نظرنا إلى شجرة أنساب الآلهة السومرية ضمن القسم الثاني من هذا الفصل وتأملنا ها ملياً لوجدنا أن الخليقة الآن من الناحية العملية أصبحت خاضعة الآن لنوعين من الكوزموغونيا كل واحدة يديرها إله وهما :

(أ) كوزموغونيا إنليل : الذي امتلك سلطان آن وأصبح بديلاً عنه تقريباً وتضمّ خلق عوالم الظلام والعالم الأسفل والكواكب والانواء الجوية من رعد ومطر وبرق وعواصف ، وتحيط هذه الكوزموغونيا الأرض وتغلفها وتمدها ببعض مظاهر الحياة إلاّ أن الموت والجماد يسيطران عليها . فهي تنتج الكواكب الثلاثة المهمة (القمر ، الشمس ، الزهرة) وآلهتها وتنتج الظلام والعالم الأسفل وآلهة الأنواء الجوية . وكل هذه الآلهة آلهة سلطات وتدل في انحدارها السلالي على أنها تميل إلى القوة وربما إلى الموت .

(ب) كوزموغونيا إنكي الذي يمثل الأرض والماء معاً ، وبلا أدنى شك فإنّه يمثل الحياة والإخصاب والتناسل ، وإذا لاحظنا شجرته الإلهية فسنلاحظ أنها تضم (النباتات والحيوانات والإنسان) ثم ادوات العمران والحضارة . إن عالم إنكي يضم كل ما هو حي ويدعو إلى الحياة والبقاء والتناسل وهو عالم أرضيّ محض يرى أن الأرض هي الحياة ، ولا يوجد خارجها ما يشير إلى الحياة برغم وجود الآلهة الخالدة .

ومن الآن فصاعداً (على المستوى الكوزموغوني) سنرى العلاقة الإيجابية والسلبية بين العالمين (عالم انليل) و(عالم إنكي) وسنرى أن أغلب زوجات ذكور عالم إنليل هنّ من عالم إنكي وهذا يمثل الوجه الإيجابي للعلاقة ، أما الوجه السلبي فسيكون في الصراع بين بعض الآلهة في العالمين وقد يكون اشهر الصراعات واكثرها وضوحاً ذلك الصراع بين الإله الإنكوي (دموزي) والإلهة الإنليلية (إنانا) كما سنفصل ذلك فيما بعد .

الجائر، والظالم والشرير، والنّمام
والمتكبر، وناكث العهد
كل هؤلاء لا يجيز شرهم في المدينة
والشبكة العظيمة ، أنه لا يدع الشرير والظالم يفلتان من شراكها
. . . .
لولا «إنليل» الجبل العظيم
لما شيدت مدن، ولما أُقيمت مواطن
ولما شيدت زرائب، ولا أقيمت حظائر ،
ولما رفع ملك ، ولا ولد كاهن عظيم
ولما اختير كاهن (الماخ)، ولا كاهنة رفيعة القدر بفأل الشاة
ولما غدا للعمال موجه ولا مشرف
والانهار . . ما جلبت مياه فيضاناتها الفيض
ولما وضع سمك البحر بيضه في أدغال القصب،
ولما بنت طيور السماء أعشاشها على الأرض الفسيحة
وفي السماء، لما جاءت الغيوم السائرة
ولولاه ما نمت النباتات والاعشاب، مفخرة السهل
ولما ازدهر القمح الوفير في حقل الراعي
ولما اثمرت الاشجار النابتة في غابة الجبل أثمارها . .»
(كريمر ب. ت: ١٦٠ -١٦٢)

٤ . **الأرض (كي KI)** : وهي قرص مدوّر منبسط يطفو علي محيط مائي حوله وتحته ، أي يمكن تصنيف هذا المحيط المائي إلى ثلاثة :

١ . البحر الأعلى وكان المقصود به البحر الأبيض المتوسط .

٢ . البحر الأسفل وكان المقصود به الخليج العربي .

٣ . البحر العميق الذي تحت الأرض وهو (أبسو) أي مياه الأعماق التي فيها مسكن الإله (إنكي) . وهي مقر الإلهة (نمو) وهذا يعني أن الأرض تحيطها المياه من كل الجهات ما عدا الفضاء الأعلى الذي كان يفصلها عن السماء ، وتعيش على الأرض النباتات والحيوانات والإنسان . وكان مركز الأرض في نظر السومريين هو سومر ، أما مركز سومر فكان نيبور (نفّر) لانها أقدس مدينة دينية سومرية كونها مدينة انليل ، وكان مركز نفّر منطقة اسمها (أوزموا) وهي التي تشبّه بسرّة الأرض حيث هي آخر منطقة كانت السماء متصلة فيها مع الأرض .

أما سومر فمحاطة من جهاتها الأربع بمدن ودول أخرى فمن الشمال (سوبار) وهي في شمال وادي الرافدين (منطقة آشور لاحقاً) ، ومن الجنوب دلمون وهي البحرين ، ومن الشرق عيلام جنوب إيران وهي الاحواز أو عربستان ومن الغرب أمورو أو أمارتو وهي الصحراء العراقية السورية الغربية (غرب الفرات) .

٥ . **العالم الأسفل (كور أو كيگال)** وهو الفضاء الذي يقع تحت الأرض والأبسو ، وتعيش فيه آلهة العالم السفلي ، ويسمى هذا العالم بأسماء عديدة منها (أرض اللا عودة ، الأرض البعيدة ، أرض الموتى ، أرض الأحزان ، القفراء . . . الخ) وهو عالم مظلم تسيطر عليه عائلة إلهية مكونة من نرگال وأريشكيگال وأبنائهما وأحفادهما من الآلهة ، وتسكن أيضاً الشياطين وهي كائنات سلبية مفزعة ، وتسكنه أرواح الموتى من البشر .

وهناك للعالم الأسفل مدخل رئيسي مكون من سبعة أبواب تنتهي بنهر العالم الأسفل الذي اسمه (خبر) والذي يؤدي فيما بعد إلى أماكن الموتى ويتوسط قاع العالم الأسفل قصر كبير للالهين نرگال وارشكيگال ، وأحياناً يجتمع فيه الانوناكي (الذين يسمون هنا قضاة العالم الأسفل) .

إن هذا التصور الميثولوجي للكون يضع الأرض في المركز ويتصورها مثل قرص

لكننا بمجرد أن نعرف ان الالهة نمّو هي ام كل الآلهة فهي بالضرورة أُم إنكي، بل هي الأقرب له لانهما الها الماء.

وتظهر صورة الاله انكي في مياه الاعماق وكأنه في غرفةٍ مثيرة للعجب تبدو مثل غواصة .

كان الرقم السري لإنكي هو (٤٠) وهو رقم له قداسته في الحياة والموت والنبوة والفصول وغير ذلك .

وكان للاله انكي وزيرا اسمه (اسيمو) أو (ايسمود) ويسمى بالاكدية (أوسمو) او اوسومو) وهو إله برأس بشري وله وجهان وتظهر صوره كذلك. أما رموز الاله إنكي في العصر السومري فكان له رمز واحد هو الإناء الفوار الذي تتدفق منه في كل من الجانبين الأيمن والأيسر خمسة خطوط من المياه، وقد اصبح لمقابلة السامي (إيا) عدّة رموز منها الكائنات السخية للسمكة والمعزى والخروف، ودكة المعبد المقّرنة، والسلحفاة، وساق الخروف . وكان السمك حيوان قديم دال عليه، وكانت أغلب أضاحيه من السمك ولهذا صار زي كهنته (خصوصاً في العصرين البابلي والآشوري) عبارة عن عباءة طويلة من الرأس حتى القدمين هي جسد سمكة بكل تفاصيلها . وللاله انكي شجرة مقديسة اسمها (كشكانو) .

والاله انكي (بعكس آن وإنليل) صديق الانسان وخالقه ومنقذه، فقد أنقذ النسل البشري من الطوفان الذي قرره مجلس الآلهة العظام فأسّر إنكي لزيوسدرا ، الانسان الحكيم، بصناعة الفلك (انظر اسطورة الطوفان).

وكان أهم دور في الحياة اليومية لإنكي هو طرد الشياطين فقد كان كهنة الأشيبو بشكل خاص يستعينون به في تعاويذ طرد الشياطين ويعتبرونه إله السحر الابيض الذي يساعدهم في مثل هذه الامور، وقد كان يساعده إبنهُ الإله اسارلوحي في طرد الشياطين، واسارلوحي اصبح فيما بعد مردوخ البابلي . أما وزير الإله إنكي فهو حمّو (إله الحرف والمهارات) والوزير الأساس هو إيسمود (الإله ذو الوجهين) .

أما القابه فهي نود يمود (الخالق) ، رب حزمة القصب، الاله ذو الأذن الكبيرة المفتوحة، عين الماء اللامعة، رب الحكمة، رب التعاويذ .

لقد أنجب إنكي أربعة أنواع من السلالات الالهية (سنناقشها بعد قليل) هي سلالات الآلهة النباتية والحيوانية والانسان (الاله الضعيف) وآلهة العمران والبناء والمدينة .

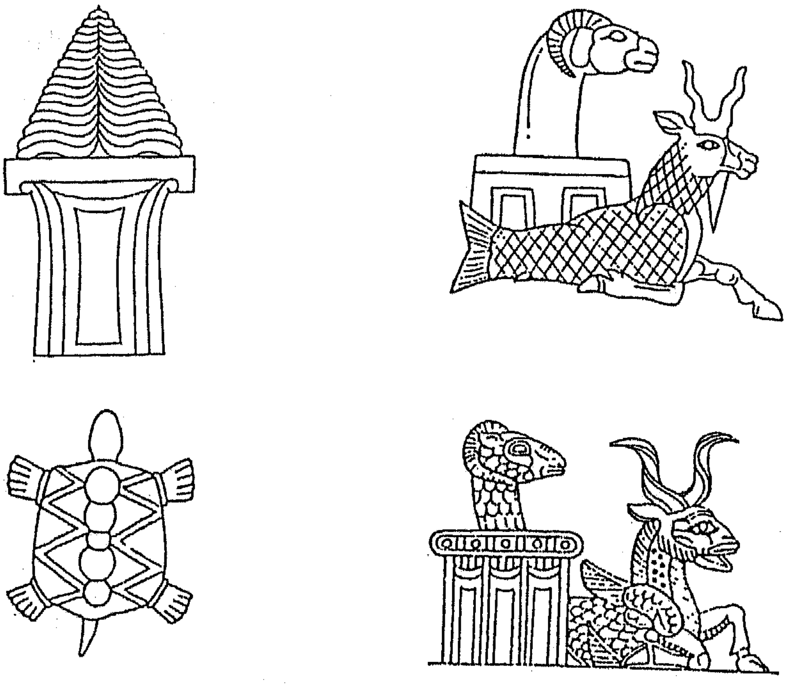

شكل(٢٨)

رموز الإله انكي

.١ حوالي ١٨٠٠ ق.م ٣.٢ القرن ١٢ ق.م ٥،٤ نهاية الألف الثاني ق.م

رسم : علي محمد آل تاجر

٤ . كي Ki

(كي) هي الأرض وهي الإلهة السومرية الام الثانية بعد (نّمو) في سلسلة ثيوغونيا الآلهة السومرية، لكن الغريب في الأمر أن هذه الإلهة اتخذت اكثر من إسم ومن صفة . ولم نجد في ما توفر لدينا من مراجع حلاً لمشكلة نسبها ولكننا نرى يقيناً ان هذه الإلهة أنجبت من الإله (آن) إلهة أنثى أصبحت فيما بعد هي الإلهة الام الكبرى الثالثة في سلسلة النسب وهي الإلهة (ننكي) التي هي الإلهة ننخرساج ايضاً والتي استطعنا أن نحصي لها ثلاثة عشر إسماً ، ولذلك يمكننا القول أن الإلهة (كي) هي نفسها الإلهة ننخرساج وقد عبرت عن نفسها في ولادة جديدة، وفي اليونانية تقابلها كلمة جي ge التي تعني الأرض، أما ألقابها أو أسمائها فهي:

١ . دامگال - نونا وتعني زوجة الامير الكبيرة واسماها البابليون (دامكينا) وهو الاسم الشائع لها كزوجة لإنكي

٢ . ننكي (سيدة الأرض) ويشير مقطع (نن) إلى سيدة أوإلهة .

٣ . ننخرساج (سيدة الجبل) وهو الاسم الذي شاع أكثر من غيره وتعني تحديداً سيدة الأرض الصخرية المرتفعة . وربما قصد الجبال الشرقية التي فيها مقر الآلهة (دوكو) .

٤ . ننماخ (السيدة الكبيرة) ورمزها المرأة العارية المصلبة اليدين على صدرها .

٥ . ننتو (سيدة الولادة) وهي الإلهة المساعدة في الإنجاب، ورمزها المرأة التي تحمل بيدها اليسرى طفلاً ترضعه ، وتصلي بيدها اليمنى

٦ . مامي (ماما) : الأم (مختصر الإلهة ماميتو زوجة إيرا)

٧ . ماري : العذراء أو الغربية

٨ . گاتوم دوك : الهة الاطفال والمسؤولة عن تربيتهم

٩ . بيليتي : الهة النسل ، أو بيليت - ايلي Beletili أي سيدة الآلهة .

١٠ . اوراش : ويعتقد انه يعني الأرض ومصدره اكدي لكن السومريين استعملوه .

١١ . ارورو : سيدة الانجاب ورمزها الصقر الواقف على عمود

١٢ . دنگيرما : الالهة الأم ، وكانت تلقب ايضاً بـ (سيدة الزمن Date godess)

١٣. ننمينا : ويعني هذا الاسم بالسومرية (سيدة القبعات الالهية) وهو اسم نادر جداً ويستبدل في انشودة الفأس السومرية باسم (دامگال - نونا) وتوصف بأنها ولدت الكاهنة الملكة والملك. وربما كان لها علاقة باسم (دنجرمن) التي وردت في قوائم اسماء الآلهة في فارا (انظر اذزارد ١٩٨٧ : ٣٨).

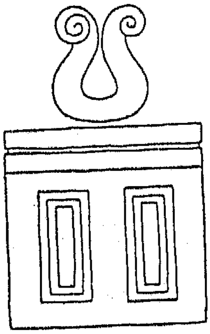

شكل (٢٩)
رمز الإلهة ننخرساج (القرن ١٢ ق.م)
رسم : علي محمد آل تاجر

شكل (٣٠)
الإلهة الام ننخرساج (سيدة الزمن)

وكان مجلس آلهة المصائر الكبرى هذا مجلساً سماوياً مكانه الأعلى العظيم أو (العلى) وكانت قراراته أو كلماته نافذة لا يوقف سريانها شيء ، وكان هذا المجلس يتكون من نوعين من الآلهة هي :

١ . الآلهة الخالقة : وهي أربعة (آن ، كي (ننخرساج)، إنكي، إنليل) وهي تمثل عناصر الكون الأربعة الكبرى (السماء، الأرض، الماء ، الهواء).

٢ . آلهة الكواكب الثلاثة الكبرى وهم ننار أو نانا (القمر)، أوتو (الشمس) ، إنانا (الزهرة).

ويرأس مجلس آلهة المصائر هذه الاله (آن) اله السماء ويتصرف الاله آن كانه ملك الآلهة هذه ورئيسها .

ب) مجمع الآلهة العظام (الخمسون) : ويترأس مجلسهم الإله (إنليل) وهم مسؤولون عن الأرض والماء والأرض السفلى، وكان مجمعهم في البداية يسمى (الأنونا) ثم سمي (الأنوناكي) لارتباط وظائفهم بالأرض أكثر من أي شيء آخر ، وفي العصور اللاحقة أصبح اسم الأنوناكي يدل أيضاً على الآلهة السبعة القضاة على العالم السفلي .

ويدل عددهم على العدد الرمزي للاله انليل، وهم أكثر الآلهة شهرة بعد آلهة المصائر ، وهم عماد الشجرة السومرية الإلهية .

ج) مجمع الآلهة الثانونيين وهم ما تبقى من الآلهة ذات الشؤون الصغير والبسيطة والذين لا يعرف عددهم بالضبط وهم غالباً ما ينتشرون في السماء وقد عرفوا باسم (الايجيجي) أو (الايكيكي) (Igigi) وقد اثيرت خلافات واختلافات كثيرة بين مصطلحي (الأنوناكي) و(الايجيجي) ويظن أن هذا الخلط أتى بعد السومريين، حيث أن الاله أنو اتصل بالالهة انتو (وهما الهانساميان) وانتجا الايجيجي ككائنات سماوية أو ملائكة سماوية، والانوناكي ككائنات أو آلهة أو ملائكة أرضية .

٢ . **تصنيف جاكوبسن** الذي يعتمد على توزيع الآلهة السومرية على الجغرافيا

والفصول هي قوى كونية منظمة للحياة على الأرض ايضاً ولكنها صارمة وحادة . . وعلى هذا الأساس فهي التي تمسك بالنواميس المعنوية كالحق والعدالة والشجاعة والنبل. ولأن الأمراض نوع من الكوارث فهي من اختصاصها ، مثلما الشفاء منها ايضاً في بعض الاحيان، ولذلك ينقسم آلهة العالم السفلي إلى آلهة امراض مثل نمتار ونركال وآلهة شفاء مثل ننازو . . الخ .

ولعل أهم اسطورة ثيوغونية انليلية هي اسطورة نفي إنليل او هبوطه للعالم الاسفل حيث تبعته ننليل وإنجاب إله القمر (نانا) وثلاثة آلهة من آلهة العالم الاسفل وهي كما يلي :

أسطورة إنليل وننليل وولادة القمر وآلهة العالم السفلي

يتألف نص هذه الاسطورة من (١٥٤) سطراً عثر عليها في مدينة (نفّر) ويمتاز النص ثيوغونياً بانه أحد أهم النصوص القديمة التي يتم فيها تحوّل الاله إنليل من هيئته كاله إلى كائن آخر وذلك عندما يتقمص شخصيات بواب وعبّار ونوتّي العالم الأسفل، ثم ان النص يثير غرابة بايولوجية حيث تحمل الالهة ننليل في بطنها (أربعة أجنّة) من أربع مضاجعات متتالية . . من دون أن تلد الواحد ثم تحمل بالأخر.

أما الأمر الآخر فإن الزواج غير الشرعي بين إنليل وننليل يحمل مغزاه الثيوغوني العميق الذي سنشرحه بالتفصيل .

تبدأ الاسطورة بوصف مدنية (نفّر) وهي مدينة الالهين إنليل وننليل (والمفروض انهما تزوجا كما في الاسطورة السابقة لكن الاسطورة تصف اللقاء بينهما وكأنه يحصل لأول مرة). وتصف الاسطورة مرافق وارصفة وبساتين وأنهار نفر، ثم تصف الاسطورة مرافق وأرصفة وبساتين وأنهار نفر، ثم تصف فتاها الشاب القوي (انليل) وفتاتها العذراء (ننليل).

وهناك من يقول أن أم ننليل (ننبار شكونو وهي نصابا) تنصح ابنتها بأن تستحم في نهر نفّر ليراها أنليل وتغويه، وهناك من يقول بأنها تحذرها من ذلك لأن إنليل إن رأها سيغتصبها (والاحتمال الأخير هو الأرجح)، وعندما تخلع ملابسها وتستحم يراها إنليل ويطلب منها مراراً بأن يضاجعها ولكنها ترفض في كل مرة، ثم يقوم إنليل بأمر وزيره

(نسكو) فيجلب له الأخير قاربه الملكي الذي يتغلغل بين القصب، ثم ينال إنليل من ننليل ويغتصبها في قاربه . . ويبذر في أحشائها إله القمر (نانا).

وفي المدينة يقابل الآلهة العظام الخمسون ومعهم آلهة المصائر السبعة، بعد أن عرفوا بالحادث، فيطردون إنليل من المدينة وينفوه إلى العالم الأسفل، وحين توجه إنليل إلى العالم الأسفل، تبعته ننليل وهي حاملٌ بابنها القمر. وعلى بوابة العالم الأسفل يجد إنليل حارس البوابة فيتخذ هيأته ويأمره بأن يتوارى، ويقف هو مكانه كحارس للبوابة وعندما تجيء ننليل يقنعها بواب العالم الاسفل (الذي هو إنليل متنكراً) بأنها اذا ارادت أن تخلّص بذرة إنليل في بطنها (نانا) فإنه يجب أن يضاجعها لكي تبقى بذرته منها في العالم الاسفل وتصعد بذرة إنليل (نانا) إلى العالم الأعلى، وتقتنع ننليل بذلك. ويفعل ننليل مثل هذا الأمر مرتين أخريين متنكراً بشخصية رجل نهر العالم الاسفل (مفترس البشر) وشخصية (سيلوليم) نوتي العالم الأسفل أو عبّار نهره.

ثم تنجب الإلهة ننليل أربعة آلهة هم :

١ . **نانا Nana** : إله القمر (وهو ابن غير شرعي من انليل) تمت زراعة بذرته في رحم ننليل بين احراش القصب في نهر نفّر

٢ . **نركال – مسلامتا .يا Nergal - Meslamtaea** : الاله الذي سيصبح إله العالم الأسفل، وهو ابن غير شرعي من إنليل وهو في حالة تنكر لشخصية بواب العالم الأسفل.

شكل (٣٣)
رمز الإله نركال
(رسم : علي محمد آل تاجر)

الاله شولبي وأبناؤها مولوليل واششرجي وابنتها اكيم (أغيم) .

د. **آلهة الحقول الزراعية** : وهي آلهة المدن الواقعة شمال الأرض المعشبة حتى أكد وإلى الشرق من الأقسام الشمالية من لكش ومعظم هذه المدن تهتم بتوفير الحبوب الزراعية على شكل حقول، وتعود آلهة هذه المدن الى عائلة الهية واحدة هي عائلة إنليل في نفر وتشكل البانثيون الفلاحي (الزراعي) :

١ . إنليل : اله الهواء، أو اله العاصفة وهو اله المدينة السومرية المقدسة نيبور (نفر)

٢ . ننليل : زوجة إنليل، إلهة مدينة توّمال قرب نفّر

٣ . نصابا : الهة الحبوب والكتابة وكاتبة إلهة مدنية ايريك Erech القريبة من ايريش في زمن الفراتيين الأوائل .

٤ . ننورتا : اله مدينة گرسو (تلو) في لكش ويسمى (ننكرسو) وهو إله العاصفة المطرية .

٥ . باو : إله منطقة اوروكو في لكش وأصبحت ملكة ايسن تت اسم ننسينا .

٦ . مسلامتاي (نرگال) : اله كوثا ابن انليل واله العالم الاسفل .

واذا كان جاكوبسن قد وفق في تصنيف جغرافي لآلهة سومر، فإنه من ناحية أخرى لم يعطنا الصورة المتدرجة المتسلسلة لانساب الآلهة السومرية ككل والتي عبدت طيلة تاريخ سومر والذي يأخذ بنظر الاعتبار أهميتها واجيالها المتلاحقة وتشكيلاتها العائلية المتجانسة، وهو ما نظن إننا سنوفره في التصنيف القائم على شجرة انساب الالهة السومرية الذي وضعناه .

في حركة معاكسة للاله القمر. (خصوصاً أن الاله نركال كان الها علوياً).

٥) واذا كان لنا من تفسير للاله (ننازو) الذي رمزه الافعى فهو كذلك يخرج ويدخل من وإلى حفر العالم الأسفل متى يشاء . . وبسبب من كونه الأفعى فهو يدلّ على الطب، والأفعى لها جحورها الخفية في الأسفل وهي تظهر ايضاً إلى العيان.

٦) أما اليجبيل (كيبيل) فهو إله النار واسمه بالاكدية (جيراً أو جيرو) ولكنه لا يشبه نسكو ابن آن ، إنه إله النار التي تخرج من العالم الاسفل من باطن الأرض في دورات غير محكمة أو مضبوطة.

ثم تطور مفهوم الجبيل أو جبيل ليدل على النار بكل اشكالها فهو مصدر خير أو شر تحدثه النار بالاتجاهين. ويذكر احد نصوص التعاويذ من سلسلة (عفاريت اوتوكوّ الشريرة) خبراً اسطورياً مدوناً باللغتين السومرية والأكدية كما يلي :

يصعد الإله إنكي إلى السماء برفقة جبيل ليستكشفا سرّ العفاريت الشريرة السبعة (سبيتو) وبما أن هذه المخلوقات هي مخلوقات الإله (آن) فقد تم خلقهم دون معرفة (إنكي) وعندما يطلعان على عمل واصل العفاريت السبعة، يرسل إنكي جبيل إلى اسارلوحي (إله التعاويذ) الذي يقوم بتزويده بمعلومات عنها ويتلقى جبيل الإرشادات المناسبة ليقوم بطقوس التعاويذ (انظر اذزارد ١٩٨٧ : ٨٤).

اما اذا كان هذا الاله (انبلولو) فهما دجلة والفرات اللذان ينبعان من جوف الأرض فهما تحت / فوق الأرض وهذا ما يشير ايضاً إلى حركة سفلية علوية .

لقد وضعت هذه الاسطورة (قبل اسطورة انانا والعالم الاسفل) حركة دورية ثيوغونية مذهلة واشارت برموز ومدلولات خفية وعميقة إلى ظهور واختفاء الآلهة في العالمين الاسفل والأعلى وحركتهما فيه، وسنحتاج إلى الكثير ليساعدنا في تفسير علاقة البواب بالاله نركال (هل هو رمز الملك في العالم الاسفل؟) ، وعلاقة رجل نهر العالم الأسفل قاتل البشر بالاله ننازو (هل هو الاله السام قبل أن يكون الشافي؟) . وعلاقة نوتي إله العالم الاسفل بالاله اليجبيل أو انبيلللو (هل هو العازف الصاخب كالنار أو كمياه دجلة والفرات؟) ، هذه الاسئلة وغيرها نتركها لمعلومات أدق قد تجود بها اساطير أخرى لتوضح لنا الحقيقة .

هذه الأسطورة الثيوغونية معبأه تماماً بشحنه رمزية عالية وعلينا أن نتوقف عندها طويلاً في أية قراءة أو تحليل.

أبناء إنليل (آلهة الجيل الأول من الشجرة الانليلية)

١ . نانا (سوين) : إله القمر وهو أهم إله إنليلي، ولكن هذا الاله مثّل ذات يوم أحد اوجه العبادة القمرية للإلهة الام في النيوليت وكان هذا الإله مرتبطاً بها. ولا بد من الاعتراف ان هذا التغير في كونه إلهاً إنليلياً وليس إلهاً أُمومياً (بمعنى الاله الام او بمعنى الاله إنكي) يمثل انقلاباً لاهوتياً ذكورياً سومرياً على تقاليد النيوليت، وهو بذلك يجسد الإنقلاب الذكوري الكالكويتي الذي كان امتداده في سومر، رغم بقايا واضحة وكثيرة للعصر الأمومي.

وسيصبح إله القمر في وادي الرافدين مصدر محاولات توحيدية مثل التي قام بها ابراهيم الخليل في اور وحرّان (وكلاهما تعبدان القمر) . . والمحاولة لآخر ملك بابلي هو نبونائيد .

الاله (نانا) سيكمل الشجرة الانليلية كما سنرى في الجيل الثاني. وقد رمزه في العصر السومري حوالي القرن (٢٢ق.م) هو هلال مقوس مفتوح للأعلى يحتضن شعار الشمس المكون من اثني عشر شعاعاً ستة منه مدببة والستة الأخرى اشعة ثلاثية مسترسلة (شكل٣٠) وهذا الرمز يدل علي أن الاله القمر يختضن ولده الاله الشمس .

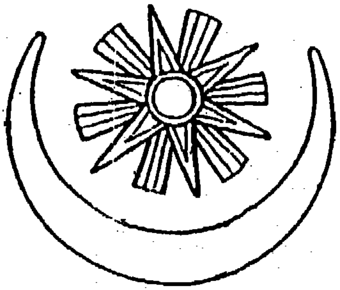

شكل (٣٤)
الرمز السومري لاله القمر (نانا، ننار) القرن ٢٢ ق.م
رسم : علي محمد آل تاجر

ومثلما ارتبط آن وولداه إنليل وإنكي في ثالوث سومري أول، ارتبط نانا مع ولديه أوتو (الشمس) وإنانا (الزهرة) في ثالوث سومري ثان كوكبي الطابع. واذا كان الثالوث الأول كوني الطابع فإن الثالوث الثاني فلكي الطابع. وللثالوثين أهمية كبيرة في تطور الفكر الديني لاحقاً. الرقم المقدس لنانا أو (موشكي) هو ٣٠ وهذا يعني أن سلطته نصف سلطة آن لأنه يقف على رأس ثالوث ثانوي. أما الحيوان المقدس له فهو الثور المجنح.

أما أهم معابد (ننّار) فكانت في أور واسم معبده (اي - كيشرگال) وفي حران (اي - هلهول)

وزوجته هي الالهة (ننگال) السيدة الكبيرة وتسمى الالهة المتوجة (شكل ٣٦) أما أهم القابه فهي (زورق السموات المضيء، ذو البزوغ الساطع، رب الثور الوحشي إينسون، سيد العرش، إله النور الجديد، ثور إنليل الصغير، الأب).

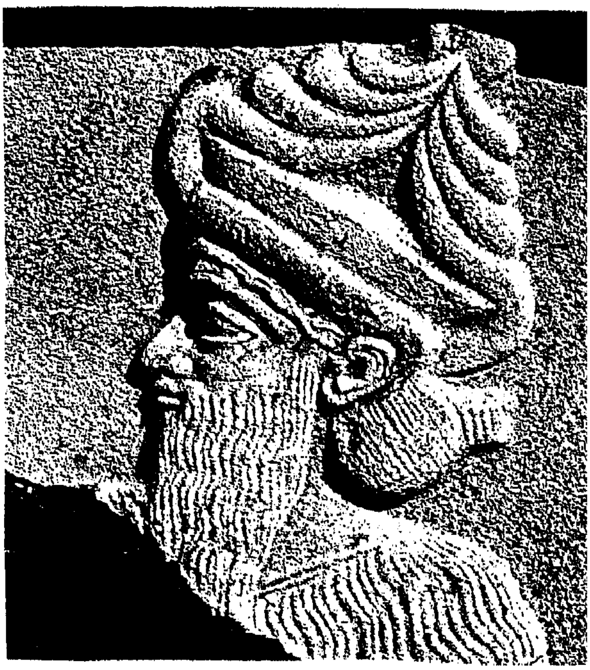

شكل (٣٥)
إله القمر نانا

شكل (٣٦)
الإلهة ننگال زوجة نانا

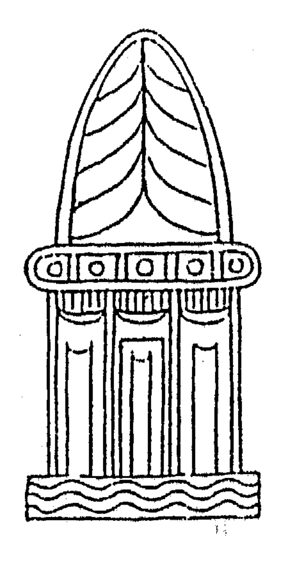

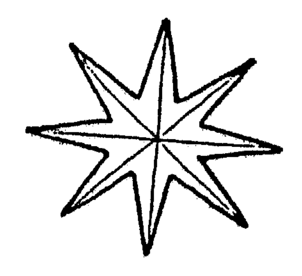

شكل (٢٢)
رمزا الإله آن
١. اواخر الألف الثالث قبل الميلاد
٢. نهاية الألف الثاني قبل الميلاد
رسم : علي محمد آل تاجر

وأصبحت علامة آن تمثل أيّ اله، فبمجرد أن توضع أمام اي اسم حتى ولو كان إنساناً فإن ذلك يعني بأن هذا الاسم اسم اله، أيّ أن آن سبب الالوهية، ثم أصبح مانح الملوكية التي نزلت من السماء (أي من آن). ولذلك أصبح رمزه في نهاية الألف الثالث قبل الميلادة عبارة عن تاج الألوهية المقرّن الموضوع على دكة معبد (شكل ٢٢).

وهناك ملاحظة في غاية الأهمية وهي أن الاله (آن) باتصاله المستمر مع الإلهة (كي) انجب آلهة أرض جديدة ورثت (كي) واطلق عليها بصورة عامة ننخرساج ذات الأسماء الاثنى عشر ومن ضمنها (كي) والتي سنأتي عليها وبذلك تكون ننخرساج إبنة آن واختاً لانليل وإنكي وكانت الإلهة (كي) تسمى قديماً بالالهة (اوراش).

ومعنى آن بالسومرية (السماء، حيث اللمعان، الشروق) ويبدو أن الآلهة اكتسبت من صفاته هذه فكرة انها كائنات مضيئة او مشرقة أو لامعة حيث كانت تجوب السماء.

ومن نسل الإله (آن) مباشرة تنحدر مجموعة مهمة من الإلهات اللائي يعني اغلبهن بالطب وتتداخل أحيانا وظائف الشفاء عندهن مع بعضها وهن (انظر اذزارد ١٩٨٧ : ٤٣، ٨٤)

أما الإله (ننكرسو) فهو (إله مدينة كرسو السومرية) وهي مدينة تابعة إلى دولة مدينة لكش، وكان هذا الإله يبدو وكأنه يمثل الاله العام ننورتا وأباه الاله المطلق إنليل في مدينة كرسو او لكش بأكملها، ويبدو أن معبده الأول اسمه (بيت البّجارا) وكان إله حرب ويحب تقديم الهدايا والنذور، وهناك نصٌ سومري مشهور مكتوب على اسطوانتين للملك لكش كوديا إلى الاله ننكرسو يخص بناء معبد له حيث يأتيه في الحلم ويبلغه هذا الأمر، ويبدو ننكرسو أيضاً إلهاً له علاقة بالطقس والمطَر والريح.

رمز له السومريون في عصر ميسلم (حوالي ٣٠٠٠ ق.م) بعمودين ذي رأسين مكورين ولهما رقبتين محزوزتين. شكل (٣٨) ورمز له في النصف الأول من الالف الثالث ق.م بطائر العاصفة امدوكد الذي له رأس أسد وجناحا نسر وظهرت تماثيل كثيرة تعبر عن هذا الطائر الذي يدل على القوة والريح معاً ويبدو أنه كان يصبح احياناً رمزاً لأخيه الاله ننورتا.

وكان للاله ننجرسو ولدان هما (كال اليم) وهو إله الحق وصد الشر وهو إله الملوكية أما الاله الآخر فهو (شول شاكا) إله السكائب والقرابين وهو إله الحياة أو الحيوية لارتباطه بالدم، الالهان يمثلان وظائف إنليلة عملية ويعبران عن ما يمكن أن يكون عليه أبناء إله مدينة لها تقاليد دينية عريقة مثل لكش.

٤) إلها الفصول (الصيف والشتاء، ايمش وانتين):

هذان الإلهان المترافقان، او المتلازمان بتناوبهما، يعتبران إبنا الإله إنليل ويتحكمان بظهور فصلي الصيف والشتاء وتعاقبهما، ولا نعرف عنهما الكثير سوى اسطوة شهيرة للتنافس بينهما أمام إنليل سنذكرها في أساطير تنظيم الكون، لانها لا تقع ضمن حقل الاساطير الثيوغونية، وتنسب إلى ادب المناظرات (ادمندوگا) اكثر من كونها اسطورة بالمعنى الدقيق لمصطلح اسطورة.

٥) بابيل سالج: ومعنى اسمه بالسومرية (البوابة) وقد تكون له علاقة بالعالم الأسفل، وهو إله (لاراك) وزوج إلهة الشفاء (ننسينا) التي كانت تلقب بـ(سيدة لاراك).

الشؤون الدينية والدنيوية واستحواذه على وظائف الآلهة القريبين منه، ويعد إنليل النموذج الأول لعبادة التفريد Henothsim وهي إعلان لشأن اله قومي على حساب بقية الآلهة . . ولذلك يمتاز الإله إنليل بكثرة ألقابه وأسمائه فهو «سيد جميع البلدان، وأبو جميع الآلهة، والجبل الكبير والاله الذي يقرر المصائر والاله الذي لا رجعة لقراراته، وصاحب العينين البراقتين، والاله الذي يمتلك بين يديه ألواح القدر. وعلاوة علي ذلك فإن الملاحم الخاصة بخلق الكون أكدت على أن الإله إنليل هو الذي قام بفصل السماء عن الأرض وهو الذي خلق الفأس اداة العمل، ، (رشيد ١٩٨٥ : ١٥٢).

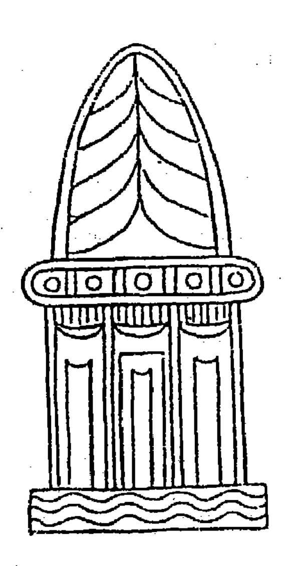

شكل (٢٤)
رمز الإله إنليل (نهاية الألف الثاني قبل الميلاد)
رسم : علي محمد آل تاجر

ومن ألقابه الأخرى المنتقم والذي يراقب سير القوانين ويعاقب المذنبين والذي يمسكهم مثل الطيور في شبكته الكبيرة.

ومدينة إنليل هي المدينة السومرية الدينية المقدسة الأولى نفّر (نيبور) التي تبعد مسافة ٧ كم عن ناحية عفك في محافظة القادسية واسم معبده (إي - كور) أي (بيت الجبل).

أما الحيوانات التي كانت تمثل الشمس وتعبر عنه وترافقه في العصر السومري فهي الأسد ذو الرأس الآدمي، الاسد لوحده، النسر والصقر (اوتو كشگالو) والرجل العقرب الذي يظهر أمام قارب الاله الشمس على الاختام الاسطوانية منذ بداية عصر فجر السلالات الثالث.

وهكذا نرى أن إله الشمس أوتو السومري هيأ قاعدة كبيرة للاله السامي (شمش) الذي هو امتداد مضخم له ولدوره كما سنرى في الديانتين البابلية والآشورية بشكل خاص، فاذا كان ابن الشمس (مردوخ) قد احتل الاله الاعظم في بابل، فان الاله آشور الذي هو إله الافق اي الاله الشمس قد احتل الاله الاعظم في آشور.

٢) إلهة الزُهرة (إنانا) إلهة الحب والجمال

لم تشغل إلهةٌ او إله العصور القديمة مثلما فعلت ذلك إنانا إله الحب والجمال والمتعة الجنسية، الالهة اللعوب المغناج التي حيرت ألباب الآلهة والناس، اذ يندر أن يكون هناك إله رئيسي ابتداءاً من إله السماء (آن) وانتهاءً باله الرعي (دموزي) لم يرتبط بها بعلاقة حب وزواج، وهي غير ثابتة في هذه العلاقة دائماً فلها وجهان وجهٌ عاشق ولهان، ووجه غادرٌ مخاتل. وسنفرد مبحثاً كاملاً لأساطيرها فقط.

أننا نحذر من الخلط بين أن تكون إنانا الهةً شعبية للحب والجمال والمتعة، وبين أن يصفها البعض كإلهة سومرية أم. لأن في ذلك الكثير من المشكلات والأخطاء الفكرية والمثولوجية.

كان اسمها القديم (إينين) أو (إينونيت) ثم بدأ يكتب بطريقة اخرى (نن – أن – نا) و (إن– أنا) اي In - an - na وعندما يدمج صوتياً يصبح إنانا Ianna اي ملكة السماء. (شكل ٤٨)

أما اسم عشتار السامي فهو من أصل سومري أيضاً ذكرته المصادر الفلكية بعنوان (گيش دار) أو (گشدار) (GESH-DAR) ويعني Gesh العضو الذكري اما دار Dar فتعني شق او قطع وربما يدل علي العضو الانثوي، اي ان اسم كشدار تعني العضو الذكري والانثوي، وهذا ما نراه نحنُ، أما دوسن ومارغريت روثن فيريان ان هذا يعني أنها مقطوعةٌ من إله ذكري ربما يكون (آن) ويذكران أن الالهة افروديت (وهي شبيهة انانا) مقطوعة عن الاله السماوي اورانوس (انظر روثن ١٩٨٠ : ١١٢)و (Dessin 1957).

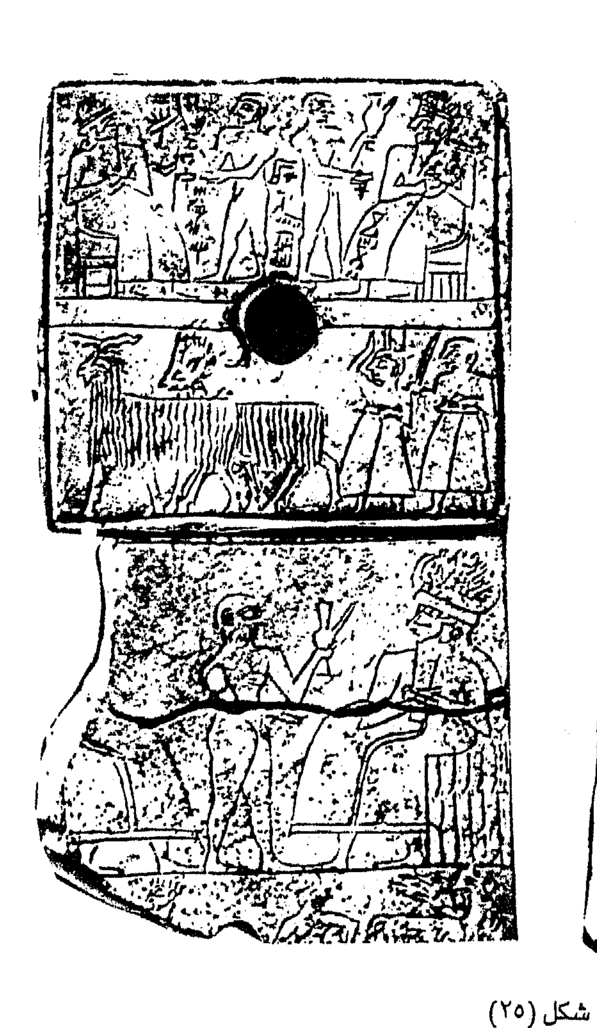

شكل (٢٥)

تمثال الإله إنليل مطلي باللون الأحمر (النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد

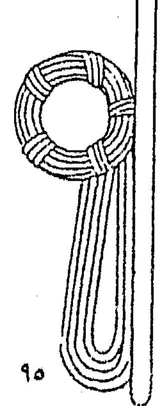

شكل (٢٦)

رمز التشييد والبناء

رسم : علي محمد آل تاجر

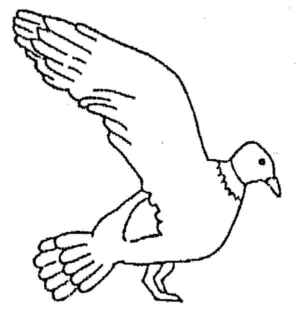

شكل (٢٧)

(إياهو) رمز الحمامة السماوية

والهواء (القرن ١٨ ق.م)

رسم : علي محمد آل تاجر

شكل (٤٧)
إنانا مع أسدها تظهر كآلهة حرب
وسلطة ماري (القرن ١٨ ق.م)

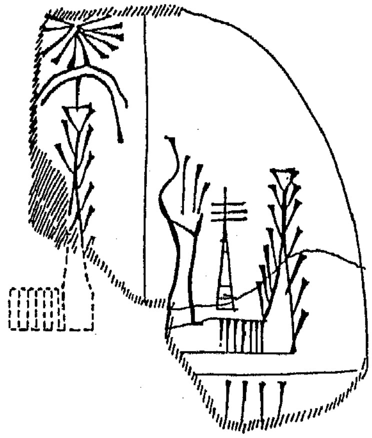

شكل (٤٨)
الرمزان (ان) و (إين)
فجر العصر السومري

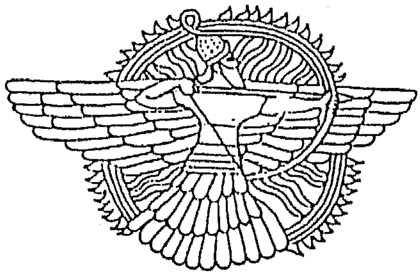

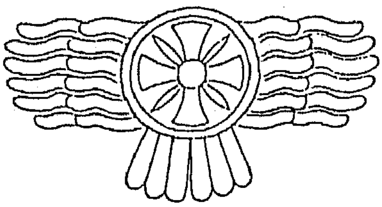

شكل (٤٩)
رموز الإله آشور، الشمس المجنحة والصليب المجنّح، الذي كان يشير عند
السومريين لإنانا والآلهة بشكل عام
رسم: علي محمد آل تاجر

ورغم زيجاتها وعلاقاتها كانت توصف بالعذراء، وفي الوقت نفسه كانت تلعب دور الام والاخت والزوجة ، ولذلك نرى «هذه العلاقة بين الام العذراء التي ولدت ابنها دون نكاح، ثم تزوجته لتستعيد الى ذاتها قوتها الاخصابية التي غادرت شخصه في الخارج، هي التي تفسر اشارة النصوص الاسطورية الطقسية فيما بعد، الى الاله إبن على انه الابن الام الكبرى احياناً وزوجها أو حبيبها أحياناً أخرى، ورغم أن كل الآلهة الذكور في الثقافة الذكرية قد نشأوا عن الإله الابن، ثم اتخذو لانفسهم شخصيات مستقلة وارتفعوا نحو السماء ناكرين أصلهم الأرضي، (السواح ١٩٩٣ : ٢٦٨).

أما الحيوان الذي ارتبط بها فهو الأسد كونه يمثل الوجه القوي لها وغالباً ما تظهر واقفةً عليه (شكل ٤٧) .

وتعتبر الوركاء مدينة الإلهة إنانا ففيها معبدها (اي - أنّا) الذي كان برقى إلى الألف الرابع قبل الميلاد، ويوصف هناك أيضاً معبد أبيها الإله آن حيث أصبحت زوجته (وهي ليست إبنته وليست زوجته ويسمى (المعبد الأبيض)، ويرجّح ان تكون هناك في طبقات أخرى من الوركاء معابد مزدوجة لها ولزوجها (دموزي) .

وقد حفل التراث الأدبي والديني السومري بأناشيد وصلوات خاصة بالإلهة إنانا، فضلاً عن أساطيرها الخاصة بها والتي سنفرد لها مبحثاً خاصاً . ولنتأمل في هذه القصيدة السومرية عن إنانا كاهنة السماء المقدسة :

«أقولُ مرحى ! لتلك المقدسة التي تظهر في السماء !

أقولُ مرحى ! لكاهنة السماء المقدسة !

أقولُ مرحى ! لإنانّا ، سيدة السماء العظيمة

أيتها المشعل المقدس، انت تملأين السماء بنورك!

أنت تجعلين النهار يتألق عند الفجر !

أقولُ مرحى لإنانا ، سيدة السماء العظيمة!

أيتها السيدة المرعبة في مجمع آلهة الأنّونا! المتوجه بقرنين عظيمين،

أنت تملأين السماء والأرض بالنور

أسطورة إنليل وسود

ننليل Ninlil زوجة الإله إنليل ، وكانت تسمى قبل زواجهما (سودSud) أي الطويلة ، وتوصف بأنها إلهة الحبوب لأن امها هي ننبار شكونو (نصابا) الهة الحبوب والكتابة وأبوها (هاي) اله الصوامع . واسطورتها الحالية تحكي قصة زواجها الشرعي من إنليل ولها قصة زواج غير شرعي منه سنضعها في الاساطير الثيوغونية لنسل إنليل .

تحكي هذه الاسطورة أن إنليل اجتاز بلاد سومر كلها، عندما كان شاباً يافعاً، للبحث عن زوجة له فلم يجد ما يرضيه، لكنه عندما يصل الى مدينة (ايريش) يرى (سود)، وهي ابنة العائلة الحاكمة في المدينة ، فتنال اعجاب إنليل فيظن انها من بنات الهوى ويغازلها لكنه يلمس فيها العفّة والبراءة. وعندما يعود إنليل إلى مدينته (نفر) يقوم بارسال رسوله نسكو (نوسكا) وهو اله النار إلى والدتها الالهة (نصابا) الهة الحبوب والكتابة وابوها (هايا أو خايا) اله الصوامع . بعد أن حمّله هدايا كبيرة ووعداً بأن يطلق عليها اسم ننليل اذا صارت زوجةً له وأن تعيش معه في قصره (كي اور) وقد استقبلت (نصابا) الرسول وعاملته بلطف وادي هو كل المراسيم اللائقة واعطى الهدايا وتحدث عن الوعود، فوافقت الام على أن يخطب إنليل سود.

عاد نسكو إلى نفر وأخبر سيده بذلك ففرح وهيأ هدية الزواج المكونة من قطعان من الحيوانات المختلفة والاجبان والأسمان والألبان والعسل والثمار المختلفة والاحجار الكريمة والحلي والأقراط والذهب والفضة وغيرها ورافقته الذهاب الى (سود) اخته (ننماخ) وحصل الزواج وجاءت اخته بها من يدها وأدخلتها عليه، وهناك في الـ(ايكور) مقره في نفر تزوجها ثم اطلق عليها عدة ألقاب هي (ننتو: السيدة التي تلد)، و(أشنان: الهة الحبوب)، وأعطاها نواميس الكتابة والقلم والألواح وعلم الحساب وتثبيت التحوم وتخطيط الأقنية والسدود، وأخيراً أعطاها لقب (ننليل: سيدة الهواء) الاكثر علواً من الجبال .

نشرت هذه الاسطورة كاملة لأول مرة عام (١٩٦٧) مؤلفة من (١٧٥) سطراً وهي تطفح بلغة الحب والجمال والأوصاف الشعرية، وتصور طقوس زواج الآلهة وهدايا الزواج ومنح الألقاب.

لقد أنجب إنكي أربعة أنواع من السلالات الالهية (سنناقشها بعد قليل) هي سلالات الآلهة النباتية والحيوانية والانسان (الاله الضعيف) وآلهة العمران والبناء والمدينة .

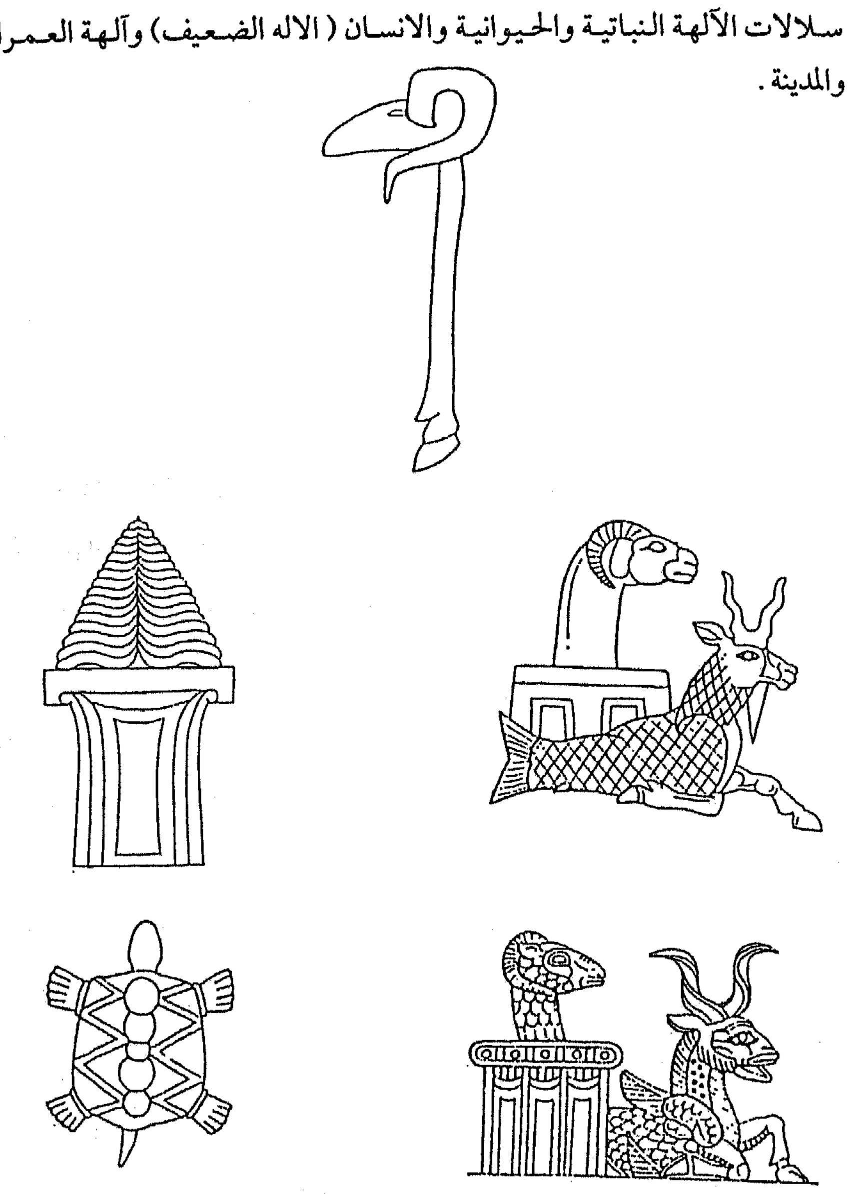

شكل(٢٨)
رموز الإله انكي
١. حوالي ١٨٠٠ ق.م ٢. ٣ القرن ١٢ ق.م ٤، ٥ نهاية الألف الثاني ق.م
رسم : علي محمد آل تاجر

وأشخارا مختصة بتنفيذ العهود المقطوعة أمام الآلهة وتسمى بسيدة القضاء والأضاحي . ولها ما يشاركها في صفات عشتار الحربية ، وهذا يتفق مع الإله شار ، وكذلك رمز أشخار الذي كان العقرب إضافة إلى أنها توصف بأنها أم السبعة أولاد (أبناء العقرب) ويعتقد أن هؤلاء الأبناء السبعة هم العفاريت السبعة الشريرة أو عفاريت سبتّو .

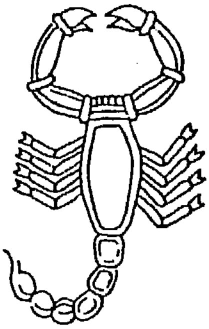

شكل (٥٢)
رمز الإلهة اشخارا (الألف الثاني ق.م)
رسم : علي محمد آل تاجر

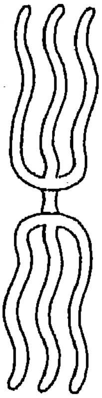

شكل (٥٣)
رمز الإله الإله أدد (إشكر) النصف الثاني من الألف الثالث ق.م
رسم : علي محمد آل تاجر

٢ . شارا SHARA : وهو إله ينابيع السماء أي إله المطر

٢ . لولال LULAL ويسمى أيضاً لاتراك LATRAK

٣ . ننهار (ننخار) وهو إله الرعد والعواصف وتسمى زوجته (ننيجارا) الهة الزبدة والأجبان .

٤ . إشكر (ISHKAR) وهو الجذر السومري للاله (أدد)السامي الذي أخذ مركزاً مهماً في البانثيون الاكدي ثم البابلي، وهو إله المطر والعواصف والرياح وتحديداً إله البرق ولذلك رمز له في حدود النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد بما يشبه الشوكة المزدوجة التي لكل من اطرافها ثلاثة إشارات برق، اي ستة بروق (شكل ٥٣) وهذا يشير إلى أن الرمز السري لهذا الاله اصبح (٦) وهو أصغر رقم سري او رمزي للآلهة السومرية .

وللإله ننكشزيدا وزوجةاسمها نن - أزموا (Ninazimua) وتسمى (سيدة الغصن النامي المثمر) ومن زواجهما جاء ابنهما الاله دامو وهناك من يجعل زوجته گشتن أنا أخت الإله دموزي.

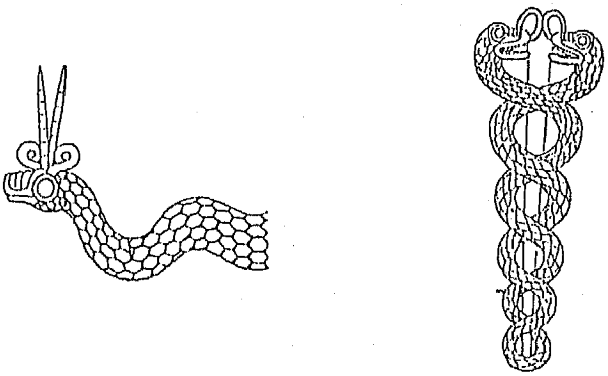

شكل (٥٤)

رمزا الإله ننكشزيدا ١. القرن ٢٢ ق.م ٢. القرن ١٢ ق.م

رسم : علي محمد آل تاجر

شكل (٥٥)

أمير لكش جوديا يظهر بين آلهة متوّجة من بينها ننكشزيدا وإله آخر لعله دموزي

٣- **دامو Damu** : ابن ننكشزيدا ونن - أزموا . وهو إله مدينة گرسو على الفرات (وهي غير گرسو لگش) قرب أور، ويبدو أنه يمثل بشكل خاص (إله النسغ الصاعد في النباتات اثناء الربيع) ومعنى اسمه (الطفل) وله خصائص تتناسب مع التقاليد النسائية في النواح والبحث عن الاله المفقود الذي يبقى عليلاً. أما شجرته فهي السدر، وتنتهي طقوسه بالعثور عليه خارج النهر. وهناك شبه كبير بين أساطيره وأساطير الإله دموزي . وقد يذكر هذا الإله كإله للشفاء بسبب ذكر أمه إلهة الشفاء (ننسينا) أو (ننسي أنّا) التي كانت تملك نواميس الطب (مي) .

وكانت توصف بأنها (سيدة إيسن) وهذا معنى اسمها وقرينها الإله(بابيل سانج) وابنهما (دامو). وقد ارتقت الى مصاف (إنانا) وعبدت كإبنة (آن) واختلطت مع صفات الإلهة (بابا) كطبيبة لذوي الرؤوس السود.

٤- **خندرساك** : وهو إله ذو شكل تنيني ، اطلق عليه الاكديون والبابليون اسم (إيشوم) ، ويعتبر ابن ومستشار الإله نرگال وهو إله شرير وتسمى زوجته (ننمگك) ، ويبدو أن شكله الارضي يمثل نهر دجلة، مثلما كان إله آخر اسمه (شبالا) يجسد نهر الفرات (انظر Tallqvist: 1938:13) .

٥- **نمتار** : ومعني اسمه (مقرر المصير) ويوصف بأنه ابن أرشكيگال، وهو صاحب الستين مرض التي يطلقها على من يراد قتله أو اصابته بالمرض. فهو (إله الأمراض) وهو وزير أرشكيگال، وكان يوصف بأنه يحمل سيفاً مسلطاً على البشر، وقد وصف احياناً انه ابن الاله إنليل .

ولنمتار زوجة اسمها (خشبيشاگك) وكان يرد اسمها احيانا بصيغة (نمتارو) وهي الصيغة المؤنثة لاسم نمتار وتوصف بأن لها رأس حيوان مركب يدعى (كوريبو) ويداها ورجلاها تشبه أيدي وأرجل البشر .

٦- **إمدوگد (زو)** وهي إلهة الريح القاسية، وكانت تعبد خوفاً منها ويرمز لها بنسر برأس أسد فارد الجناحين تركب على أيلين ذوي قرون مشجرة. ويظهرها بهذا الشكل نصب سومري مبكر ربما كان له علاقة بالخصب ايضاً (شكل ٥٦) وكان يطلق عليه ايضاً (زو) الذي اشتهر اكثر في العصر الاكدي ثم البابلي القديم وظهرت اسطورة نتجرسو الذي

٣. سلالة إنليل

الشجرة الإنليلية الهوائية النارية

قلنا أن الاله إنليل استلم سلطات ابيه آن، وعين اخاه (نسكو) إله النار (ابن آن) وزيراً له، وهكذا اتحد الهواء مع النار في تكوين سلالة واحدة ستكون من أهم ميزاتها عنايتها بما يظهر في الفضاء الجوي من كواكب وأجسام وعواصف ورياح وامطار وستعنى بتبدل الفصول وغيرها، ولأن الفضاء الذي تحت (الأرض والابسو) هو جزءٌ من الفضاء الكروي الذي يحيط بالأرض لذلك اصبحت مهمات الفضاء الاسفل (العالم الاسفل) ايضاً من مهمات السلالة الانليلية حيث يظهر فيها آلهة هذا العالم كملوك له، ويظهر ابناء آن وانليل كمجاميع من الجن والعفاريت والشياطين منه. اضافة إلى أرواح الموتى، إن صفة الموت تدل كثيراً على طبيعة هذه الشجرة الانليلية لأن من صفاتها جمود ويباس مكوناتها وتربصها بالأرض واحاطتها بامكانات الكوارث (العواصف، الامطار، الفيضان، الحرائق، السكوف، الخسوف، ظهور كائنات وحشية من العالم الاسفل لتدمير الأرض وهكذا). ولا نبعد امكانية أن تكون إنانا (الانليلة السلالة) سبباً في موت دموزي (الآنكي السلالة) وحدب الأرض وسنتوسع لاحقاً في تفسيرنا هذا.

لقد استعمل الاكديون مصطلح الإنليلية على شكل (إنليلوتو) وكانوا يقصدون بها الروح الإنليلية المرتبطة بالسيادة والقوة «فقد اعلن حمورابي مثلاً في مقدمة شريعته أن (آن ومردوخ) زوّداه بالانليلية ليسوس البشر بها، وتجري الامور متشابهة في الدولة الآشورية حيث يلقب إله الدولة القومي بـ(إنليل الآشوري) مثل مردوخ في الدولة البابلية ويلقب الاثنان في دولتيهما (بانليل الآلهة)، (اذزارد ١٩٨٧ : ٦٩).

إذن نحنُ أمام الوجه الآخر للوجود (الوجه غير الحي) السلبي ربما في الكثير من جوانبه، ولكننا كما نعلم بأن الحياة الدينية بطبيعتها لا تعطي شكلاً سلبياً خالصاً لسلالة إله عظيم كإنليل ولذلك سنجد بعض الجوانب الحية والايجابية التي نشعر أنها تخفف أو تلطف من قسوة ابناء إنليل واحفاده.

ولكن هذا الغلاف الهوائي الناري الالهي الذي يحيط بالأرض يساهم أيضاً في تنظيم قوانين الأرض باعتبارها مركز الكون فحركة الشمس والقمر والكواكب والرياح

٨ . هواوا: حارس الأرز (أصله حوري) .

هـ. صغار شياطين العالم الأسفل وهو جيش من الشياطين يطلق عليهم عموماً إسم الـ (گالا) وهناك اختصاصات عند بعضهم لا مجال لذكرها الآن . وكان عفريت الگالا السومري لا يوصف بالشر دائماً لأن أحد ألقابه (أجليما) يذكر ضمن آلهة مدينة لكش .

و . الشياطين السبعة الشريرة : وهم أبناء الإله (آن) أنجبهم من الأرض (أرصتو) أكديا . وتتحدّث عنهم قصيدة سومرية بعنوان (لوگال بندا وحورّوم) وتنسبهم إلى أبيهم (آن) وإلى أمهم (أوراش) إلهة الأرض . وهم الذي يحاول أنكي وإله النار جبيل معرفة أصلهم (راجع أسطورة جبيل) ويعتقد أنهم المقصودون في سلسلة التعويذات المعروفة باسم (عفاريت الأوتوكو الشريرة) واسمها السومري (أودوج) التي تستعمل للسحر الأسود .

أبناء اشخارا: وهم الأبناء السبعة للإلهة أشخارا التي توصف بالعقرب ، . ولا نستطيع الجزم بكونهم أخيار أم أشرار .

ز . دمّه : ن هي عفريته حمى الأطفال والمرضى الرضّع وتوصف بأنها إبنة آن وتقابلها بالأكدية عفريتة لامشتو . وتظهر كامرأة عارية الصدر ترضع من ثدييها قلباً وخنزيراً وتحمل في يديها مشطاً ومغزلاً مما يشير إلى أنوثتها .

ح . أساج : عفريت سومري معناه (الذي يضرب بالذراع) وتحول اسمه إلى (أساكّو) بالأكدية . وكان بالأصل عفريت الأوبئة والأمراض ثم أصبح عفريت ـ أعداء سومر ـ القاطن في الجبال . وكانت إنانا تشن تحملات ضده في الجبال(انظر أنانا وايبيخ) وكذلك (نينورتا) . وكان (أساكو) يأخذ شكل تابو للإله والملك ويبعث الآلام في جسم كل من يتجرأ على تدنيس قدسيته من البشر .

ط . بازوزو : عفريت له أربعة اجنحة ووجه ممزق وقرون طويلة ومخالف أسد وطائر جارح وشوكه عقرب . وله تعاويذ مضاده .

ي . سمانه : ذكر هذا العفريت في التعاويذ السومرية .

٣ ننازو Ninazu : إله مهم من آلهة العالم الأسفل معنى اسمه (السيد الطبيب)، وهو هنا ابن غير شرعي من إنليل وهو في حالة تنكر لشخصية رجل نهر العالم الأسفل (مفترس البشر) . . لكن هذا الاله يرد دائماً كإبن للاله نركال من ارشكيگال .

٤ . **اليجيبيل (گيبل) إله النار السفلى،** وفي رواية اخرى أنه الاله انبيلولو Enbilulu وهو إله نهري دجلة والفرات، ولكن هذا إله يرد في الالهيات على أنه ابن الاله انكي .

واعتقد أن الفلسفة اللاهوتية الكامنة وراء هذه الثيوغونيا الانليلية تتخلص في النقاط التالية :

١ . أن الاغتصاب جريمة كبرى حتى لو كان مرتكبها إله وأن عقوبتها الموت (الذهاب إلى العالم الأسفل) وهذا جانب أخلاقي تؤكد عليه الاسطورة حيث أن الآلهة السبعة العظام والالهة الخمسين الكبار قرروا موت إنليل بسبب اغتصابه للإلهة ننليل

٢ . إن ذهاب أي إله إلى العالم الاسفل يعني بقاؤه فيه إلى الأبد، ولذلك جاءت الاسطورة بثيمة جديدة لتخليص إنليل من هذا العالم بأن نزلت الالهة ننليل وراءه لتخلصه . (ولنلاحظ أن هذه الاسطورة سابقة لنزول انانا للعالم الاسفل لتخليص دموزي كما ترد في بعض التفسيرات) .

ولكن هناك مشكلة جديدة فالالهة ننليل حاملٌ باله القمر (نانا) ، وأصبح الآن هناك ثلاثة آلهة داخل العالم الاسفل . وهنا تلجأ الاسطورة الى حيلة ذكية وهي انجاب ثلاثة آلهة لكي يحلّوا مكان الآلهة الثلاثة (انليل ، ننليل، نانا) وهذا هو شرط خروج هؤلاء الآلهة من ذلك العالم .

٣) ولنلاحظ أن ظهور الاله (نانا) كان غير شرعي، ولذلك توجّب على هذا الاله أن يظل محكوماً بالدخول والخروج إلى العالم السفلي كل يوم وليلة ففي النهار يدخل القمر العالم الاسفل وفي الليل يخرج منه .

٤) كان الاله نركال يتخذ أحياناً ، بل وفي الكثير من الاساطير القديمة، وكأنه (اله الشمس) وهكذا هو موقعه فهو يأتي بعد الاله القمر (نانا)، وفي الثيوغونيا السومرية يكون الاله الشمس (اوتو) ابن الاله القمر اي الذي أتى بعده وكأن نركال يحتل نفس الموقع وهكذا يعني ان الشمس محكوم عليها بالدخول إلى العالم السفلي ليلاً والخروج منه نهاراً

ك . العين الشريرة أو الحاسدة والتي عبدت في تل براك كإلهة للعين في معبد العين

٢ . الجن الطيبة

ولايفوننا هنا ذكر سريع للعفاريت او الجن الصالحة شكل (٥٨) وهي الآلهة الحامية للبشر والمدن والحدود :

أ . لاما : يقابلها بالأكدية (لاماسو) وهي عفريته صالحة تعمل لصالح الإنسان وتستعمل لحمايته من الأذى وهناك الجنية الحامية (عشتارو) .

ب . (شيدو) : وهو عفريت مجنح . ظهر مع لاما في صيغته الآشورية لاحقاً على شكل (الإنسان الثور المجنح) لحراسة المدن الآشورية وقصورها من الأرواح الشرية . وهناك الجني الحامي (إيلو) . ويعتبر الإله نيراح (نيراه) الذي هو ثعبان الإله ستران حامي حياة البشر ، وكان يوضع على أحجار الحدود .

٣ . الكائنات الخرافية

وهي كائنات لا نستطيع تمييزها في حقول الآلهة أو الجن ، بل هي مسوخٌ مركبة من اعضاء أجسام مختلفة وكان بعضها يرمز إلى إله معين وفينا يلي ذكر وأهم هذه الكائنات الخرافية السومرية (انظر اذزارد ١٩٨٧ : ١٢١) .

١ . أ . **الإنسان العقرب (جيرو تبلولو)** : وهو المصطلح السومري الذي انتقل للاكدية نفسه والمقصود به كائن اعلاه انسان وأسفله عقرب من الذيل التي تحمل ابرة اللدغ . ويحرس هذا الانسان (امرأة او رجلاً) جبل (ماشو) الاسطوري وقد عثر على اقدام صور له في القبور الملكية في اور (شكل)

٢ . **الإنسان السمكة (كولولو)** : وهو كائن اعلاه انسان واسفله سمكة وله ذيل على شكل حراشف السمكة ، وهو من الكائنات المائية التي تخضع لحكم انكي . وشاع لبسه عند كهنة الاله (إيا) في العصر الآشوري .

٣ . **الأنسان الثور** : وهو عبارة عن رجل عار له اظلاف وذيل ثور وكان يصور كثيراً على مشاهد الاختام الاسطوانية منذ فجر السلالات . ويرمز الى آلهة الخصب عامة ومنهم

دموزي. ويشير كذلك إلى إنكيدو .

٤ . **الإنسان الكلب المجنح** : وهو شعار الإلهة گولا الهة الطب

٥ . **الإنسان الطير** : ويطالعنا كثيراً على فنون النحت منذ أقدم العصور حتى العصر الأكدي ولكن معناه غير معروف .

٦ . **الإنسان القارب:** وهو كائن مركب من قارب وجشم بشري ويبدوان وكأنهما جسم واحد وهو كائن معروف على مشاهد الاختام الاسطوانية في فجر عصر السلالات السومرية والعصر الاكدي. وقد يستبدل أحيانا الجسم البشري بجسم التنين .

٧. **الماعز السمكة (سوخور – مش)** وهو كائن أعلاه ويداه على شكل ماعز واسفله على شكل سمكة مع ذيلها . وهو من الكائنات الخاضعة لحكم الاله انكي وصار رمزه بعد ذلك، ويحمل انكي لقب (ماعز جبال الأبزو) وصار فيما بعد رمزاً للاله نابو) .

٨. **موشخوشو** : واصل اسمه السومري (موش – خوش) وتعني التنين الأحمر الناري وهو كائن له رأس أفعى بقرنين وجسم مغطى بحراشف أفعى وقائمتان أماميتان على شكل مخالب أسد وقائمتان خلفيتان على شكل مخالب نسر، وذيل عقرب ، وهو من الكائنات التي اوجدتها تيامت، وصار فيما بعد شعار الاله مردوخ بعد أن تغلب عليه .

وكانوا يفسرون خسوفه بمهاجمة العفاريت السبعة له (انظر الاحمد ١٩٨١ : ٢٦) .

أما أطوار القمر الهلال، البدر، المحاق فقد اتخذها السومريون مقياساً لتقسيم الشهر إلى أربعة أسابيع فالهلال هو أول ظهوره ونصف البدر هو الاسبوع الثاني واكتماله بدراً هو الاسبوع الثالث اما المحاق فاسبوعه الرابع وكان يسمونه (بيلولو) حيث يعتقدون ان الارواح الشريرة تستولي عليه بعد المحاق ليومين او ثلاثة وتعطله في العالم الاسفل ثم يعود من جديد، وكانت هناك اسطورة حول خسوف القمر مدونة بالسومرية ترد في مقدمة (تعويذات الاوتوكو الشريرة) تتحدث عن تحالف بين آلهة القمر والشمس والزهرة بتحريض من الاله إنليل لمقاسمة الاله (آن) في حكم العالم. فيتصدى (آن) لهم ويرسل آلهة السبيتو السبعة ليقتل إله القمر (نانا) مما يسبب ذلك خسوف القمر فتتخلى إنانا عن حلفائها وتنضم الى صف (آن) وتنجح بمكرها في كسب آن راغبة في حكم السماء بمفردها ويقوم الاله (انليل) بارسال رسوله (نسكو) إلى إله الحكمة (إنكي) لينقذ القمر من مأزقه فيطلع انكي الاله (أسارلوجي) على الأمر ويقف النص عند هذا الحد، لكن نهايته تشير لنجاح انكي في تحرير القمر من الشياطين السبعة. وهذه الاسطورة تشير إلى خسوف القمر وكان السومريون يحتلفون في كل مرحلة من مراحل القمر بعيد اسبوعي اسمه (إش، إش) وربما هو نفسه ما نسميه عطلة نهاية الاسبوع الآن. وبسبب من ارتباطه بالزمن والتاريخ أسماه الساميون فيما بعد (ورخ) التي تدل على التاريخ أما اسمه السامي الشهير (سين) فهو من أصل سومري فقد جاء من انزو Enzu التي تقرأ زوين Zuen ومنها زن Zen، وسن Sin (انظر بوتيرو ١٩٧٠ : ٤٠).

٢) آلهة العالم السفلي : وقد تحدثنا عن ولادة ثلاثة منهم، ونحن نؤثر الحديث هنا عن أهمهم الذي هو نركال (ملك العين المظلمة) وهو إله مهم في الثيوغونيا السومرية لانه بعد أن كان الهاً علوياً يجلس مع الآلهة في العالم الأعلى، أصبح فيما بعد ملكاً على العالم الأسفل وتزوج إرشكيگال ملكته (وهو ما ترويه اسطورة بابلية) ولا شك أن وجود الإله القمر وإله الظلام (نرگال) في جيل واحد من أبناء إنليل يعني فيما يعنيه الصراع او العلاقة بين النور والظلمة فالهواء أو الفضاء (ليل) انجب القمر والظلام وكلاهما دائر فوق الأرض وتحتها .

إن هذا التضاد بين النور والظلام سنلمحه في الجيل القادم الثاني لإنليل حيث تظهر

٢. سلالة إنكي

الشجرة الإنكية الارضية المائية

إذا كانت الشجرة الانليلية تغطي فضاء الأرض وتتغلغل في أسفله ، وقد انتهينا من تفاصيلها، فإن سلالة إنكي أو شجرته تغطي الأرض نفسها ويتغلغل ماؤها فيها، وهي سبب ازدهار الحياة ونموها وتطورها، وهي ليست شجرة معقدة مثل الشجرة الإنليلة، بل هي شجرةٌ بسيطة لها أبٌ خالق واحدٌ اسمهُ إنكي الذي تتولد عنه آلهةٌ عديدة.

إن اتحاد الهواء والنار في سلالة إنليل اتحاد ذكوري ذكوري كان قاعدةً لنسل بين إنليل وننليل نتج عنه هذا الحشد الهائل من الآلهة القوية ، التي أحكمت سيطرتها على الكون والفضاء والعالم الأسفل والأمراض والقوانين والانواء والفصول .

أما اتحاد إنكي (إله الماء في الأساس) مع ننكي (الهة الأرض والتراب) فقد كان اتحاداً ذكورياً انثوياً نتج عنه عدد هائل من الآلهة الحيّة الخضراء الطيبة التي تمثل قطاعات النبات والحيوان والانسان واسباب العمران والحضارة.

إن أهم اسطورة ثيوغونية (ولادة الآلهة) تخص الإله إنكي هي أسطورته مع الآلهة ننخرساج التي تمثل الأرض في دلمون، حيث ينتج عنها ولادة سلسلة من الآلهة التي سيكون لها شأن في الشجرة الإنكية.

شكل (٦٠)

الإله انكي جالس والمياه تتدفق من كتفيه ، والسمك يصعد عليها

لا أحد غيري يجتاز الهور، قال انكي مقسماً باسم آن

ومن أجل التي إضطجعت في الهور

وتمددت في الهور

من أجل دامكال - نونا خصص إنكي منيه

وسكبه في رحم ننخرساج ، ،

(الشواف ١٩٩٥ : ٢٩)

وبعد تسعة أيام تعادل تسعة شهور، ولدت ننخرساج بسهولة ودون ألم (كالزيت الناعم) الإلهة ننسار (سيدة الخضار والنباتات التي تؤكل). وعندما تكبر ننسار ويراها أبوها (إنكي) تتنزه على طول الهور يعجب بها ويضاجعها، ومن هنا تبدأ (خطايا انكي) حيث يتزوج ابنته وينجب منها (ننمو) (سيدة النباتات ذات الألياف) وتتكرر الحادثة مع حفيدته الحرام لينجب منها (أُتّو) Uttu الهة النسيج ، وهنا تتدخل الإلهة ننخرساج زوجته وتحذر أتّو وتقول لها بأن لا تستجيب لإغراءات آنكي اذا لم يجلب لها الفاكهة هدية، فيجلبها لها وتبدو سلسلة الآلهة المنجبة من إنكي (النبات الاخضر ، النبات الليفي، الاصباغ ، النسيج) سلسلة منطقية لتحولات الكثير من النباتات بعامة من الخضراء حيث تبقى الالياف وتعزل الاصباغ ويصنع بعد ذلك من الالياف النسيج وكل ذلك بفاعلية إنكي الذي هو الماء.

وأخيراً يضاجع (إنكي) الالهة (أتّو) فينجب منها أو من منيه (الذي تجمعه ننخرساج من حضن أُتّو، الذي تنشرهُ على الأرض) تنجب ثمانية أنواع من النباتات التي يقرر إنكي أن يعطيها اسماءً فيقوم وزيره (ايسمود) بقطع جزء من كل نبته، وعندما يتذوقها انكي يطلق على كل واحدة اسماً، ومنح الاسم هنا مباركة للنبات أوّ خلق جديد له أي منحه صفات خاصة به، وهذه النباتات هي بمثابة آلهة نباتية محرمة، وسنقدم تحليلاً مفصلاً لها (في الجّدول).

وهكذا كان هذا العمل الطائش لإنكي عندما أكل من هذه النباتات المحرمة مدعاةً لغضب ننخرساج ومغادرتها المدنية بعد أن حوّلت عنه نظرها المحيي وأصبح انكي مهدداً بالموت، وعند ذاك حزن مجمع الآلهة، لكن الثعلب ذهب الى إنليل وطلب منه مكافأة مقابل ان يستطيع اقناع ننخرساج بالعودة، فوعده إنليل ان يزرع له شجرة (كشكانو) وهي شجرة انكي المقدسة وان يصبح مشهوراً.

شكل (٣٩)
الإلهة باو بتاجٍ أوزي من أور

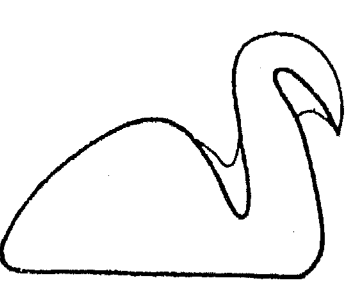

شكل (٤٠)
رمز الإلهة باو
رسم: علي محمد آل تاجر

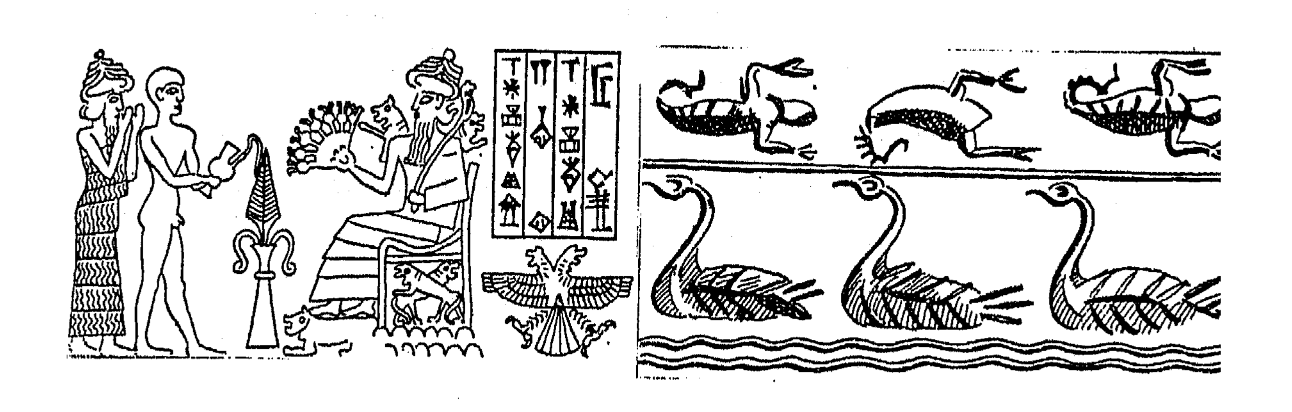

شكل (٤١)
العقارب والأوزات رموز الإلهتين أشخارا وباو

شكل (٤٢)
الإلهة باو كإلهةٍ للطب والزراعة

الإلهة بالماء العذب لانها هي التي طلبت منه أن يخرج لها الماء العذب (ماء اللج) من الأعماق ويغمر أرض دلمون ففعل ذلك بمساعدة الإله (أوتو) ويرى جيوفري بيبي ان وجود ينابيع عذبة وخاصة قرب معبد باربار في دلمون حيث تنبعث المياه العذبة للبحر السفلي للعالم الى السطح ولربما كان هذا النبع بالتحديد هو النبع الذي جعله إنكي(إله اللج) يتدفق عالياً في دلمون، حسب وصية الالهة ننسكلا ، ولربما كان الينبوع هو سبب وجود المعبد هنا على الاطلاق ، ولربما كان بئراً للدعوات (انظر بيبي ١٩٨ : ٣٥٢) .

٣) أما النبتة الثالثة نبتة الطريق فقد ادت إلى مرض في الأنف أو السن ويبدو أن احد الالهتين (ننكيري) أو (ننسوتو) قد خصصت لعلاج هذا المرض وهي التي اصبحت فيما بعد زوجة لاله الطب ننازو وسميت (ننغيردا)

٤) نبتة الماء (آنومون) أمرضت الفم ، وخلقت الالهة (ننكاسي) وهي الهة الكأس ، أي الهة الخمر والشراب التي تشبع شهوة القلب لتعالج مرض الفم، أو حاجة الفم إلى الشراب والخمرة .

٥) نبتة الشوك أمرضت الحنجرة التي خلقت لها الإلهة نازي التي يعتقد أنها الإلهة نانشة الهة السمك ومفسرة الأحلام لأن زوجها هو الإله نندرارا .

٦) النبتة ذات الأزرار (الكبر) التي أمرضت الذراع وخلقت لها الإله ، نن اوزموا ، زوجة الإله ننجشزيدا الذي نظن ان له أهمية كبيرة جداً وقديمة جداً في المثولوجيا السومرية ، ويرتبط اسمه بالاله دموزي وهو حامل التاج وسيد الشجرة الطبية ويمثله ثعبانان ملتفان على هذه الشجرة. وهذه الالهة هي ام الاله (دامو) الطفل الذي يصعد كنسغ في سيقان النباتات وله اساطير تشبه اساطير دموزي .

وربما كنت هذه الالهة (نن - اوزموا) هي مصدر الأفعى في القصة التوراتية، لانها زوجة ثعبان هو ننكشزيدا .

٧) النبتة السابعة ما زالت مجهولة الاسم ولكنها تسبب مرضاً للضلع واسمها (ننتي)، ويبني صموئيل نوح كريمر (وقبله الباحث المسماري الشهير الأب شايل) فرضية مهمة حول هذه القضية، يرى أن الكلمة السومرية (تي Ti) تعني معنيين هما (الضلع) و(الحياة أو يحيي) وبذلك يكون معني (ننتي) سيدة الضلع أو السيدة التي تحيي (حواء) ،

اما العلامة الكتابية للشمس وكان شكلها الصوري الأول هو علامة صليب أو زائد (+) واخذت في الخط المسماري السومري علامة بار على شكل الصليب اما الرمز الثاني فهو علامة الدائرة التي ظهرت منذ عصر حسونة وقد ظهرت الدائرة والصليب المالطي على شكل وردة في عصر جمدت نصر (شكل ٤٣ , ٤٤) وتحولت الدائرة (القرص) الى شكل وردة الاقحوان وظهر هذا حوالي ٤٠٠٠ ق.م والرمز الثالث هو القرص فوق سارية الذي يعود الى عصر جمدت نصر والرمز الرابع هو النجمة على عقب رمح.

الخامس هو القرص ذو النجمة الرباعية المشعة الذي ظهر منذ عصر مسليم (٢٨٠٠ ق.م) وعبد في سلالة أور الأولى.

والرمز السادس هو السيف او المنشار المسنن الذي يدل على أنه يقص الظلام.

والرمز السابع هو رمز المحراث في عصر فجر السلالات الأخير.

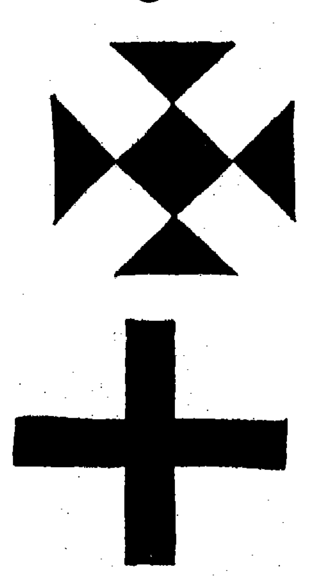

شكل (٤٣)
رموز إله الشمس نهاية الألف الخامس ق.م
رسم : علي محمد آل تاجر

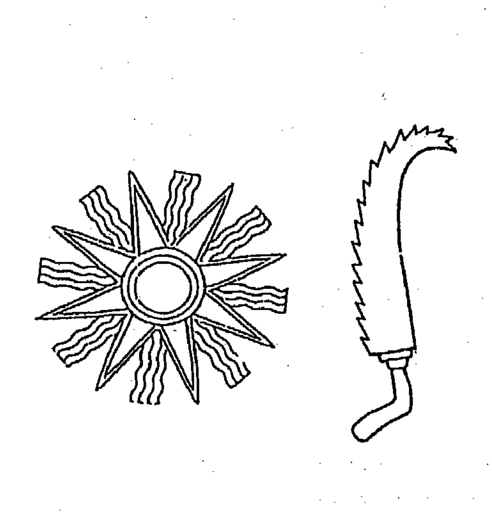

شكل (٤٤)
رمزا الإله الشمس أوتو منذ العصر الأكدي وما بعده
رسم : علي محمد آل تاجر

١ . دموزي – أبسو وهو الابن البار لمياه الاعماق أو لنقل انه الابن المرتفع من مياه الاعماق والذي يمثل المياه العذبة التي تسقي النباتات والحيوانات ، وهذا الإله هوا له مدينة كينيرشا في منطقة لكش .

ونحنُ نرى ان هذا الاله ليس هو الاله دموزي الذي دارت حوله الاساطير أو أنه أحد أشكاله المرتبطة حصراً بالمياه، وهناك من يرى أنه القوة الكامنة وراء الخصب والحياة المتجددة في المستنقعات . ولأن الرحم يمثل الاعماق التي يرقد في مياهها الجنين، فأن هذا الاله كان يعبر عنه أحيانا كإله محرك للأجنة في الأرحام . أي إله مياه الرحم العميقة .

ويرى اذزارد بأن دموزي أبسو هو « إلهة من آلهة محيط مدينة لكش والهةمدينة كنيرشا . وهذه الإلهة التي اتضح تأنيثها لا علاقة لها البتة مع دموزي، على عكس ما كان يعتقد سابقاً، وكما يشير الاسم فهي ترتبط بإله المحيطات العذبة (أبسو) وقد ورد اسمها في هذا السياق في قوائم اسماء الآلهة وفقدت أهميتها بعد العصر البابلي القديم لتضاؤل دور مدينة لكش السياسي » ، (اذزارد ١٩٨٧ : ٩٨).

٢ . سيرار : إله البحر وهو تحديداً إله الخليج العربي .

٣ . أنبيللو : وهو الاله العارف بشؤون الانهار ويمثل الاله المسؤول عن نهري دجلة والفرات، ويظهر في الثيوغونيا الإنليليلة أحد ابناء إنليل في العالم الأسفل . ويمكن ان يشير هذا إلى أخذ الأنهار مياهها من مناطق مجهولة في العالم الأسفل ترتفع فيها بشكل مستمر .

٤) ايسمود : ويسمى ايضاً الاله (اسيمو) الذي يوصف بأنه متعدد الوجوه فله أربعة وجوه أو إثنان، وهو وزير الاله إنكي والمنفذ لأوامره .

٥) ننداراً : وهو جابي البحر وزوج الالهة نانشة ونازي

٣ . آلهة النبات : وهي الآلهة التي اختصت بكل ما يخص النباتات وزراعتها وفلاحتها وثمارها وبذورها . . ولعل الاسطورة الثيوغونية السابقة وضعت الاله (آبو)ملكاً او الهاً لمملكة الآلهة النباتية .

١ . الإله آبو : وقد تحدثنا عنه .

٢ . دموزي أمّا اشموگال أنّا : وهو القوة المخصبة التي تكمن في النخيل وتسبب الطلع والخصب لها . وهو ايضاً غير دموزي الراعي الذي سنتحدث عنه لاحقاً .

٣ . أنكمدو : وهو الاله الفلاح أو إله الفلاحة .

٤ . نصابا : وهي الهة الحبوب (وربما تحديداً الشعير) وتلقب ايضاً بـ (ننشيبارغونو) التي توصف بأنها أم الالهة (سود) التي اصبحت فيما بعد ننليل زوجه الإله إنليل . وزوجها (حايا) او (هايا) إله الصوامع ، وقد اصبحت (نصابا) الهة الكتابة في سومر وكانت تسمى ايضاً ندابا واصبحت زوجة (نبو) منذ الألف الأول ق . م ومركز عبادتها في أوما واريش .

٥ . اشنان : الهة الغلّة ورمزها السنبلة

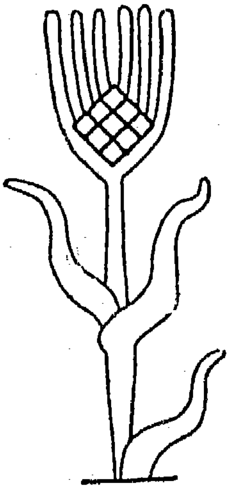

شكل (٦٣)
رمز الالهة اشنان
رسم : علي محمد آل تاجر

٦ . ننموخ : الهة الغابات

٧ . ننغيردا : وسميت ننكيري او ننسوتو وهي زوجة الإله ننازو .

٨ . گشتن – أنّا : سيدة دالية الكروم ، الهة العنب ، واخت دموزي الراعي الذي أدى به المصير الى النزول الى العالم الاسفل حيث أصبحت بديلته فبدأت تنزل مكانه إلى العالم الأسفل في الوقت الذي يخرج هو منه كل نصف عام بالتبادل ، وقد أصبحت كاتبة العالم الأسفل وسميت بالاكدية (بعله صيري) ، وهناك ما يشير إلى أنها أصبحت زوجة للإله ننگشزيدا . . الذي ما زالت علاقته غامضة بالإله دموزي .

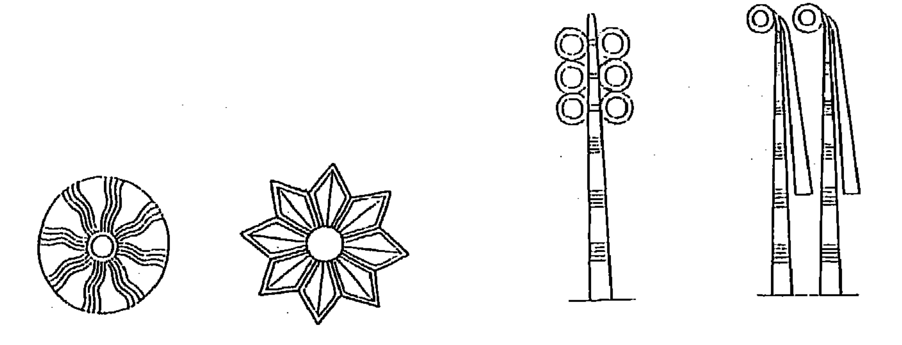

شكل (٤٥)

رموز الإلهة إنانا ١، ٢، ٣ الألف الثالث ق.م ٤. القرن ١٢ ق.م

رسم : علي محمد آل تاجر

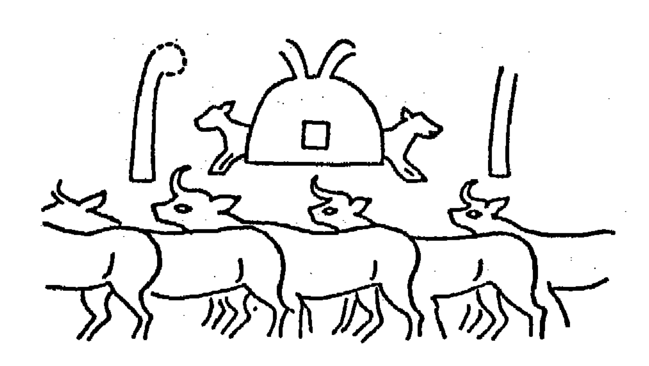

شكل (٤٦)

قطيع ثيران وعجلان يخرجان من حظيرة يحيط بها رمزا الإلهة إنانا (إنين)

فجر العصر السومري

شكل (٦٥)
الإلهة ننسون أم دموزي وكلكامش

٤ . نانشة : الهة مدينة نينا (سرغل) جنوب شرقي لگش وهي إلهة السمك وصيد الاسماك ورمزها السمكة شكل (٦٦)، وتوصف أيضاً بأنها مفسرة الأحلام. ويصفها السومريون بأنها راعية العدالة الاجتماعية وزوجها هو نيندار جابي البحر. وهناك تراتيل وأدعية كثيرة بحق هذه الالهة وكان الأمير گوديا يؤمن بها ويقدسها كل التقديس ويعتبرها أمه .

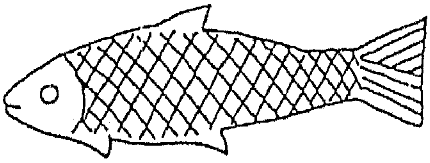

شكل (٦٦)
رمز الإلهة نانشة
رسم : علي محمد آل تاجر

٥ . ننمار Nimar: الهة مدينة (غبا) جنوب شرقي لگش وتعتبر الهة الطيور ورمزها الطير شكل (٦٧)وهي ابنة نانشة من زوجها نندار وبذلك تكون حفيدة انكي وليست ابنته .

٦ . زبابا : وهو اله (كيش) وهو اله الحرب والقتل وله علاقة بذبح الاغنام وحقولها وقد ارتفع شأنه في عصر الكيشيين ، وزوج (إنانا) المحاربة .

٧ . بليلي : وهي اخت دموزي تظهر دائماً الى جانب (كشتن أنا) وتقطن في حظيرة قطعان الماشية . وتلعب دوراً في ألقاء القبض على دموزي وتسليمه للعالم الأسفل .

٥ . آلهة العمران:

للاله إنكي ابناء كثيرون اهتموا بتفاصيل حياة المدينة والأرياف وشؤونها العمرانية ، وحقيقة الأمر أن هذا يتطابق مع طبيعة هذا الاله لانه راعي العمران على الأرض . وهو الذي امتلك نواميس الحضارة وقواها على شكل الـ (مي Me) الاّ انه بالرغم من ذلك ولد له مجموعة من الآلهة التي شكلت عصب العمران وهي :

١ . ممّو : اله الحرف والمهارات .

٢ . ننتي : الهة الشهور وراعية الزمن

٣ . إنشاج : إله دلمون واسمه ايضاً (إنزاك)

٤ . ننسكلا : إلهة دلمون ومگان (عمان)

٥ . ننكاسي : إلهة الخمرة .

٦ . كبتا : إلهة الفأس والقرميد

٧ . كولا : إلهة الطابوق وصناعته

٨ . مشدما : إله المساكن

٩ . هايا : إله الصوامع زوج نصابا

١٠ . نندوب : اله المعمار ومصمم المعابد

١١ . ننكورا : إلهة الاصباغ

٤ . نن مُكك Nin - mug

٥ . نن كونا Nin - guna

٦ . سوزي أنّا Suzianna

٧ . موسار غاباMusargaba

٨ . لولوّ : Lullu : وتعني الاله الضعيف أو الاله الميت والمقصود به الانسان ، وهذه الكلمة مستعارة من المقاطع السومرية Lu- ux- Lu التي تعني حرفياً (الإنسان البعيد أو السحيق) أو (الانسان الاول) أو (الانسان المتوحش والبدائي) . اما الكلمة السومرية (لو Lu) فإنها تدل على الإنسان العادي أو البشر المعروف ومرادفتها الاكدية Awelu التي ترتبط باسم الاله وي – ايلا We - ila ومعناه الحرفي (الاله الذي كانت له شخصية) الذي ذبح وصنع من لحمه ودمه مع الطين الانسان وهذه اسطورة أكدية .

ويبدو لنا الانسان الذي خلقه أو صنعه إنكي في بداية أمره أو الذي صنعته ننخرساج ناقصاً مشوها ، لكنه أصبح فيما بعد بشراً عادياً منحه إنكي الحكمة ثم منحه الملوكية واعطاه نواميس الحضارة .

إن كون الإنسان ابناً أو مخلوقاً من مخلوقات الاله أمرٌ متعارف عليه في المثولوجيا السومرية ومثولوجيات الامم الأخرى ولكنه مخلوق أو إله ضعيف ، ومحكوم عليه بالموت وسنناقش ذلك تفصيلياً في أساطير خلق الانسان .

إن شجرة الآلهة السومرية ثيوغونياً اعطتنا اكثر من ايحاء أو نتيجة منها أن أغلب ذكور سلالة انليل تزوجوا من أغلب اناث سلالة انكي سواء من بناته او حفيّداته ، حتى ان انليل نفسه تزوج من حفيدة انكي (سود) التي أصبحت الزوجة الوحيدة للإله إنليل والتي أنجبت كل سلالته القوية .

ويبدو أن هذا هو العرف السائد عند الآلهة ، الاّ أن حالةً واحدةً شذت عن هذا وهي أن دموزي إبن الإله إنكي تزوج من إنانا حفيدة الإله إنليل وهذا لا يجوز كما يبدو ، ولذلك اخترعت اسطورة موت دموزي الذي كان لا بد ان يعاقب ضمناً على هذا السلوك او هذا المصير والذي انتهت حياته إلى العالم الأسفل .

العالم العظيم هي التي سادت منذ العصور السومرية، والمقصود بالعالم العظيم هو (العالم الأسفل) وهناك عدة ألقاب لهذه الإلهة هي (اللاتو، أركالا، لاز، ماميتم) واغلب هذه الألقاب أكدية. ولنتأمل في كلمة (اللاتو) التي هي مصدر الالهة العربية التي سادت منذ عصر الانباط وهي (اللات) وهناك ألقاب سومرية لها مثل (ابزيكرا، ننكردا) (انظر حنون ١٩٨٦ : ١٨٩).

ويبدو أن هناك كثير من الأساطير السومرية المفقودة حول حياة (أرشكيگال) وولادتها وأزواجها وأبنائها.. فعلى سبيل المثال انها عندما تذكر تحت لقب (ننكردا) كانت تعتبر إبنةً للاله إنكي وزوجةً للإله (ننازو)،

ولكننا في حقيقة الامر نعرف انها إبنة (نانا)، أما (ننازو) الذي هو زوج ارشكيگال عندما ادعت انانا في أسطورة نزولها إلى العالم الاسفل انها ذاهبةٌ إلى مأتمه.

إن الزوج الثابت والحقيقي لها هو الإله (نرگال) الذي (حسب الاساطير السومرية) ولد من إنليل وننليل بديلاً عن الإله القمر ليعيش في العالم الاسفل.

وكانت الإلهة أرشكيگال تُعبد اساساً في مدينة (كوثي) مع زوجها في معبده المسمى (إي - مسلام).

وللإلهين أبناءٌ يعدّون من آلهة العالم الاسفل، وهم على الأكثر ثلاثة سنذكرهم لاحقاً (ننازو، نمتار، خيندرساك) ولكنهما محاطان بمجموعة كبيرة من الآلهة الثانوية التي تقوم بواجباتها المقررة لها في العالم الاسفل. وتعتبر هذه الآلهة الثانوية بمثابة الآلهة المسيطرة على عالم كبير من الشياطين والجن التي تسكن العالم الأسفل سنذكرها لاحقاً، إضافةً إلى جيوش من أرواح الموتى المصنفة حسب درجات دفنها ومالها من أبناء على وجه الأرض.

والعالم الأسفل السومري، ثم البابلي لاحقاً، لم يمثل ما اصطلح عليه بالجحيم بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، بل هو عالمٌ له مواصفاته الخاصة، ولذلك لا نفضل مطلقاً إطلاق صفة الجحيم على هذا العالم لما يحمل الجحيم من مدولات اخرى. ولنلاحظ ان أسماء العالم الاسفل لا تدل على شيء اسمه الجحيم ومن هذه الأسماء السومرية حصراً هي (كي ماخ : الارض العظيمة) أو (كي گال : الأرض العظيمة) وأرلي، وقد استعمل

العمق الفيزياوي والبايولوجي للمثولوجيا السومرية

قبل ان نتتهي من تتبع شجرة الآلهة السومرية والأساطير المرتبطة بها، التي ذكرناها والتي سنذكرها، لا بد لنا من فحص العمق الفيزياوي والبايولوجي الذي يكمن خلف هذه المثولوجيا وخلق تسلسل الآلهة فيها.

لو اننا حورلنا تلك الشجرةا لالهية الوارفة الى مفردات طبيعية دون ذكر اسماء الآلهة لنتج لنا هذا العمق الفيزياوي والبايولوجي والفكري كما في المخطط (٩).

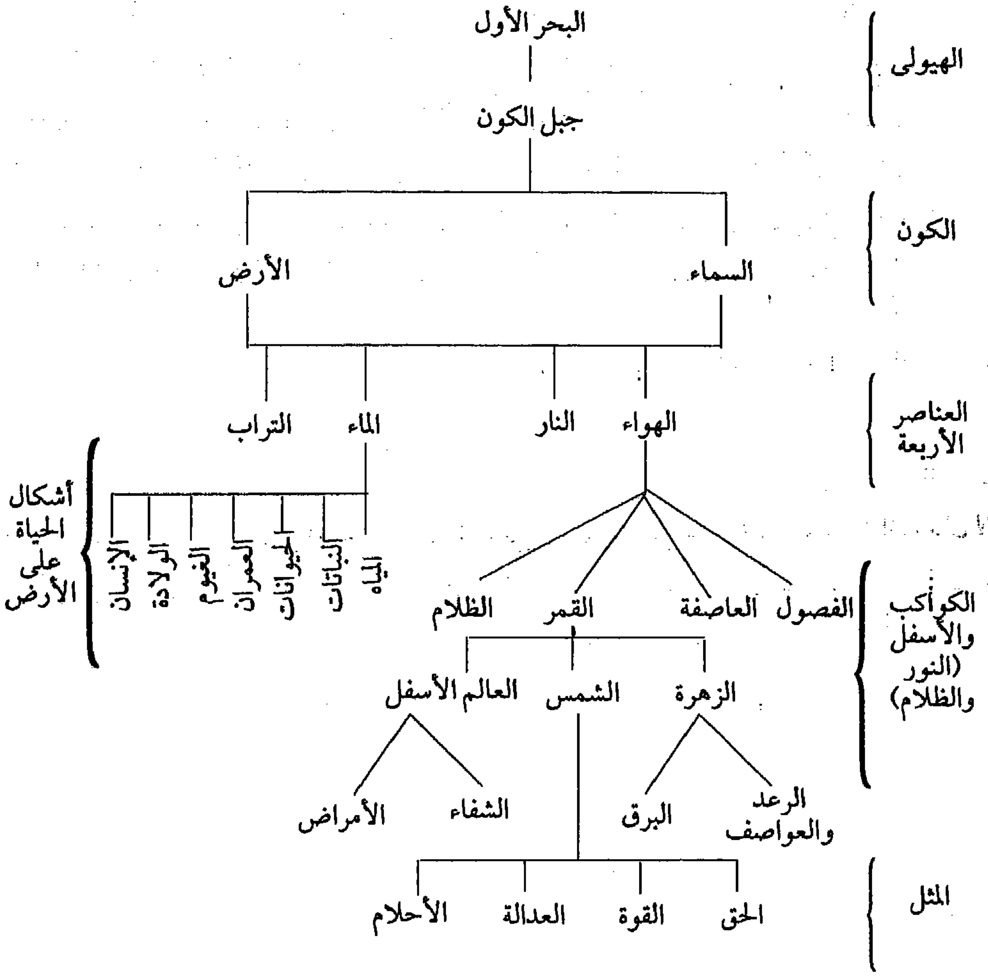

مخطط (٩) العمق الفيزياوي والبايولوجي لشجرة الآلهة السومرية

أصبح من الواضح أن الهيولى الأولى أنتجت الكون الذي كان غير مميز إلى سماء وأرض ، ثم ظهر الهواء الذي فصل بين الأرض والسماء ونتج عن ذلك ايضاً ظهور المياه على الأرض باعتبارها المادة الذكورية السماوية .

وبذلك ظهرت العناصر الأربعة (الهواء والنار والماء والتراب) من السماء والأرض، وسيطر على الكون بشكل اساس عنصر الهواء ومعه النار ونتج عنه عوالم الكواكب والظلام .

أما الأرض فسيطر عليها عنصر الماء الذي ظهرت منه اشكال الحياة بمختلف ألوانها النباتية والحيوانية والبشرية ثم ظهرت أدوات ونواميس العمران على الأرض .

إن ما تدفع به الطبيعة من كوراث وفيضانات وزلازل وعواصف وأمراض سببها سلالة انليل . وإن ما تحاول أن تصلحه الطبيعة وتحييه وتصد الكوارث عنه صار من حصة سلالة إنكي .

وعلى ضوء الذي تحدد نقول بأن ظهور الاسطورة الشعبية السومرية (دموزي وإنانا) كما قلنا هو لقاءٌ بين نسلين متعارضين لا نفترض ان يحصل بهذه الطريقة ، فلو أن إنانا تزوجت اخاً لها أو من نسل إنليل ، ولو أن دموزي تزوج من إحدى بنات إنكي لما كان قد حصل كل هذا الذي حصل بين دموزي وإنانا .

إن أنانا التي ظهرت من نسل إنليل الهوائي المتقلب الذي فيه ما يقود الى العالم الأسفل هي غير دموزي المنحدر من نسل مائي مخصب حي ومخضّر ، وهذا اللقاء كان لا بد أن تنتج عنه دورة صراع أزلية . . أو أوربوس ينغلق وينفتح بين إنليل وانكي ، الهواء والماء ، إنه صراعٌ بالنيابية بين أخوين متضادين وتكمن خلف هذا الصراع اسرارٌ عميقة يعبر عنها بصراع الموت والحياة وهذا في رأينا أول بذور فكرة العود الأبدي .

مصطلح أبسو ليدل أحياناً على العالم السفلي والأرض الفسيحة (كي - گال دامال) وأرض اللاعودة (كرنوكي) والأرض الحصينة (كي باد) . . الخ

وتسكن الإلهة أرشكيگال في قصر عظيم يقع خلف الأسوار السبعة التي تحيط بالعالم الأسفل والتي لكل منها باب كبير، وهذا القصر مشيد بحجر اللازورد ويسمى بالسومرية (قصر العدالة (إيگال گينا) ، ويبدو أن هناك قصوراً صغيرة أخرى للملوك والكهان والآلهة الأخرى، أما جو العالم الاسفل فهو جو مليء بالغبار الذي يغطي كل شيء فيه وليس النار (كما هو حال الجحيم)، فالغبار الترابي هو جو العالم الاسفل ، مثلما الماء جو الأبسو والهواء جو الأرض .

ويرمز للعالم الأسفل بجبل يبدو كأنه مجموعة من الجبال الصغيرة (شكل ٥٠) أما رمز الإله نرگال فقد ظهر متأخراً على شكل كلب مجنّحٍ وهو يحمل هراوة افعوانية مزدوجة (شكل ٣٣) .

ونرى أن الصورة الخاصة بالإلهة أرشكيگال هي تلك الصورة التي تظهر فيها إمرأة مجنحة عارية تلبسُ تاجاً مقرناً وتمسك بيدها رمزيّ السلطة (العصا والحلقة) وتقف على لبوتين بجانبهما بومتين (دلالة الليل) وتحتهم رمز العالم الأسفل على شكل جبال صغيرة (شكل ٥١) .

(٤) نوموشدا : إله سومري ورد ذكره في قوائم أسماءالآلهة المكتشفة في فارا، وهو إله محلي لمدينة (كازالو) في اواسط بلاد بابل وابن إله القمر . ولم يعرف مجال عمله بعد (انظر اذزارد ١٩٨٧ :١٣٦) .

الجيل الثالث من الشجرة الانليلية

١. أبناء اوتو (الشمس)

للاله السومري أوتو ستة أولادٍ هم : (انظر عبد الرحمن ١٩٧٥ : ٥٥)

١ . بونينة BUNENE ويعتبر وزيراً له وسائق عربته .

٢ . خارHAR فيعتبر الهاً مسؤولاً عن الحيوانات البرية .

امي : المخلوق الذي إوجدته ، إربطي به عمل الآلهة .

وبعد ان تخلطي الطين الذي تأخذينهُ من مياه الأبسو

عليك ان تصبغي الـ . . والطين وتكوني المخلوق (الإنسان)

وعسى أن تساعدك في ذلك الإلهة ننماخ)

(رشيد ١٩٨١ : ١٩).

بعد أن قرر الإله إنكي شكل الإنسان وطبيعته وأعطاه في داخله شيئاً من حكمته، ترك أمر ولادته لننماخ وإلهات الولادة السبع وهنّ (نن إيما، نن مادا، نن بارا، نن موكك، نن كونا، سوزي أنّا، موسار غابا) واللائي يساعدن ننماخ في استيلاده ، من هذا الوصف يظهر الإنسان ويقرر إنكي شكله وطبيعته وروحه ثم يزرعهُ في رحم إحدى الالهات (ربما ننماخ) ثم يولد منها بمساعدة إلهات الولادة. بعدها تقرر (نمّو) مصيره، أما ننماخ فتقرر العمل الذي سيقوم به من أجل الآلهة .

ثم يقيم الإله إنكي حفلة للآلهة ليريهم كيفية ولادة المخلوق الجديد (الانسان) فتقوم الإلهة (نمّو) بصنع القالب الأولي له، ثم تأخذ الالهة ننماخ الصلصال من مياه الأبسو (بعد ان تكون هي وإنكي قد شربا خمراً كثيراً) وتشكله وتولده . . ويبدو انها صنعت ستةأنواع من الإنسان كلهم يعانون من ضعفٍ أو مرض، لكن إنكي يقرر لكل منهم مصيراً وهؤلاء البشر الأوائل هم :

١ . الإنسان المتصلب المفاصل : يدخله إنكي في خدمة الملك

٢ . الإنسان الأعمى : يجعله إنكي مغنياً، ومنشداً للملك

٣ . الإنسان المشلول الساقين : يجعله إنكي بهياً خارقاً للطبيعة .

٤ . الانسان الذي لا يستطيع الاحتفاظ بمنيه : يغسله ويعوذّه إنكي فيشفى .

٥ . الانسان المرأة العاقر : يعيّنها إنكي في بيت الحريم

٦ . الإنسان الذي لا قضيب له ولا فرج : سمّاه إنليل - كيگال) ليبقى تحت تصرف الملك .

توضح لنا هذه الاسطورة قدرة الاله إنكي على صنع الإنسان العادي المعافى دون ان تبين طريقة صنعه، ثم تبين كيف أن ننماخ صنعت ستة انواع من البشر العاجزين واستطاع إنكي تعيين وظائف لهم وشفاء بعضهم . . لكن ننماخ فشلت في مساعدة مخلوق إنكي الذي تعمد في جعله عاجزاً.

ومن جانب آخر توحي لنا هذه الاسطورة ان الانسان الاول كان مريضاً مشوباً بالكثير من الاخطاء الجسدية والعاهات التي لولا إنكي لما استطاع هذا الانسان أن يشق طريقَهُ في الحياة.

كما أنها توضّح إلى حد ما أن الإنسان صنع من قبل إنكي ولكنه ولد من قبل إلهة وساعدت على ولادته سبع إلهات ولادة .

وهذه اشارة مفيدة جداً لأن الانسان يعتبر في هذه الاسطورة إبناً للإله أو الإلهة ولكنه ابن ضعيف عاجز محكوم عليه بالموت . . كما أن واجبه هو خدمة الآلهة وتنفيذ أوامرهم وليس العيش معهم ومشاركته لصفاتهم .

٢. الأنثروغونيا النباتية (حشيش انليل)

في هذه الاسطورة نلمح منحىً مختلفاً عن الاسطورة السابقة حيث يقوم الإله إنليل بوضع بدايات البشرية (أي بذورها) في شقوق الأرض وبعدها بدأ البشر يظهرون من هذه الشقوق مثل الحشيش .

إن فكرة هذه الاسطورة السومرية التي ترجع الخلق البشري الى الإله انليل وليس انكي لا تتفق مع ما قررناه من وظائف انليل وانكي ولذلك نرى انها ترجع إلى أصل بعيد لم تكن فيه العقيدة الدينية والمثولوجيا قد وضعت علي أسس سومرية دقيقة. وحقيقة الأمر أنها تعود الى مكان بعيد وزمان بعيد، أي إلى حوالي ٥٠٠٠ ق.م عندما كان أجداد السومريين في القسم الشمالي من وادي الرفدين وفي مناطق سامراء والمحيطة بها مثل تل الصوان، حيث كان الانسان العراقي القديم يمارس الزراعة الديمية معتمداً على الأمطار وكان ظهور النباتات كالحشائش منظره الدائم، وفي هذه المرحلة ظهرت بدايات الإله الذكر متمثلاً بالهواء وهو ما يقابل الإله (إنليل) الذي يحرك المطر ويتحكم به. وفيما يلي هذا المقطع من الاسطورة المسماة باسطورة المعول:

وقد كان للاله (إشكر)زوجة نارية الطبيعة هي الالهة شالا (شلش)وتسمى (أم جرو) وتوصف بأنها إلهة النار.

وكان الإله (إشكر) يوصف بأنه (القفل الفضي القلب السماء) أي المسؤول عن غزارة الأمطار.

٣. أبناء أرشكيكال ونركال (آلهة العالم الأسفل)

هناك اختلافٌ كبيرٌ حول أبناء أرشكيگال الذين ربما أتو من عدة آلهة كما ذكرنا سابقاً، الاّ أن الإله الرئيس هو نرگال، وهناك من يعتبر أن كل شياطين العالم الأسفل وآلهته هم أبناء هذه الإلهة وزوجها أو أزواجها، وقد استطعنا التثبيت تماماً من وجود ثلاثة آلهة رئيسيين لارشكيگال ونرگال، أما البقية فهم آلهةٌ ثانويون ذوي طبيعة شيطانية أو عفاريت عاديين سنناقشهم فيما بعد، اما ابناؤهمافهم :

١- **ننازو** (السيد الطبيب): وقد ذكر سابقاً على أنه إبن إنليل وننليل، ولكنه يوصف بكثرة على أنه ابن أرشكيگال (وربما وصف كزوج لها) وقد سمّى جاكوبسن ننازو ونسله آلهة البساتين وهم جميعهم آلهة العالم السفلي. الاله ننازو إله مدينة (أينجر) وتقع بين لارسا وأور. وكذلك كان إله مدينة أشنونا (تل أسمر) في منطقة ديالى. ومعني اسمه العارف بالماء أو سيد العارفين بالماء، وهؤلاء هم الاطباء فهو إله الطب الذي يأتي بالمرتبة الثانية بعد الاله إنكي في هذا المجال. وتسمى زوجته (ننگيردا Ningirda) وهي إلهة نباتية من بنات آنكي. وقد انجبا الإله ننكشزيدا.

٢- **ننكشزيدا Ningishzida**: إبن ننازو وننگيردا، وإله مدينة كشباندا، ويوصف بأنه قوة العالم الآخر أو طاقة العالم الأسفل (طاقة ما تحت الأرض) حيث يسمى بـ (حامل العرش أو التاج). ويمتلك شجرةً الهية تسمى (الشجرة أو التاج). ويمتلك شجرة الهية تسمى (الشجرة المنتجة العظمى)، وربما كان هذا الاله إله (لفيفة جذور الشجرة). لقد كان في الاصل يجسد على شكل أفعى، ولذلك فرن رمزه يتضمن الأفعى والشجرة ويظهر على شكل إفعوانين ملتفين على غصن شجرة، وقد كان هذا الشكل جذر الرمز الطبي اليوناني للإله اسكلابيوس زوجة إله الطب وربما كان ننكشزيدا إله الطب بسبب كونه ابن (ننازو) إله الطب، وعندما كان ننكشزيدا يجسد على شكل إنسان، فهناك ثلاثة رؤوس تظهر من كتفية اثنان على شكل افعى والآخر على شكل انسان وكان يركب التنين. (شكل ٥٤, ٥٥)

ومعها الانسان حيث ذهب معها ، لقد كان الآلهة قد خلقوا الماشية والغلّة وخلقوا معها الإنسان . . ووجدوا أن الآلهة ما زالوا يتعبون في نيل طعامهم وشرابهم ، ولذلك أنزلوا الماشية والغلة والانسان الى الأرض لكي يعمل الإنسان على الاستفادة منها ويفيد معه الآلهة التي تريد من يخدمها .

اوضحت الاسطورة كيف ان الانسان كان حيواناً يمشي على أربعة اطراف ولا يأكل الخبز لانه لا يعرف كيفية صناعته ، وهو عار لانه لايعرف الملابس، وغذاؤه الحشيش كالحيوان ويشرب الماء من القنوات بينما النعجة تأكل الشعير وتشرب الماء اللذيذ ولكنها لا تشبع أو ترتوي ، ولذلك نزلوا الى الأرض ليعلمّوا الإنسان هذه الامور ويجعلونه يقوم بها بدلاً من الآلهة .

٤ . الأنثربوغونيا الالهية (اسطورة الآلهة لمكا)

تعد هذه الاسطورة من اكثر الأساطير التي شاعت في تراث العالم القديم فهي تنفرد بقدم فكرتها التي تؤكد ان الانسان مخلوق من دم الآلهة المذبوحة (لمكا) وهي آلهة العمل ، وسنجد صداها في اساطير بابلية مماثلة . وتعرف هذه الاسطورة في مجال الدراسات المسمارية (KAR_4 - Mythos) وهذه مقاطع منها :

((جلست الآلهة آنو ، انليل ، أوتو ، وإنكي

الآلهة العظيمة والأنونا . الآلهة العظيمة على الكرسي العالي

ذي الرهبة المخيفة ، واخذوا يتحدثون مع بعضهم :

بعد أن وضعت الآلهة قواعد السماء والأرض

بعد أن نظمت الجداول والقنوات . وثبتت شواطيء دجلة والفرات

عندما قال الإله إنليل لهم : ماذا تريدون أن نعمل الآن ؟

ماذا تريدون أن نخلق الآن ايتها الانونا ، الآلهة العظيمة ؟

ماذا تريدون أن نعمل الآن ؟ ماذا تريدون أن نخلق الآن ؟

الآلهة العظيمة التي كانت موجودة ، وآلهة الأنونا ، التي تقرر المصير

قد أجابوا سويةً على سؤال الاله إنليل .

في أوزموا -من منطقة دورانكي-

نريد ان نذبح آلهة -لمكا -

حتى تسبب دماؤها في ظهور البشرية

وحتى واجبات عمل الآلهة تصبح واجباتها

وعليها (أي البشرية) أن تعمل إلى الأبد على تثبيت قنوات الحدود

وأن تصنع في يدها المعول وسلة العمل ، ،

(رشيد ١٩٨١ : ١٩).

ويعتقد أن لهذه الاسطورة جذوراً أكدية ، ولكنّ السومريين الجدد بعد أكدهم الذين تداولوها .

٥. الأنثربوغونيا اللوغوسية (اسطورة الاسم)

كانت (الكلمة) مصدر خلق عند السومريين وكان اطلاق كلمة الخلق بمثابة الخلق نفسه، ومن أبرز صفات الكلمة إطلاق الإسم على الأشياء، وكان ذلك يعني أن إطلاق الاسم على الشيء أو تسميته يعني خلقاً له وظهوراً له . وقد خلق الكون بتسمية السماء ثم الأرض، وخلق الانسان بعد أن تعين اسمه، وتم تقسيم العمل بالكلمة الآمره الناطقة ولنقرأ هذا المقطع من قصة كلكامش وانكيدو والعالم الأسفل السومرية :

« بعد ان تم إبعاد السماء عن الأرض

بعد أن فصلت الأرض عن السماء

بعد أن حمل (آن) السماء

بعد أن حمل (إنليل) الأرض ، ،

(تيزيني : ٢٣٦).

إن الأسم والكلمة هنا خالقتان وتعبران عن خلق الإنسان وهو ما سنجد صداه في

الأساطير العبرية والتراث التوراتي (وقال الله ليكن نورٌ فكان نور) والتراث الإنجيلي (في البدء كان الكلمة وكان عند الله، وكان الكلمة الله).

إن كلمة إنليل، وكلمة إنكي اللتان تعبران عن نفسيهما بالمنيّ وهو مادة الخلق تؤشران البعد المادي الجنسي وراء مفهوم فكري لاهوتي كبير هو اللوغوس، ويبدو أن الانسان في المعتقدات السومرية خلق عن طريق تعيين اسمه بالكلمة من قبل أحد الإلهين (إنليل) و(إنكي). «أما صيغة المجهول التي يتم بها هذا العمل فهي ذات أهمية خاصة في اللاهوت القديم الذي يعتبر الاله فيه مدبراً للموجودات، وليس متجبراً مطلق الحرية. وهذه الصفة هي التي وصلت إلى الاغريق تحت لفظة (تايوس) وهكذا يكون الآلهة انفسهم قد وجودا بتميّز واحدهم عن الآخر بحدودهم ووظائفهم وتميز مملكاتهم، كما وجد الانسان بتعيين اسم له، أي بتسميته،، (الحوراني ١٩٧٨: ١٣٣).

الشياطين والجن والكائنات الخرافية السومرية

يتكوّن عالم الأرواح السومرية (من غير الآلهة) من الشياطين والجن والكائنات الخرافية التي تسكن العوالم السفلى والعليا والأرضية حسب طبيعتها وهي كما يلي:

١. **الشياطين** : وهم سكنة العالم الأسفل ويصنفون كما يلي :

أ- الشياطين المنحدرون من أصل سماوي وهم (ذرية الاله أن وانليل)

ب- الشياطين المنحدرون من آلهة العالم الأسفل وهم أبناء كور وأبناء أتمي شراً (السبيتو) بعضهم صالح وبعضهم شرير .

ج- الشياطين المنحدرون من أصل بشري وهم ارواح او اشباح الموتى واسمهم بالسومرية (گدم Gidim) وهي مركبة من مقطعين وتعني مخلوقات الظلام، وقد حذف الحرف الأول منها فأصبحت فيما بعد (ادم Idim) أو (ايدمEdim)

د- الشياطين المركبة من تزاوج البشر والشياطين مثل ليليث وهي الشيطانة التي تطارد الرجال . وتسمى بالسومرية (لوليلا) التي معنى اسمها رجل الريح ومؤنثة (كسيكيل ليلا) ويعني فتاة الريح وهو (ليلو) و (ليلتو) التي هي ليليت باللغة العبرية ، وتسمى أيضاً أردات ليلى وتشير إلى الليل .

هـ- كبار شياطين العالم الأسفل وهم :

١ - خمط تبال وهو ملاح العالم الاسفل

٢ . حجاب العالم الأسفل السبعة واشهرهم (نيدو) الذي له رأس اسد ويدي رجلي طائر .

٣ . الاوتوكو الاشرار السبعة .

٤ . شلاك : له جسم أسد منتصب على قدميه الخلفيتين .

٥ . ممو - لمنو : له رأسان أحدهما رأس أسد .

٦ . لوكال - سولا (بيتو ، آتو) : معنى اسمه ملك الذهاب

٧ . أنمل : ورد في قصة گلگامش والعالم الأسفل السومرية . وله زوجة .

هو الذي خلق العمل وقدّر المصير

إن فأسه من الذهب ورأسها من جحر اللازورد

فأس بيته . . من الفضة والذهب

فأسه التي . . هي من حجر اللازورد ، ،

(كريمر ١٩٧١ : ٨١).

ثم يخصص النص ذكره للناس من ذوي الرؤوس السود (أي السومريين) وكيف ان إنليل خصهم بالفأس ووضع الفأس هدية في أرضهم، وبعد ذلك تنتهي القصيدة بذكر فوائد الفأس :

«الفأس والسلة تبني المدن .

الدار الثابتة الأركان بنتها الفأس .

الدار الثابتة الأركان انشأتها الفأس .

الدار الثابتة الأركان هي التي سببت الإزدهار

الدار التي ثارت ضد الملك

الدار التي لا تستسلم لملكها

الفأس يجعلها تستسلم للملك

للرديء . . النبات تحطم الرأس

تجتث الجذور، تسقط على التاج

الفأس تطعن . . النبات

الفأس قرر مصيرها الأب (انليل)

المجد للفأس»

(كريمر : ١٩٧١ : ٨٤).

يرسي إله القمر مركبه ويقول لبواب إنليل أن يفتح بيت إنليل .

«البواب ، بمنتهى السرور ، فتح الباب

الجني الحارس الذي خلق الاشجار، فتح الباب بكل سرور

ويلتقي الإله نانا مع أبيه ويفرحان، ثم يطلب نانا من أبيه مجموعة من الأمور فيقوم الإله إنليل بتقديمها .

« في النهر أعطاه فيضاً من الماء

في الحقل أعطاه المزيد من القمح

في الأهوار أعطاه العشب والقصب

في الغابة أعطاه . .

في السهل أعطاه . .

في بستان النخيل وفي مزرعة العنب أعطاه العسل والشراب

في القصر أعطاه عمراً مديداً، ،

(كرير ١٩٧١ : ٧٧).

بعدها يعود إنانا إلى مدينة (أور) حاملاً كل هذه العطايا . . ويتعزز مركز اور بعد هذه الزيارة .

٠٣ إيميش واينتين (الصيف والشتاء)

تعتبُر هذه الأسطورة اسطورة تنظيم للفصول، الآ انها في الوقت نفسه اسطورة صراع بين أخوين تذكّر بالصراع بين قابيل وهابيل في العهد القديم . . والاختلاف الوحيد بينهما انها تنتهي بالمصالحة لا بالقتل .

ويسمّى ايميش الذي هو الصيف براعي الآلهة، أما اينتين (الشتاء) فيسمى بفلاح الآلهة . فهي اذ تعبر عن فصلين لكنها تخفي الصراع بين الفلاحة والرعي . وتنتهي بان يفضل إنليل الشتاء والفلاحة على الصيف والرعي .

١. لاما الأنثى (لاماسو)

٢. أدو الذكر : شيدو

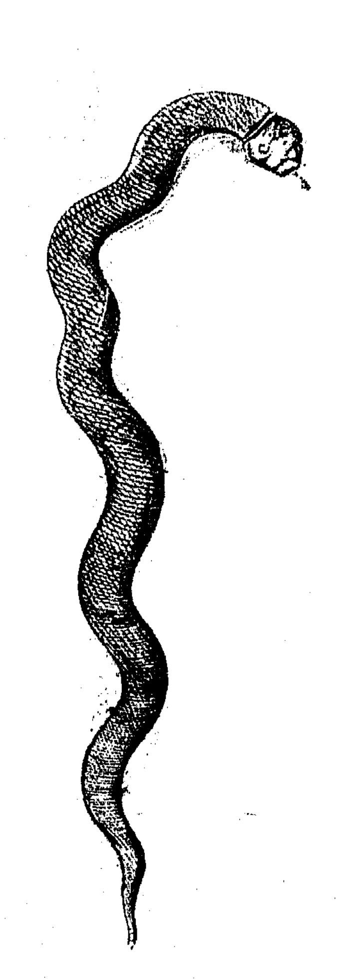

٣. نيراح (نيراه) الثعبان
الحامي للبشر والحدود

شكل (٥٨)
الجن الطيبة (الآلهة الحامية)

«من أجل (أشنان) أسس داراً

الفدان والمحراث قدّماه له

(لاهار) يقف في زريبته

هو الراعي الذي يكثر العطاء في هذه الزريبة

(أشنان) تقف ما بين الغلة

إنها لعذراء ومعطاءة»

(كرير ١٩٧١ : ٨٤).

ويبدو أن عطاء هذين الإلهين يزداد ويتضاعف وكانا يجلبا الخير العميم لمجمع الآلهة . ولكنهما كانا يحتسيان المزيد من النبيذ ويختصمان في الحقول والمزارع ويفخر كلّ منهما على الآخر يذّمان بعضهما . واخيراً يتدخل (إنليل) و(إنكي) لفض النزاع بينهما ويعلنان أن الآلهة (أشنان) إلهة الحبوب والزراعة هي التي تتفوق على الإلهة النعجة (لاهار) . وفي هذه الاسطورة ما يدل على أسبقية الحبوب والغلة على النعجة التي تعتاش عليها . .

وتعتبر هذه الاسطورة من ادب المناظرات (الأدمندوگا) ايضاً ، لكن أهميتها تكمن في اشارتها إلى أن الإنسان كان في تلك الازمان القديمة حيواناً يشبه الخراف . . وهي بذلك تعطي فكرة عن خلقه القديم .

ب. أساطير تنظيم الكون المرتبطة بالإله إنكي

ربما نجد في طيات القصائد والمدائح الكثير مما يشير الى وظائف إنكي ومهماته وتنظيمه للحياة على الأرض ، ولكننا سنقتصر الآن على تحليل اسطورتين هامتين تخص تنظيم الحياة على الأرض لإنكي هما تنظيم سومر وترتيله أريدو .

١. تنظيم سومر

هذه الاسطورة مكونة من جزء مهشم يبلغ حوالي ١٠٠ سطر لا نعرف عنه شيئاً سوى بعض السطور التي تصف قدرة إنكي الخصبية :

((عندما يقوم إنكي الموقر ، باجتياز الأرض المبذورة

تنتج (هذه الأرض) حبوبها بكثرة

عندما يزور (نوديمود) نعاجنا الحوامل

تلد عندئذ الحملان السمان

عندما يأتي لزيارة بقراتنا الخصيبة ،

تلد (عندئذ) العجول الممتلئة الجسم !

عندما يأتي لزيارة حقولنا وأريافنا

يجعل الحبّ يتجمع أكواماً وأكداساً على

السهل المرتفع .

وحين تقترب منها ، ولو قليلاً

فإن الاماكن الأكثر جدباً في البلاد

(تتحول الى مراعٍ مخضوضرة) .

(الشواف ١٩٩٦ : ٧٣)

ثم تمضي الأسطورة بوصف مكارم إنكي الذي يسمى هنا احياناً (نوديمود) وهو لقب يعني (الماهر الصنع والخلق) . . حتى تصل الأسطورة الى سومر فيقرر إنكي مصيرها على النحو التالي :

يا سومر ! أيها البلد االعظيم، يا اعظم بلدٍ في العالم

لقد غمرتك الأضواء المستديمة، والناس من مشرق الشمس

إلى مغربها، هم طوع شرائعك المقدسة

إن شرائعك سامية لا يمكن إدراكها

وقلبك عميق لا يمكن سبر اغواره

إن . . كالسماء لا يمكن بلوغها

الملك الذي تلده يزين نفسه بالحلي الدائمية

الرب الذي تلده يضع التاج على الرأس

ربك هو ربٌ معظم، مع (آن) يجلس في المكان المقدس في السماء

الملك هو الجبل العظيم، هو الأب (إنليل)

وهو مثل . . أب البلدان جميعها

الأنوناكي، الآلهة العظام

في وسطك اتخذوا محل سكناهم

في بستانك الكبير، يأكلون طعامهم

إيه يا دار سومر! عسى ان تكثر اسطبلاتك ! عسى ان تكثر بقارك

عسى ان تزداد زرائبك ! عسى أن تكثر أغنامك بحيث لا يمكن أن تعد ولا تحصى» .

(كريمر ١٩٧١ : ١٠١).

وتبدو لنا هذه الأسطورة . . اسطورة نموذجية لتنظيم الكون، ففي بدايتها نظّم إنكي الحياة على الأرض كلها ثم على سومر ثم على اور التي هي بمثابة واحدة من اكبر مدن سومر، ثم إن هناك اشارة توحيدية مع انها تشير الى التفريد في نفس الوقت .

«ربك هو ربٌ عظيم» والمقصود به طبعاً هو انليل رب سومر الاول لكن هذا الرب يجلس مع (آن) الذي هو رب العالم كله في المكان المقدس في السماء .

ولذلك نود أن نعيد القاء ضوء جديد على علاقة (آن) ب (إنليل) فالمسألة لا تتعلق بسيطرة الإبن إنليل على سلطات آن وظهوره كرب قوي، بل يبدو من هذه الاشارة وغيرها أن الإله (آن) اصبح يشير عند الكهنة ورجال الدين في سومر الى أنه ربٌ عالمي بدليل ان علامته (دنكر) اصبحت رمزاً لكل اله) أو لمن يراد له أن يكون إلهاً وهكذا أبعد هذا الاله الكوني من المهمات العملية المباشرة التي تخص سومر وأصبح الإله (إنليل) هو الذي يقوم بها وهو إله قومي سومري، أي اننا امام حالة توحيد monotheism يمثلها (ان) وحالة تفريد Henotheism يمثلها (انليل) .

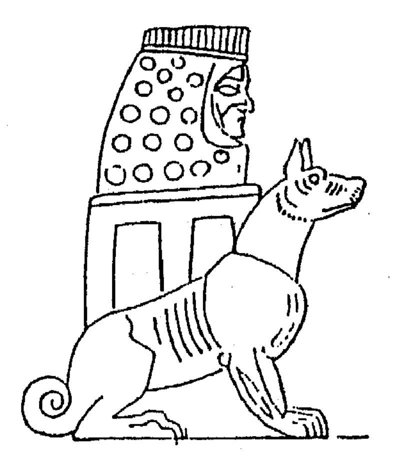

١. الإنسان الكلب
(كولا)

٢. الإنسان الطير

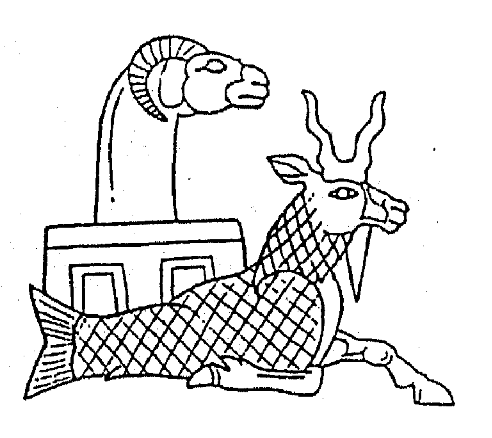

٧. الماعز السمكة
(سوخورمش)

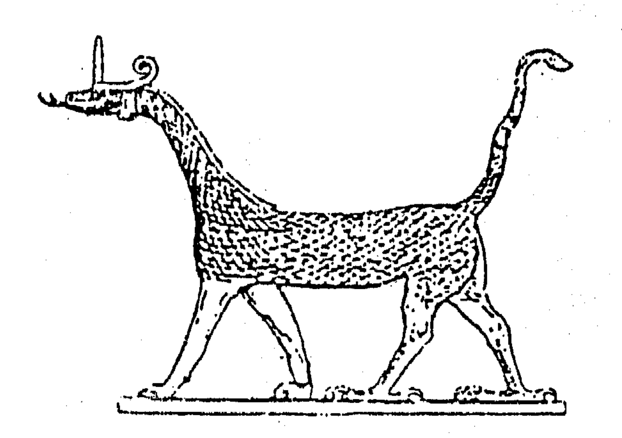

٨. التنين (موش. خوش)
راس أفعى/ أقدام أمامية للأسد أقدام
خلفية للنسر/ ذيل عقرب

٩ . نباتات وحيوانات السهول ويعيّن (سموكان) ملك الجبل مسؤولاً عن رعايتها .

١٠ . الاسطبلات وزرائب الأغنام ويملأوها باللبن والعسل ويجعلها تحت رعاية الإله (دموزي) .

ويبدو أن القصيدة لم تنته بعد فبقيتها مهمشة ولكنها تشير إلى التنظيم الدقيق لكل مظاهر الحياة من قبل انكي ، ولا يمكننا مطلقاً اعتبارهذه الاسطورة اسطورة ثوغونية لانها لا تتضمن ولادة آلهة بل تقرير مصير ورعاية الارض والمدن والأماكن ومظاهر الحياة . وهي كما قلنا قصيدة نموذجية لهذا النمط من الأساطير .

٢. ترتيلة أرديدو (رحلة إنكي من اريدو إلى نفّر)

هذه الاسطورة / الترتيلة تمنحنا اشارةً جديدة مضادة لحقيقة معروفة وهي أن (نفّر) سبقت (أريدو) في الوجود ، بينما الثابت من خلال ثبت الملوك السومريين أن أريدو هي أول مدينة هبطت فيها الملوكية وهي أول المدن السومرية الخمس قبل الطوفان .

كما أن الآثار العلمية أثبتت أن أريدو هي أول مدينة مستوطنة في جنوب العراق (السهل الرسوبي) . . ولأن اريدو هي موطن الإله إنكي ونفّر هي موطن الاله انليل ، فإننا نعتقد أن هذه الاسطورة تشير الى صراع ديني كهنوتي حاول ان يعطي نفّر أهمية واسبقية على أريدو وفي هذا ما يشير الى شكل من اشكال الانقلاب الذكوري ومركزيته ، لأن إنكي لم يكن يمثل طرفاً ذكورياً صارماً ، بل كان انليل يمثل ذلك تماماً بينما إنكي يشير الى ما تبقى من الإلهة الأم لأنه ابنها وزوجها ووريثها .

تبدأ الاسطورة بمديح الإله إنكي وكيف أنه بنى بيته من الفضة وحجر اللازورد في مدينته (أريدو) وحلاّه بالذهب .

وتحتاج بعد ذلك إلى مباركة الإله الأعظم إله سومر إنليل الموجود في نفّر ولذلك يهيء قاربه للسفر ويخرج هو من مياه الأبسو مقره :

«حينما ينهض (إنكي) ، الأسماك . . . تنهض

وتقف المياه التي لا يسبر غورها بعجب واستغراب

المسّرة تدخل إلى البحر

الرعب يتسرب إلى الأعماق

الذعر، يسود النهر العظيم الشأن

ريح الجنوب، تحمل أمواج نهر الفرات»

(كريمر ١٩٧١ : ١٠٦).

ويثيرنا كثيراً وصف بيت الغور (إي - أنغورا) معبد إنكي حيث يظهر البيت مبنياً من الفضة والازورد وقد رقشّة بكل الزخارف وكان النور ينبعث منه وهو في الماء . . وكان مكسواً بالذهب وأسواره عالية ويبدو انه قد بني على ساحل أريدو :

«لا يقوى أحدٌ على متراسك

قفلك أسدٌ مرعب

عواميد سقفك ثور من السماء ! تزيأ بشكل وقّاد

ستائرك من اللازورد، حلية للعواميد ،

. . ثور متوحش ، رافع قرينة ،

مدخلك أسد يعترض الناس ، ،

كساء بابك اسدٌ مسلطٌ على الناس»

(فالكنشتاين ١٩٥١ : ١٨٧).

وحين يصل الإله إنكي إلى مدينة نفّر يجد حفلاً فخماً قد أقامه له الإله إنليل ودعا اليه الآلهة (آن، ننتو ، آلهة الأنونا) بمناسبة إكمال بيت الإله إنكي . . ويتقدم الشراب ويسكر الآلهة. بعدها يتكلم الإله إنليل بهذه المناسبة ويبدو من كلامه انه أب للإله إنكي حيث يقول (إن ولدي الملك إنكي قد بنى له بيتاً) وهذا امرٌ طبيعي اذ لا بد أن يتحول إنليل إلى أب لانكي حتى تتمّ له السيادة المطلقة وحتى تكون نفّر أصلاً لأريدو وهو ما فعله كهنة نفّر :

« عندما جعلوا من البيت

عندها غمرو انليل بالفرح

أسطورة إنكي وننخرساج في دلمون

يظهر إله الماء والحكمة في الأساطير السومرية (إنكي) الهاً متوثباً لعوباً في صباه، على قدر ما يظهر من ذكاء وحكمة، فهو إله الماء الذي سيكون (رب الطب الاعلى) لأن الطب هو (معرفة الماء -آسو) أو (النظر في الماء) كما يدل اسم الطبيب (آسو) على العارف بالماء وهذا متأت من ارتباط الطب بالحياة ، فالماء هو عنصر الحياة الأول وهو أقدم مادة كانت سائدة قبل ظهور تفاصيل الكون، ومنه خلق الانسان.

الإله إنكي سليل أبسو (الاله المائي العتيق الذي لا نعرف عنه في اللاهوت والمثولوجيا السومرية أشياء كثيرة)، وتبدو لنا رفيقته ننخرساج ذات أصل جبلي الالهة الام ربة الأرض دائمة الصلة به، وتحكي لنا اسطورة إنكي وننخرساج في دلمون عمليات ثيوغونية متلاحقة حصلت في وقت مبكر من الخليقة والتكوين، حيث ما زالت الآلهة تعيش في الفردوس، وما زالت تتعثر بأخطائها أو خطاياها، وما زال الانسان غير مخلوق.

تبدأ الاسطورة بوصف (دلمون) واستقرار الاله انكي والالهة ننخرساج فيها وكيف ان هذه الأرض لم يكن فيها الشر والقبح والشيخوخة والمرض وكان كلّ شيء فيها موفراً الاّ المياه العذبة اي المياه النهرية لتخصب أرضها ، فتطلب الآلهة من إنكي توفير هذا الماء. . ويقوم إنكي بدوره بالطلب من أوتو (اله الشمس) مساعدته لأن يخرج لتلك الارض ماءً عذباً، فيفعل ذلك وتنفجرُ الينابيع والآبار المليئة بالمياه العذبة وتستصلح أرض دلمون.

ثم يقوم الاله انكي بفتح مجاري المياه ويملؤها بماء قضيبه :

انكي الحاذق أمام نيتنو (أم البلاد)

ملأ بماء قضيبه المجاري جمعاء

وبماء منيه الغزير، أغرق منابت القصب ،

ممزقاً بقضيبه الكساء الذي كان يستر حضن الأرض!

ثم اعلن بعد ذلك : لا أحد غيري

يجتاز هذا الهور!

وقد وصلنا من مدينة (نفّر) رقيم واحد نشر لأول مرة من قبل الباحث بوبل (انظر Poebel 1914) . ولم يكن بحالة سليمة، حيث كانت الاسطر السبع والثلاثون الاولى مهشمة يأتي بعدها ما يشير إلى أن أحد الآلهة (ربما إنكي) وهو يريد إنقاذ البشرية من الدمار ثم يتطرق النص الى خلق الانسان على يد الالهين آن وانليل وننخرساج ثم فجوة ثم نزول الملكية من السماء إلى الأرض وتوزيع السلطات بين الآلهة ليحكم كل إله في مدينة معينة. ويأتي ترتيب المدن متفقاً مع لائحة أو قائمة الملوك والمدن السومرية قبلَ الطوفان، ولكن الجديد فيها هو تولي كل إله أو إلهة لمسؤولية مدينة وكما يلي :

١ . مدينة أريدو - الإله إنكي (نوديمود)

٢ . مدينة بادتبيرا - الإلهة نوكگك Nugig ومعنى اسمها الخالية من الامراض

٣ . مدينة لرك - الالهة بابلساك Pabilsag ويقرأ ايضاً Hendursag وهو أحد آلهة العالم الاسفل

٤ . مدينة سبار - الإله أوتو اله الشمس

٥ . مدينة شروباك - الإلهة سود وهي الإلهة ننليل زوجة إنليل

وبعد هذه القائمة يكون الطوفان قد تقرر لاجتياج سومر والأرض كلها حيث نقرأ ما يشير إلى أن الإلهتين (ننتو) و(إنانا) تبكيان على مصير الناس القادم، لكن الاله إنكي رغم أنه أقسم لآن وانليل في مجلس الآلهة بعدم إفشاء قرار الطوفان، يقرر الإتصال بالملك زيو سدرا Ziusudra ومعنى اسمه (الذي جعل الحياة طويلة) :

«فسمع زيوسدرا وهو يقف بجانبه

كان يقف وإلى مساره الجدار

يا جدار ! اريد أن اكلمك ، فاستمع إلى كلماتي

واصغِ الى وصاياي!

سوف تكتسح الأعاصير كل المستوطنات في العواصم

إن هلاك ذرية الإنسان . . .

اللذين وهباه حياةً ابدية مثل الآلهة

واللذين رفعاه إلى الحياة الأزلية مثل الآلهة

في ذلك الوقت أسكن (الآلهة) الملك زيوسدرا

الذي أنقذ بذرة الإنسان وقت الدمار

في بلد على البحر، في الشرق، في دلمون»

(على ١٩٧٥ : ١٢٢).

ونريد أن نتوقف قليلاً عند اسطورة الطوفان عموماً واسطورة الطوفان السومرية بشكل خاص. فأسطورة الطوفان تثير الكثير من الموضوعات المترابطة أهمها فكرة العود الأبدي ودورة الساروس والاسكاتولوجيا الكونية (الموت الكوني وما بعده) واذا كانت هذه الأفكار الحديثة التي تتخفى بجذور يونانية، في الغالب، قد سادت في الفكر الحديث وفي علم الأساطير (المثولوجيا) بشكل خاص، فإننا نود أن نلّمح إلى أن جذورها الحقيقية تكمن في الشرق القديم ولعل بذرتها الأولى تكمن في سومر أيضاً.

إن العود الأبدي الذي يشكل موت دموزي وبعثه أبرز أشكاله السومرية يتمثل أيضاً في اسطورة الطوفان باعتبار ان الطوفان هو موت العالم القديم المتسخ الخاطئ وعودته بعد الطوفان جديداً نظيفاً معافى ولا تخرج فكرة العود الابدي عن فكرة الطوفانات المتكررة أو الحرائق التي تنتاب العالم وإلى الأبد.

أما دورة الساروس (Saros) اليونانية فمشتقة من الفكرة والكلمة البابلية (Shar, sar) التي تعني الدائرة ذات الأصل السومري الذي هو (Sar) والتي ترسم بأربع علامات مسمارية تشكل دائرة مغلقة ورقم هذه الدورة هو ٣٦٠٠، وتعنى كلمة السار على المستوى الفلكي السومري والبابلي دوراً يبتدأ فيه العالم من جديد حيث ينتهي قبله عالم قديم اما بالطوفان او بالحريق.

وقد وضع اليونان أكبر دورة كونية واسموها الساروس الكبرى وتقدر بـ ٣٦٠٠٠ سنة وتكتب بالسومرية والبابلية وهي دائرة في وسطها الرقم (١٠) وقد يدل هذا في واحدٍ من معانيه على العاصفة وقد يدل على أن الدائرة بلغت ذروتها عندما

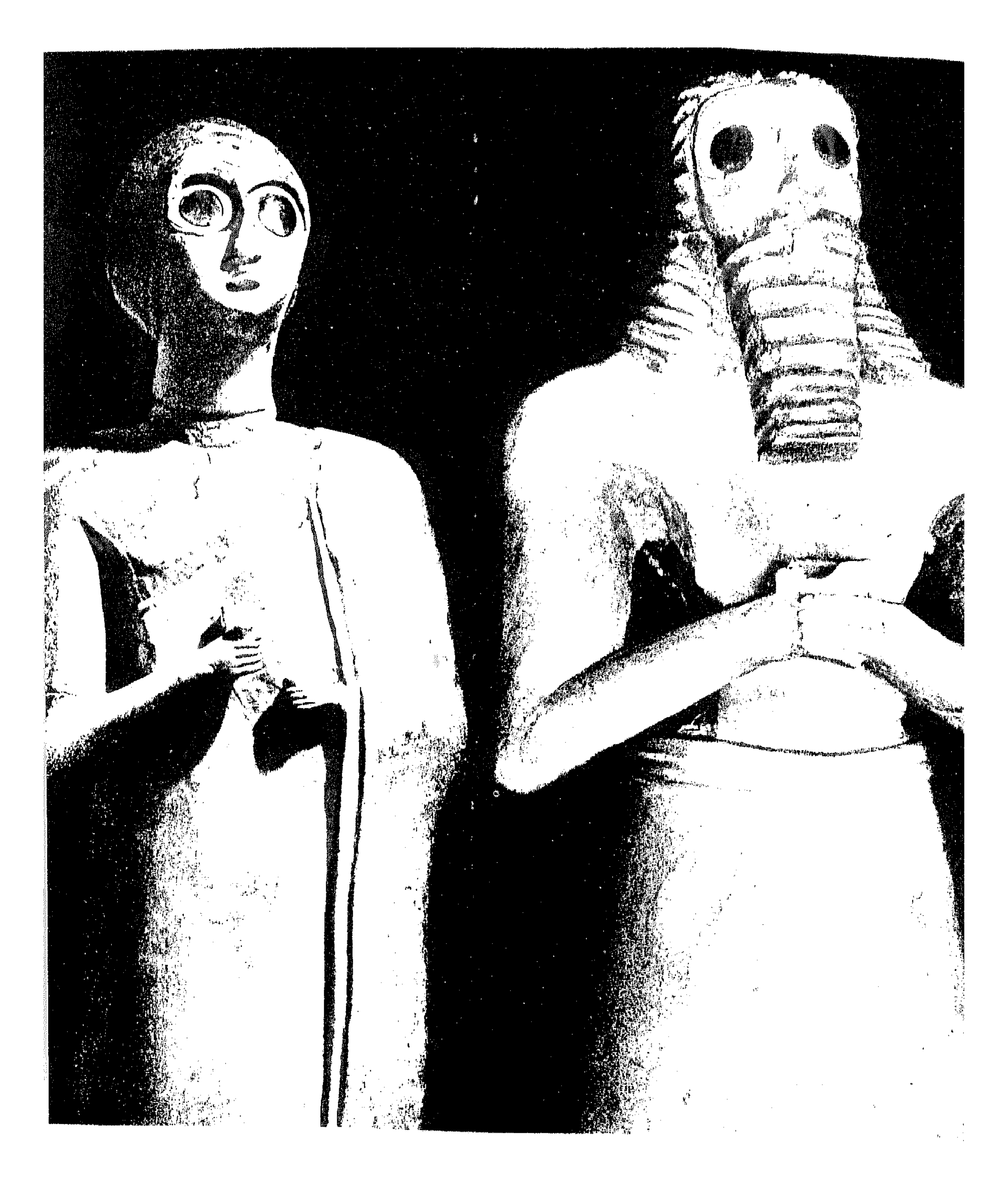

شكل (٦١)

الإله آبو وزوجته

فيخلق لمرضها الإله إنشاج (إنزاك) الذي هو إله دلمون وربما كان هو زوج ننسكيلا وله معابد كثيرة في دلمون.

وإنه لما يثير في هذه الأسطورة تسلسلها ومنطقها الخفي، فأول إله ذكر وفي مملكة سومرية شمالية وآخرها إله ذكر وفي مملكة سومرية جنوبية وكأن جسد انكي من رأسه لغاية أكتافه موزعٌ على أرض سومر . . وخلقت منه ولأجله هذه الآلهة .

ولا شك أن هذه الاسطورة تذكرّ بالكثير مما في قصة التكوين التوراتية لو أمعنا في المقارنات دون أن نتخذ من التطابق الحرفي سبيلاً، فهناك رموزٌ في القصتين تتقافزُ هنا وهناك ويتخذ كل منهما له طريقةً في الظهور والمعالجة.

○

وبالرغم من اننا نعتبر الأُسطورة السابقة أهم اسطورة ثيوغونية إنكية، الاّ أن هذا لا يعني عدم وجود اساطير أخرى (ما زالت غير مكتشفة) توضح كيفية ولادة ابناء إنكي الآخرين. ولكننا عموماً بسب ذلك سنقسم أبناء إنكي الى ثمانية أصناف أو أنواع وهي كما يلي :

١ . **الالهان عديما الجنس (المخنثان):** اللذان بعث بهما الى العالم الاسفل لإنقاذ الإلهة إنانا عندما قتلتها هناك اختها ارشكيگال وهما (كوركالا، كولاتور) الالهان الوحيدان اللذان خلقهما إنكي من وسخ أظافره وبعث بهما إلى العالم الأسفل، إذ ليس هناك آلهة مخصصة للعالم الاسفل من أبناء إنكي حصراً، ربما ظهرت منه بنات تزوجن من آلهة العالم الاسفل، وهذا حصل تماماً، لكن إنكي لا يملك نسلاً اختصّ بأمر من امور العالم الأسفل كأساس لوظيفته (وما حصل مع دموزي وگشتن أنّا امرٌ له ضرورات اخرى سنأتي عليهما).

وعندما ينزل كوركالا وكولاتور فإنهما يحملان ماء الحياة. وطعام الحياة وهو من صنع إنكي ليعيدا به الحياة للإلهة إنانا .

٢ . **آلهة المياه :** وهي الآلهة التي اختصت بالمياه بكل أنواعها ولعل أهمها هو الإله دوزي – أبسو.

وتنتج الأرض الغلة والحبوب وثمار النخيل والأعناب وتتكدس في الأهراء والتلال . و بذلك يطيّب الإله ننورتا (كبد الآلهة) . وعندما تعلم ننماخ (التي تظهر في هذا النص كأم لننورتا) تقلق عليه وتتوسله أن تقوم بزيارته لتقر عيونها برؤيته فيخاطبها :

«أيتها السيدة! حيث انك ترغبين في القدوم إلى بلد أجنبي

بانناخ ! حيث انك ترغبين من أجلي في القدوم الى بلد معاد

وحيث أنك لا تأبهين بهول المعارك التي تحيط بي

لهذا فإن التل كومته ، أنا البطل»

(كريمر ١٩٧١ : ١٢٨).

وتنتهي الاسطورة في قسمها الأخير بزيارة ننماخ إلى الجبل الذي صنعه ننورتا ليصدَّ به مياه كور ، ويقوم ننورتا إكراماً لننماخ بتسمية هذا الجبل بـ (خرساج) ويعينها ملكة عليه ويبارك ننورتا هذا الجبل كي ينبت أنواع الأعشاب والنبيذ والعسل والأشجار والذهب والفضة والبرونز والماشيه والاغنام . . ثم يلتفت الى الحصى ويلعن كل من كان مع (كور) ويمتدح كل من كان معه في تلك المعركة الفاصلة بينه وبين كور .

كور وإنانا

سنؤجل الحديث عن هذه الاسطورة ضمن القسم المنفصل الخاص بـ (أساطير إنانا)

ب. التنين أساج وننورتا

هناك أوجه شبه كثيرة جداً بين هذه الأسطورة وأسطورة كور وننورتا ، بل أن أساج (أساك) هذا يبدو لنا مساعداً لـ(كور) وهو الذي يقوم هذه المرة نيابة عن كور بمقاتلة ننورتا ويحصل ذات الشيء الذي حصل مع كور حيث يحث سلاح ننورتا(شارو) الالهَ ننورتا على مقاتلة (أساج) الذي يبدو وكأنه سلاح كور وساعده الايمن ، فيهزم ننورتا اولاً ثم ينتصر عليه ، ثم تفيض مياه كور من مكانها ويقيم ننورتا الجبل الحجري كسد بين هذه المياه وبين سومر لكننا نلحظ هنا عدم ظهور الإلهة ننماخ لمباركة هذا العمل وتختم الأسطورة بمباركة ننورتا لما فعله.

خلاصة القول أن قوى الدمار القادمة من العالم الاسفل تمثلها أيضاً قوة واحدة هي

(كور) الذي يندفع مثل ثعبان مائي نتن من العالم الأسفل ليحاول تدمير الحياة وتعطيلها وخطف آلهتها . . ويبدو أن الاله ننورتا والالهة انانا هما أكثر من يستطيع القضاء على كور ومساعده اساج .

وبذلك تتضح صورة الدمار العليا (الطوفان) والسفلى (كور) ويقوم إنكي بمساعدة الإنسان زيوسدرا بانقاذ الأرض في الأولى، ويقوم ننورتا وإنانا، بانقاذ الارض في الثانية .

ورغم أن الطوفان شامل وساروسيّ ويمثل وجهاً من أوجه العود الابدي الا أن (كور) لا يبدو كذلك ، بل انه يمثل اندفاعات محتقنه لعالم مهمل ودوني سرعان ما تكضمه الآلهة وتوقفه .

إن ما يلفت الانتباه إلى أن الاسكاتولوجيا السومرية ووسائل الدمار اقتصرت فقط على الماء (الماء الأعلى الذي هو المطر المؤدي للطوفان وهو ماءٌ سماوي الهي، والماء الاسفل الذي هو ماءٌ نتنٌ هيولي) . . ولم نجد في الميثولوجيا السومرية ما يشير إلى نار أو أمراض أو إبادة بطرق اخرى . . ويأتي هذا منسجماً مع البيئة السومرية وما كانت تشكله من خيرٍ وشر عن طريق المياه .

٩ . نازي : زوجة الاله نندارا وهي الهة نباتية .

١٠ . آزيموا : زوجة الاله ننكشزيدا وهي الهة منطقة (آزيموا) في لكش .

١١ . ننكيزي اوتو : الهة نباتية .

١٢ . ننسار : سيدة الخضار والنباتات التي تؤكل

١٣ . ننمو : سيدة النباتات ذات الألياف .

١٤ . إيمر : كاله الحبوب .

١٥ . أزينو : اله الحبوب والزمن خصوصاً في احتفالات رأس السنة (ازينو)

١٦ . كوسو : اله الحبوب

١٧ . باسيكيل : إله الحبوب

٤ . آلهة الحيوان : وهي الآلهة التي اختصت بالشكل الحيواني للحياة اصولاً ومكونات ورعاية وتربية :

١ . دموزي : الاله الراعي ، وهو راعي الاغنام والماشية ، ودموزي Dumu - zi دمو تعني ابن ، زي تعني مخلص وكذلك تعني البار وتعني ايضا الذي يعلو او يرتفع ، وبذلك يحق لنا ان نفس اسم دموزي (بالابن المخلص ، الابن البار ، الإبن المرتفع او المنبعث ، الابن العلي]) ، ويقدم جاكوبسن في كتابه (نحو تصور عن تموز) تفسيراً آخر لاسمه فيقول انه يعني (الذي يعجل بالصغار اي يكسبهم الصحة) معتمداً على انه الاله المسؤول عن الأغنام والماشية ، أي ان دموزي يمثل الموسم القصير للحليب في الربيع ، أي القوة الدافعة للحليب وعندما تتوقف الاغنام عن درّ الحليب فإن ذلك يعني موت هذا الاله .

ولا يحظى دموزي بأية أهمية في البانثيون أو مجمع الآلهة السومري كما نلاحظ شجرة الآلهة السومرية ، ولكنه حظي باهتمام شعبي كبير فأصبح الإله الذي يرمز لكل قوى الطبيعة المنتجة والمخصبة ، ودارت حول أساطير كثيرة ارتبط أغلبها مع إنانا إلهة الحب والجمال وراعية كوكب الزُهرة. وقد فسرت علاقة الإله الراعي بالنجمة على أنها علاقة طبيعية بين من يرعى الاغنام فجراً فترافقه هذه النجمة ويعود بالأغنام مساءً فترافقه ايضاً في الظهور(وهي نجمة الصباح ونجمة العشاء).

وهناك اسطورة مدونة باللغتين السومرية والأكدية اسمها (السيدة المتعالية التي هي وحدها العظيمة) تقول أن الإله آن رفع إنانا ، على ضوء طلب الآلهة العظام، إلى مرتبة قرينته (أنتوم) المعادلة لرتبته هو وجعل منها نجمة السماء (الزهرة) وزودها بإشارات الألوهية المناسبة لذلك.

ثم منحها الإله إنليل السيادة على الأرض، ويبدو أن الإلهة (إنانا) تحالفت مع الإله الشمس والإله القمر ضد (آن) لكنها تخلت عن ذلك ووقفت في نهاية الأسطورة مع آن وهي تحلم بسيادة السماء (انظر ادزارد ١٩٨٧ : ٥٩).

إنانا وانليل

لم ترتبط الإلهة إنانا بالإله إنليل باسطورة، بل ارتبطت معه بشجرة النسب فقط فهو جدها لانها ابنة إله القمر (نانا) الذي هو إبن الإله (إنليل) وهذا لا يمنع من وجود اساطير خاصة بهما لم يعثر عليها حتى الآن.

إنانا وإنكي

لعل أشهر اسطورة تربط الإلهة إنانا بالإله إنكي هي اسطورة النواميس المقدسة (مي) والتي يشير مضمونها إلى انتقال السلطة والملوكية من (أريدو) إلى (الوركاء) ويرى الباحثون أن «هذه الاسطورة الشيقة والقصة الممتعة، تدور حول (إنانا) ملكة السماء، وانكي سيد الحكمة، وتتسم بأهمية كبيرة بالنسبة لدراسة تاريخ التطور الحضاري، وذلك لأنها تضمنت قائمة ورد فيها ما يزيد على مئة مرسوم مقدس لتنظيم جميع المنجزات الثقافية التي وضعها الكتاب والمفكرون السومريون، وهذه القائمة ، على ما تضمنته من تحليل سطحي، قلّ أو كثر، فإنها تؤلف السرى واللحمة في نسيج الحضارة السومرية» (كريمر ١٩٧١ : ١٠٧).

وتتلخص الاسطورة في أن إنانا كانت تريد المزيد من الرخاء لمدينتها (أوروك) ولذلك ذهبت إلى مدينة (أريدو) وهي الموطن القديم للحضارة السومرية ومدينة الاله السومري (انكي) فتصل الى الأبسو موطن انكي فيها ،حيث يراها انكي هناك ويقف مذهولاً بجمالها ويستدعي رسوله (اسمود) ويأمره بأن يقدم لها كعك الشعير مع الزبد والماء البارد وخمرة التمر فيفعل ذلك اسمود، ويجلس الإلهان مع بعضهما ويسكران،

١٢ . أتو : إلهة النسيج

١٣ . أشموكال گلاما : إله الموسيقى (القيثارة)

١٤ . تيبال (تابيرا) : إله المعادن

١٥ . ميرسو : إله الري

١٦ . طقطوق : إله الصناعة

١٧ . ساتران (اله مدينة دير) : ويوصف بعلاقته بالطب ويعتقد أن أصله عيلامي، وهو الذي ذهب إلى العالم الأسفل فكان له رسول هو الاله (نيراح)

١٨ . (نيراح) أو (نيراه) المأخوذ من أصل سومري (نتّر) الذي يجسد القوة الحامية للبشر ويرمز له بنصف علوي لرجل ونصف سفلي كثعبان ، وأحياناً كثعبان يصور على منحوتات الحدود كإله حامي .

٦ . أسلّوحي Asalluhe

وهو الأبن الوريث للاله إنكي، ويمثل الغيوم المرعدة ،وقد صار هذا الاله الجذر السومري للاله مردوخ فيما بعد رغم أن الاله مردوخ في اصله يأتي من المقطعين السومريين (Amar- Utu) الذي يعني (عجل الشمس) أو (طفل الشمس) وكان هذا يشير الى كوكب المشتري الذي يمثله مردوخ، والذي يرتبط من ناحية أخرى بظهور الغيوم المرعدة (أسلوحي) . ويعتبر هذا الاله الهاً للسحر والتعاويذ حيث يحل محل ابيه والاله اسلّوحي اله مدينة قصار قرب أريدو، وهو ابن إنكي و(مبلل الناس) .

٧ . الهات الولادة السبع

وهن سبع إلهات ثانويات مخصصات للولادة ويساعدن الالهة ننماخ ساعة الولادة للانسان أو الآلهة ويبدو أن لكل واحدة دوراً خاصاً:

١ . نن إمّا : Nin - Imma

٢ . نن مادا Nin - Mada

٣ . نن بارا Nin - bara

العمق الفيزياوي والبايولوجي للمثولوجيا السومرية

قبل ان ننتهي من تتبع شجرة الآلهة السومرية والأساطير المرتبطة بها، التي ذكرناها والتي سنذكرها، لا بد لنا من فحص العمق الفيزياوي والبايولوجي الذي يكمن خلف هذه المثولوجيا وخلق تسلسل الآلهة فيها.

لو اننا حورلنا تلك الشجرة الالهية الوارفة الى مفردات طبيعية دون ذكر اسماء الآلهة لنتج لنا هذا العمق الفيزياوي والبايولوجي والفكري كما في المخطط (٩).

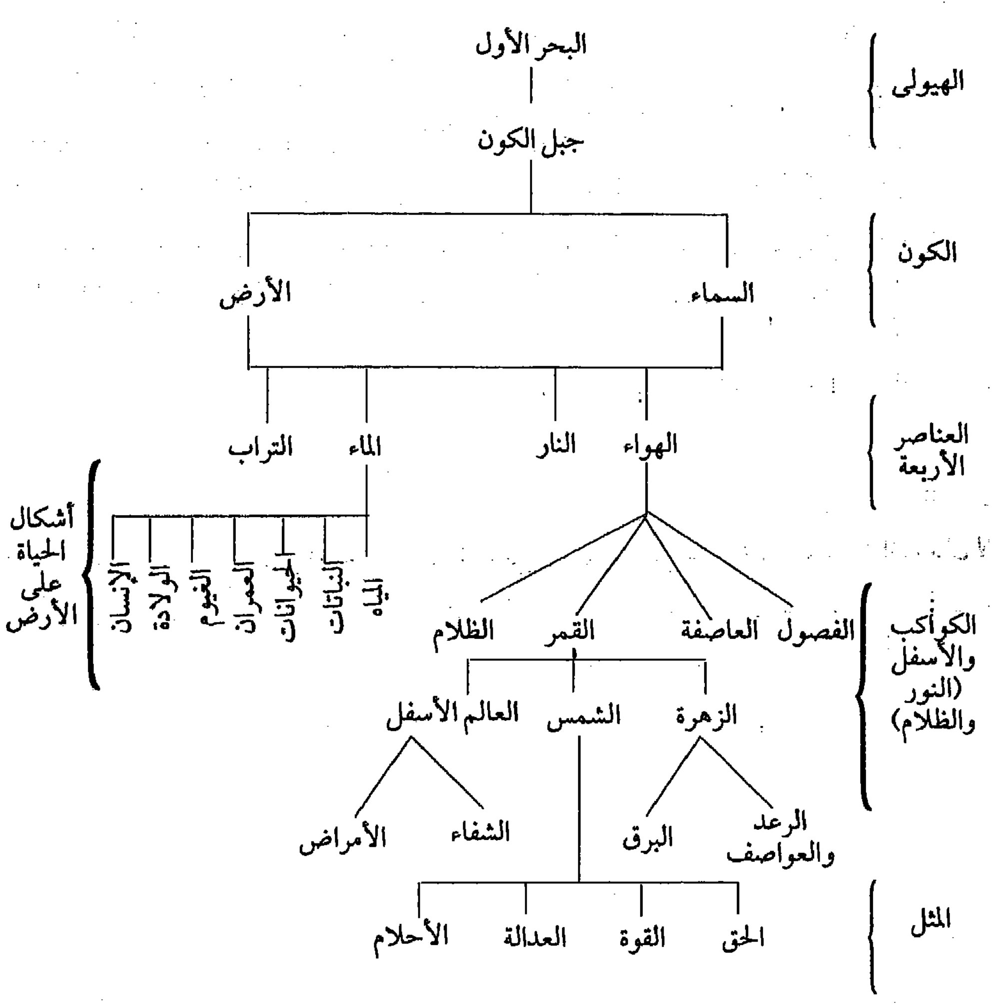

مخطط (٩) العمق الفيزياوي والبايولوجي لشجرة الآلهة السومرية

ابوه يدللك كما يدللك أبوك ،

افتحي البيت ، اي مليكتي ، افتحي البيت»

(كريمر ١٩٨٦ : ١١٢).

وتقوم الإلهة انانا بالاستعداد والتحضير لاستقبال دموزي . .

«استحمت ومسحت جسدها بزيت الطيب

غطت جسدها بالرداء الملكي الأبيض

أحضرت بائنتها

نسقت خرز قلادتها الفيروزية حول عنقها

حملت ختمها بيدها

دموزي كان ينتظرها بصبر فارغ

إنانا فتحت له الباب

من داخل المنزل كانت تشع أمامهُ

مثل ضوء القمر

دموزي تطلع اليها والبهجة تغمر قلبه

ثم أطبق عنقه على عنقها

وقبلّها ، »

(الشوك ١٩٩٢ : ٥٣).

٦. اللقاء السريّ بين إنانا ودموزي

كانت إنانا توصف دائماً بالفتاة اللعوب ، وهي رغم استشارتها لأمها وأبيها بشأن دموزي ، الاّ أنها كانت تختلي بحبيبها سرّاً لوحدهما على ضوء القمر . ففي قصيدة رائعة من قصائد الحب تبدأ إنانا بالحديث عن نفسها كملكة وكالهة لكوكب الزهرة ثم تروي كيف أنها تمضي الوقت طوال النهار في الرقص والغناء حتى يأتي الليل فيلتقي بها دموزي

ثم قام إنكي بصنع مخلوقة البشري وتساعد ننماخ على ولادته وسمي هذا المخلوق ب(أومول) ومعني اسمه (يومي بعيد) وكان يعاني من عدة عاهات (رأس خامد، و نفس قصير، قفص صدري ناقص، بطن خامد، قلب خامد، يداه تتحركان بصعوبة ، كتفاه منهارتان، رجلاه غير قادرتين على السير حافيتين) .

ويبدو أن إنكي تعمد صنع مثل هذا الإنسان المشوّه ليحرج ننماخ ويثبت عجزها، بعد ان استطاع ان يتدبر مصير ستة من الأنواع الإنسانية البدائية التي خلقتها هي، وهكذا يقول لها تدبري أمر مخلوقي هذا وعيّني له مصيراً وامنحية وسيلةً لمعيشته :

«استدرات ننماخ عندئذ نحو (الأومول) وتأملته
اقتربت منه ونادته
ولكنه لم يستطع الإجابة
قدمت له خبزاً
ولكنه لم يستطع تناوله
لم يكن قادراً على . . .
إذا كان واقفاً، لم يكن قادراً على الجلوس أو الاستلقاء،
وكان غير قادر أن يعدّ لنفسه مأوى أو غذاءً!
ولذلك فقد أجابت ننماخ إنكي :
«إن ما صنعته هنا ليس بالحي ولا الميت
إنه غير قادر على عمل أيّ شيء!»

(الشواف ١٩٩٦ : ٧٠).

ويذكر إنكي ننماخ كيف أنه منح وسيلةً لمعيشة البشر الذين صنعتهم هي وعيّن لهم مصيراً، ويبدو ان ننماخ بررت ذلك بأنها في أزمة فقد تركت مدينتها ومعبدها بسبب الهجوم عليها وأنها اضطرت إلى الالتجاء لمعبد إنليلَ في نفّر . الاّ ان فشلها كان واضحاً. ثم يطلب منها إنكي إبعاد مخلوقه العاجز عن حضنها ويقول لها أن تكون راضية عن المخلوقات التي خلقتها بعد أن قرر هو مصيرها ثم يطلب الاحتفاء بمقدرته الخلاّقة والإنشاد له، ويطلب من الآلهة إنشاء معبد خاص له .

يعرف الانسان شيئاً ، ويبدو لنا أنه خُلق على تل الكون المقدس (ان - كي) اي قبل ان تنفصل السماء عن الأرض، أي بلغة أخرى، قبل ظهور الآلهة وانه قد ظهر مثل الكون من الهيولى الأولى المائية ولكنه ظهر كحيوان يمشي على يديه ورجليه . وهذا مقطع من هذه الاسطورة :

«البشر الأوائل لم يعرفوا أكل الخبز بعد

ولم يعرفوا ارتداء الملابس

وكانوا يسيرون على أيديهم وأرجلهم

وكانوا كالخراف يعلفون الحشيش

ومن القنوات يشربون الماء .

آنذاك في المكان الذي كانت فيه الآلهة

في معبدهم ، التل المقدس، قررت الآلهة ظهور إلهة النعج (لاهار)

وإلهة الشعير (أشنان)

في المعبد، المكان الذي تأكل فيه الآلهة الخبز

تجمعوا على انتاج النعجة والشعير

وأكل آلهة الأنونا ، آلهة التل المقدس

ولكنهم لم يبلغوا مرحلة الشبع

المشروب اللذيذ ، إنتاج حضيرة الاغنام

شربت آلهة الانونا ، الهة التل المقدس

ولكنهم لم يبلغوا مرحلة الارتواء .

في حضيرة الاغنام الطاهرة تركوا ما يسعدهم

تركوا البشرية روح حياتهم ، ،

(رشيد ١٩٨١ : ٢٠)

وهكذا انتهت الهة النعجة والشعير (لاهار وأشنان) من التل المقدس الى الأرض

القسم الثاني

أساطير تنظيم الكون

MYTHS OF ORGANIZATION

كان الإلهان (إنليل) و(إنكي) معنيان على حدٍّ سواء بتنظيم الكون والعالم، فلكل منهما أساطيره الخاصة بهذا الأمر ولذلك وجدنا ان من الضروري، بعد ان ظهرت الآلهة وتوالدت التعريف بالوظائف التي خلقت من اجلها والاساطير التي صاحبت هذه الوظائف والتنظيمات التي قامت بها.

ووجدنا أن من الضروري تقسيمها إلى قسمين: هما الأساطير المرتبطة بالإله إنليل، والأساطير المرتبطة بالإله إنكي.

أ- أساطير تنظيم الكون المرتبطة بالإله إنليل

تتضمن هذه الأساطير تنظيم ما ارتبط بانليل من أمور العمل (الفأس) والفصول وتوزيع وظائف الماشية والحبوب ورحلة القمر إلى نفّر حيث مكان إبيه إنليل.

١. اسطورة الفأس

وهي قصيدة طولها ١٠٨ سطراً، وتبدأ بمقدمة هامة تصلح أن تكون ضمن أساطير خلق الكون وتنظيمه ثم تبدأ بذكر الفأس وكيف أن انليل أعطى هذا الفأس للانسان هدية لكي يعمل به ثم يذكر مواصفات الفأس:

لاهو الذي جاء بالفأس إلى الوجود وخلق اليوم

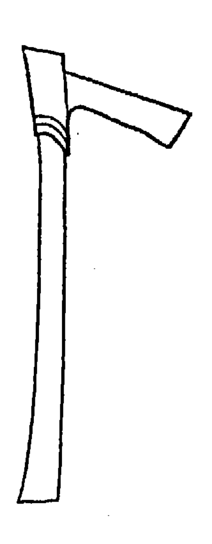

شكل (٦٨)
الفأس رمز العمل ورمز إنليل
رسم : علي محمد آل تاجر

٢ ـ رحلة القمر إلى نفّر

يمكننا أن نعد هذه الأسطورة واحدة من ثلاث أساطير معروفة لحد الآن نستطيع أن نطلق عليها اسم أساطير رحلات الآلهة الى المدن، فقد رحل اليها نانا (القمر) ابن إنليل، وإنكي اخ انليل تبركاً، وهناك رحلة إنانا لمدينة أريدو لسرقة نواميس الحضارة.

لقد كانت مدينة (نفّر) هي المدينة المقدسة لبلاد سومر كلها وذلك لأن الاله القومي للسومريين وهو (إنليل) كان فيها، وله معبد كبير في وسطها هو معبد الـ (إيكور) وهو من أهم المعابد آنذاك.

تبدأ هذه الاسطورة بقرار الاله القمر (نانا) بالذهاب الى (نفّر) والمثول أمام أبيه إنليل ويسمي النص (نانا) بإسمين آخرين هما (سين) و(آشيگر بابر) أي الإله الحارس لمدينة اور.

وبعد القرار تبدأ الرحلة حيث يحمل الإله القمر بمركبه الهلالي الشكل أصناف الاشجار والنباتات والحيوانات ويقف خلال هذه الرحلة في خمس مدن هي (أم- ؟) و(لارسكا) و(ارك) وفي مدينتين أخريين لم يتضح ذكر اسميهما، وفي كل مدينة يمر بها (نانا) يقوم الاله الحارس لتلك المدينة باستقباله والترحاب به حتى يصل إلى (نفّر) وفي نفّر

إيميش . . يا بني تقارن نفسك بأخيك إينتين

إن كلمات (انليل) السامية العميقة في معناها

والقرار المتخذ غير قابل للنقض، من ذا الذي يجرأ على نقضه؟

ركع (إيميش) امام (إينتين)

والى بيته جاء بالنبيذ والعنب والتمر

إيميش قدم لأخيه إينتين الذهب والفضة وحجر اللازورد

وفي نشوة الأخوة والصداقة، سكبا الخمرة بكل سرور،

تمجيداً وتكريماً للآلهة

وعقدا العزم على العيش سوية بحكمة

وبنتيجة هذا الخصام

برهن إينتين فلاح الآلهة المخلص، على أنه اعظم من إيميش

سبحان الأب (إنليل)»

(كريمر ١٩٧١ : ٨٠).

إن هذه الاسطورة تؤكد أن فصل الشتاء في وادي الرفدين، رغم قسوة برودته، كان يمنح وفرةً هائلة من النباتات والحيوانات، وإن الإله إنليل أمرّ أرجحية هذا الفصل على الصيف بسبب حكمته العميقة.

٤. لاهار وأشنان (النعجة والغلّة)

تشبه هذه الاسطورة سابقتها فهي اسطورة مفاخرة أو مناظرة، ولكن أهميتها تكمن في مقدمتها التي تعطي فكرة عن خلق الانسان عندما خلق مثل الحيوانات يمشي ويأكل ويشرب مثلها ولا يلبس لباساً مثلها.

تصف الأسطورة أولاً كيف خلق (لاهار وأشنان) على التل المقدس للآلهة في (الدلكو) ويبدو أن خلقهما تمّ من قبل إنكي، لكن إنليل هو الذي قرر مصيرهما.

المناحة في المدينة، وبكت انانا بكاءً مراً على زوجها ومنزلها ومدينتها:

«أسائل التلال والوهاد: أين زوجي

أقول لها: لن يكون بمقدوري بعد الآن أن آتي له بالعطام

لن يكون بمقدوري بعد الآن أن اقدّم له الشراب

إبن آوى ينام في فراشه

الغداف يقيم في حظيرته

تسألونني عن مزماره؟

لا بد أن الريح تعزف به الآن له

تسألونني عن اغنياته العذبة ؟

لا بد أن الريح تغنيها له»

(الشوك ١٩٩٢ : ١٠٨).

وتفعل سرتور ذات الشيء وتبكي ابنها بمرارة وتذهب إلى مكانه المهجور وكذلك تفعل اخته گشتن انا، وحين تشاهدها انانا تقول لها (ان منزل شقيقك لم يعد له وجود وأنا لا اعرف مكان دموزي) فتظهر الذبابة وتحوم فوق رأس انانا وتقول لها (إذا اخبرتك اين هو دموزي ماذا ستقدمين لي) فترد انانا (إذا أخبرتني سأجعلك ترددين على حانات البيرة والخانات حيث تسمعين أحاديث الحكماء واغاني المغنين) فتقول الذبابة انه هناك على مشارف البرية فتذهب إنانا وگشتن أنا إلى دموزي ويجدونه يبكي ، حينها تمسك انانا بيد دموزي وتقول :

«ستمضي في العالم الأسفل

نصف السنة

وشقيقتك ، حسب ارادتها ،

ستمضي النصف الآخر

وفي اليوم الذي تستدعى أنت ،

في ذلك اليوم سوف يأخذونك

في اليوم الذي تستدعى كشتن آنا

في ذلك اليوم سيطلق سراحك

إنانا أسلمت دموزي الى يدي الأبدية ، ،

(الشوك ١٩٩٢ : ١١٢)

وعند هذا الأمر يتقرر المصير الأخير لدموزي فهو الى الأبد سيبقى أسيراً بين العالم الأرضي والأسفل يدور بينهما

٧. إنانا والعجوز بليلي (بليلو)

هذه اسطورة غريبة ورائعة في نفس الوقت، ولها أهمية خاصة في توضيح جذرفكرة (العشاء الاخير) المسيحية من خلال ما حدث لدموزي وإنانا وبليلي .

تبدأ الأسطورة بوصف حظيرة دموزي وكيف أنها أصبحت خربةً وأن البكاء مستمر عليه فتسأذن إنانا أمها ننكال لتسمح لها بالذهاب الى حظيرة أغنام زوجها لترى بنفسها ما حدث، وتذهب إلى هناك وهي (العارفة جداً، الذكية جداً) وتجد أن أغنام دموزي قد تشتت في البوادي فتقوم بجمعها، ثم تصوغ مرثيةً لدموزي تدعوه فيها أن يُبعث وأن يقوم من رقاده :

«أنت يا من ترقد، أيها الراعي، أنت يا من ترقد ، قم إرع شؤوني دموزي ، أيها الراقد قم ارعها

نهاراً ، منتصباً، فلترع شؤوني

ليلاً ، مضطجعاً، فلترع شؤوني، ،

(كريمر ١٩٨٦ : ١٨٨).

ثم تصادف انانا عائلة إلهية في تلك الأماكن مكونة من ثلاثة أفراد هم :

١ . العجوز بليلي (بليلو) وهي قيّمة، تعرف شغلها وسيدة هبات .

٢ . جرجير : إبنها وهو رجل متوحد سريع البديهة ولص ماشية وحبوب .

٣ . سرو : حفيدها وهو فتى لا أصدقاء له يمضي وقته في محادثة أبيه .

ويبدو أن موقف بليلي العجوز من دموزي وهربها من بيتها بعد أن جاء وقدمت له الماء والطحين، بحيث كان هروبها سبباً في دخول الكالا والقبض على دموزي ، هذا الموقف هو السبب في جعل إنانا تقرر مصائر جديدة لهذه العائلة وهي :

١ . قتلت العجوز وحولّتها (وربما حولّت جلدها) الى قربة ماء بارد .

٢ . جعلت إبنها إلى جانبها ليصبح (اودوج) القفر و(لاما) القفر .

٣ . جعلت حفيدها يجوب ارجاء القفر ويسكب الماء ويرش الطحين ثم يقيم محلين للراحة وأن هذا كله سوف يجعل العجوز بيليلي مسرورةً .

ويبدو أن ما قامت به انانا يذكّر بما قدمته بليلي لدموزي (الماء والطحين) فقد ارادت ان تبقي ذكرى لآخر ما تناوله دموزي وان تعمل ما يشبه الثواب أو ما يذكّر به ، فقتلت العجوز وصنعت من جلدها قربةً وجعلت الماء يقدّم في محل والطحين يقّدم في محل آخر . وإن هذا كله سيكون بمثابة الخبز الربانيّ الذي يقدّم في تلك البرّية استذكاراً (للعشاء الأخير) الذي تناوله دموزي .

ومن المؤكد أن كل حياة دموزي تذكّر بقصة السيد المسيح وأن لنا ما سنقدمه في هذا المجال لنؤكد صلة الأديان ببعضها . . وكيف أن الدين السومري رغم قدمه شحن الأديان اللاحقة باساطيره وطقوسه الكثيرة حتى وان كانت هذه الاديان موحدةً كالمسيحية .

المهم ان الاسطورة تمضي وتصف ما قرره إنكي من مصائر للعاصمة أور :

«لقد جاء الى (اور)

إنكي ملك الماء الذي لا يسبر غوره، وقدر مصيرها

أيتها المدينة التي ازداد طعامها

وغسلت بالوفير من المياه ووقفت كالثور الراسخ

يا دار الرخاء المقدسة على وجه الأرض

ايتها المتضرعة، إنك خضراء كالجبل

إنها الغابة (هاشور) الوارفة الظلال، . . البطولية

هو الذي قدّر مصيرك على أحسن وجه،،

(كريمر ١٩٧١ : ١٠٢)

وبعد الأرض كلها والدولة سومر والعاصمة أور، يقوم إنكي بتقرير مصير مجموعة كبيرة من البلدان والمواقع والأشياء وهي كما يلي :

١ . ملّوخا (الجبل الاسودالتي يرجح انها تقع على الساحل الشرقي من افريقيا) ويباركها كما سومر، ويبارك اشجارها وثيرانها وطيورها ومعادنها وبشرها .

٢ . دجلة والفرات يملأوهما بماثةالرقراق ويوكل للإله (أنبيلولو) العارف بشؤون الأنهار حماية هذين النهرين ، ويملاؤهما بالأسماك حيث (ابن كيش) يحميها .

٣ . الخليج العربي : يقرر نظامه ويعين الاله (سيرار) لحمايته

٤ . القلب الفضي لقلب السماء ويستدعي الاله إشكور لحمايته

٥ . المحراث والفدان والحقل والخضار ويجعل الاله انكيمدو مسؤولةً عنها

٦ . الغلة والحبوب ويجعل الالهة أشنان (قوة كل شيء) مسؤولاً عنها

٧ . الفأس وقالب الآخر ويعنى اله الآجر (كتبا) مسؤولاً عنها

٨ . أدوات البناء (كوكن) ويعين الإله (مشدما) بنّاء إنليل العظيم مسؤولا عن رعايتها .

يحمل نواميس الـ(مي) في سفينته متوجهاً من اور إلى اوروك ومعه القرابين والهدايا ليلقى انانا في معبدها (بيت السماء)، وحين شاهده الإلهة بهذا المنظر المهيب والمتألق وهي تتحدث بكلام مليء بالشوق والرغبة:

«عندما ساستحم من أجل الملك، من أجل الإله

وعندما من أجل الراعي دموزي، سوف أستحم

وبعد أن أزين ردفيّ

وعندما أدهن شفتيّ بالمرهم العنبريّ

وأضع الكحل حول عيني

وعندما ستضغط يداه الساحرتان على قطني

وبعد أن يعمد الاله الراعي دموزي،

المضطجع بقربي، أنا إنانا المقدسة

بعد أن يعمد إلى دعك ثدييي اللبني والطلّي»،

(الشواف ١٩٩٦ : ١٦٦).

وبعد أن تتابع ما سيحصل معها وما تبادله، تقوم بتوضيح وتفصيل المصير المجيد الذي تخصصه له وكيف أنها ستكون معه في المعارك وكيف أنه يستحق التاج والعرش والصولجان وتقرر مصيره الذي لا بديل له (انانا تحبك وأنت مفضل امها ننليل) ثم يصف الشاعر زيارة شولجي لمعبدين سومريين آخرين وبعدها يعود إلى مدينة أور حيث يباركه الإله نانا أب إنانا وإله مدينة اور.

وفي حوارية بين الملك شولجي وإنانا من أجل إخصاب الحقول والبساتين يطلب شولجي أن يذهب معها ويرى ما تفعله، فتأمر احد الفلاحين ليحرث أرض شولجي ثم يذهب انانا وشولجي الى البستان ويتفقدان اشجاره وفواكهة .

٣. أنانا وشوسين

الملك شو سين معروف بحبه للنساء المكرسات للإلهة إنانا، وهناك ما يدعو

للمقارنة بين أناشيد الزواج المقدس لشوسين وإنانا ونشيد الإنشاد لسليمان.

هناك قصيدتان شهيران الاولى مفعمة بالفاظ الحب واللذه

«أيها العريس، الغالي على قلبي،

عظيمة هي مسرّتك، حلوة كالعسل

أيها الليث الغالي على قلبي

عظيمة هي مسرّتك، حلوة كالعسل

لقد أسرتني، أقف مرتجفة أمامك

أيها العريس لو تحملني الى الخدر»،

(كريمر ١٩٨٦ : ١٣٥).

وتمضي القصيدة طافحة بالنشوة والحب والجمال بوتائر متشابهة.

أما القصيدة الثانية التي كانت فيها (كوباتم) الكاهنة هي القائمة بدور انانا والمقربة إلى شوسين والملقبة بالملكة، فتبدأ بالإشادة بولادة الملك ثم تطلب منه الملكة ان يدير وجهه نحوها وتمجد شوسين كملك عظيم ثم تعود الحبيبة لاثارة الملك:

«عذب يا الهي هو شراب الساقية!

فرجها هو كالشراب! فرجها عذبٌ كشراب

فرجها وشفتاها هي عذبة كشراب

وشرابها فائق الحلاوة، فائق الحلاوة شرابها»،

(الشواف ١٩٩٦ : ١٧٦).

وهناك قصيدة ثالثة وصلت إلى الملك شوسين حيث تستعد الحبيبة للاقتران بالملك الراعي، ولذلك تطلب من والدتها تسريحة شعر مرفوعة إلى الأعلى مثل الخسّ:

«شعري هو خسّة تنبت بجوار الماء

خسة جاكول تنبت قرب الماء

عندها تكلم انليل إلى آلهة آنونا

ايتها الآلهة العظمى، الذين حضرتم هنا،

يا آلهة آنونا، الذين ذهبتم الى فناء مجلس الشورى

إن ولدي الملك انكي قد بنى له بيتاً،

شيد أريدو ورفعها كالجبل الذي يرتفع من الأرض

لقد بنى البيت في مكان جميل

في أريدو، المكان، الذي لم يدخله أحد،

شيد بيتاً من الفضة وطعمه باللازورد

البيت الذي يجذبُ جميع المعوّذين الكهنة،

قد اعطاهم علم الرقى والتعاويذ،

وبالترتيلة المقدسة يحافظ البيت دائماً على سلامة الأرض،

وبحكمة إنكي وفصله الحسن بين الآجال،

فقد شيد المعبد فوق أبسو لقوي الآلهة الكاملة.

وإذ هو قد بنى لأريدو البيت من الفضة،

فالحمد للأب إنكي ،،

(فالكنشتاين ١٩٥١: ١٨٩ - ١٩٠).

وتظهر تسمية الإله (نيراه) وهو (الإله الثعبان) الذي تظهر دئماً على الاختام الاسطوانية في طرف الصورة وخلف الإله إنكي أو خلف زوجته.

ويرى البروفسور فالكنشتاين ان هذه الترتيلة تنقسم الى عدة أقسام حسب موضوعاتها: فالقسم الأول يتناول وصف بناء المعبد على يد الإله إنكي ثم ان المعبد واجزاءه تتكلم معلنة عن الأعمال الخارقة لربها الاله، ويتضح من ذلك ان التماثيل والأشكال النذرية التي كانت تقدم إلى الإله إنكي وتوضع في المعبد كانت تصلي إلى الآلهة وتمجدها، فهي في تسبيح مستمر.

وما أن تدخليها، أيتها الصبيّة

حتى تسمع المخضّة نغمها أي إنانا

مخضّة حبيبك سوف تسمع نغمها

مخضّة ايشمي داجان سوف تسمع نغمها ،،

(الشواف ١٩٩٦ : ١٨٢).

٤- إنانا والأنسان

رغم أن صلة الإلهة إنانا بالإنسان واضحة وهامة وبالذات من خلال ممثلاتها العشتاريات على الأرض ونعني بهن من تتخذ صفة (الكاهنة العليا). ولكن المقصود هنا ليس هذه العلاقة بل تحديداً اسطورتها مع الفلاح أو البستاني (شوكاليتود Shukaletudai) والذي يظهر في اسطورة مشابهة على أنه بيلولو (وربما كانت اسطورة قائمة بذاتها).

وتروي أسطورة (إنانا وشوكاليتودا) في بدايتها كيف أن الإلهة إنانا الموجودة في السماء وفي معبدها الأرضي في أوروك (إي-آنّا)، هذه الإلهة تقرر النزول من السماء إلى الأرض وذلك للتفريق بين الأشرار والأبرار، ولسبر القلوب في البلاد والفصل بين الحق والباطل، لقد كانت الإلهة انانا تمتطي الثور السماوي وهي في السماء، والأسد الأرضي وهي على الأرض وفي الحالين كانت معها النواميس المقدسة السبعة التي حملتها معها يوم نزلت إلي العالم الأسفل.

وهكذا في الوقت الذي هبطت فيه من العالم الأعلى علم بذلك الاله إنكي وهو إله الأرض فطلب منها بأن يلتقيها مباشرة قبل بدء جولتها، ولسبب لا نعرفه (بسبب انقطاع النص) يقوم الإله انكي باعطاء تعليماته إلى الغراب عن كيفية خلق وزرع شجرة النخيل، وهي أول شجرة مثمرة في أول بستان على الأرض :

«أيها الغراب لدي ما أبلغك إياه : استمع إليّ

كحل التعويذ في أريدو

الموضوع في وعاء المرهم من اللازورد

والموجود في غرفة بيت الأمير

(هذا الكحل) فتّه ونعّمه

وازرع حبيباته بين المساكب

بجوار المستنقع ذي الكراث ، ،

(الشواف ١٩٩٦ : ٨٨).

ويقوم الغراب بإنبات هذه (الشجرة الأبدية) كما يسميها النص ، ويعدد فوائدها: حيث لسانها يمنح اللب ، ولحيتها تنسج منها الحصر ، السعف المحيط بساقها يستعمل كمساطر قياس، وسعفها يرافق المراسيم الملكية واقراط تمورها ستقدم كتقدمات للآلهة.

وبعد أن يروي النص قصة النخلة يأتي علي ذكر الفلاح شوكاليتودا الذي يعاني بستانه من الجفاف وهبوب الريح ولكنه يقوم بتأمل السماء ومعرفة الأفلاك وعلى ضوء ذلك يقرر كيفية زراعتها حتى أنه في خمسة وعشرة من مواضع البستان يغرس صفاً من أشجار الصفصاف الكثيفة التي ظلالها لا تختفي في الصباح والظهيرة والمساء.

ثم تعود الأسطورة لذكر انانا التي بدأت جولتها السماوية والأرضية فبعد ان عبرت عيلام والسوبور تعبت واذ لاح لها بستان شوكاليتودا وصلت أو نزلت اليه وتمددت لكي ترتاح ثم ربطت أمام شقها النواميس السبعة المقدسة ونامت.

وكان الفلاح يراقب كل هذا فقام بحل رباط الستر الواقي (أي النواميس المقدسة السبعة) وولجها وجامعها ثم عاد الى الطرف الآخر من البستان. وعندما صحت إنانا فجراً عرفت أنها إغتُصبت وكان لا بد لها من الانتقام لـ(فرجها المهان) وبذلك بدأت بتسليط ثلاث كوارث على الأرض : الأولى انها ملأت جميع آبار البلاد بالدم ثم جرّت الدم إلى أحواض البساتين كلها، وكان الناس عندما يريدون ماءً لا يجدون سوى الدم (ولم تشرب الرؤوس السوداء كلها سوى الدم)، وكان ذلك كله لكي تخرج الفلاح من مخبئه ولكن ذلك لم يحصل.

وذهب شوكاليتودا إلى الأب الإله إنكي ليتحاشى عقاب إنانا ، فنصحه إنكي بأن

يختفي مختلطاً لأهله واخوته من ذوي الرؤوس السود (السومريين) ولن تجده إنانا. ولكن إنانا لم تهدأ فقامت بتسليط الكارثة الثانية على الأرض إذ حلّت، وهي راكبة على الغيوم، وثاق الرياح السيئة واطلقت التفاف الزوابع وارتفعت وراءها الرياح المثيرة للعواصف الرملية الـ (بلي بلي) ودوامات الغبار وساعدها في ذلك (سبعة في سبعة) من السحرة في الصحراء ولكن شوكاليتودا ذهب الى أبيه فأجابه بنفس النصيحة السابقة.

وحلّت الكارثة الثالثة التي يفهم منها سدّ طرق البلاد ربما بالماء أو بتفجير أعماق العالم الأسفل (لا نعرف على وجه الدقة!!) دون أن تجده ولكنها ادركت أنه يختبئ عند إنكي. فرحلت الى أبسو إنكي في أريدو وطلبت منه أن يسلمها المذنب. ووعدت إنكي بأن تاخذه دون أذى إلى معبدها (أي-أنّا). وهكذا تأخذ إنانا شوكاليتدا من أبسو أريدو إلى إيانا أوروك، وإلى أعالي السماء حيث تظهر إنانا كقوس قزح ويبدو أنها تستجوبه لتعرف كيف تمكن من ذلك. فيروى لها ذلك شوكاليتودا ببساطة ودون أسف، فتغضب عليه إنانا وتحكم عليه بعقوبة تحويله إلى نجم سماوي لكن ذكراه، كما تعده، تبقى على الأرض في قصائد الشعراء تردد في قصور الملوك وفي أغاني الرعاة وهم يمخضون قربه الحليب.

وفي أسطورة (بيلولو) يتحول بيلولو (المشابه لشوكاليتودا) الى قزم ثم يصغر أكثر من ذلك حتى لا يعود له أي تأثير أو وجود واضح.

إن القرار الأخير، كلمة المجلس . . .

الكلمة التي نطق بها آنو وانليل وننخرساك

إن اسقاط الملوكية . . الآن »

(علي، ١٩٧٥: ١٢١).

ومعروف أن إسم زيوسدرا يأتي بعد آخر ملك حكم قبل الطوفان وهو (اوبار – توتو) Ubar - Tutu، كما أنه يذكر على انه إبن أوبار توتو وتطلق عليه نسخة اخرى من ثبت الملوك على أنه (ابن شروباك) الذي حكم فترة ٣٦٠٠٠ سنة.

ويبدو أن الإله إنكي ينصح زيوسدرا بصناعة سفينة تنقذه مع أهله .

ثم يأتي الطوفان ويدمر كل شيء

«وجاءت كل الأعاصير والعواصف المدمرة

واكتسحت الأعاصير والعواصم

وبعد أن أكتسحت الأعاصير البلاد سبعة أيامٍ وسبع ليالٍ

وجعلت الأعاصير المدمرة السفينة تتأرجح في المياه العالية

(وعندما انتهى الطوفان) بزغت الشمس فأنارت الأرض والسماء

(وعندئذ) فتح زيوسدرا كوةً في الفلك

فدخلت السفينة بأشعتها الى الفلك

فركع زيوسدرا أمام إله الشمس

ونحر الملك (زيو سدرا) أعداداً كبيرة من الثيران والأغنام)

(على ١٩٧٥ : ١٢١).

وبعد فجوة كبيرة في النص تنتهي الاسطورة بتقديم الصوات إلى الإلهين آنو وانليل ويركع زيوسدرا أمامهما :

«وركع زيوسدرا أمام آنو وانليل

فذهب (نيتي) إلى ملكة العالم الأسفل اريشكيگال وأخبرها بذلك وأخبرها بأن إنانا تحملُ معها النواميس المقدسة السبعة (التاج، الصولجان، العقد، الجواهر، الخاتم، الدرع، الثوب) فأمرت اريشكيگال حاجب العالم الأسفل بأن يدعها تدخل ويطبق قوانين العالم الأسفل التي تقضي بأخذ هذه النواميس المقدسة منها وكأنه يجردها من قواها.

وحصل ذلك فقد قام الحاجب عند كل باب من بوابات العالم السبعة بأخذ أحد هذه النواميس المقدسة السبعة في حين كانت انانا تستغرب من هذا التصرف كل مرة.

وبذلك دخلت انانا إلى قلب العالم الأسفل وهي عارية مجردة من نواميسها المقدسة، وعندما دخلت الي قصر اريشكيگال كانت الأخيرة بانتظارها جالسة على عرشها يحيط بها (الانوناكي) وهم القضاة السبعة الذين يصدرون الاحكام على كل من يتجاسر ويذهب الى هذا العالم متحدياً، فقاموا بتوجيه نظرة الموت على إنانا ثم اطلقوا كلمة (تعذب الروح) فتحولت إنانا المتعبة إلى جثة وشُدت هذه الجثة على عمود منتصب.

ومرت ثلاثة أيام وثلاثة ليال، بعدها قام رسولها ننشوبر بما أوصته به فذهب الى بيت الاله إنليل (الايكور) واخبره فَاستغرب انليل كيف ذهبت انانا إلى هناك وهي تعرف قوانين العالم الأسفل وهكذا لم يقف الاله انليل معها بل خذلها، فذهب الى بيت الإله نانا الـ (ايكيشرگال) ولكن نانا خذلها أيضاً، فذهب إلي بيت الاله انكي في اريدو فابدى انكي قلقه عليها، ثم أخذ طيناً من تحت اظافره فصنع منه كائن الـ (كوگارو) وهو كائن لا جنس له، ثم أخذ من تحت إظفره المصبوغ بالأحمر طيناً فصنع منه كائن الـ(كالاتور) وهو كائن لا جنس له فاعطى الأول طعام الحياة وأعطى الثاني ماء الحياة. وأخبرهما بالنزول إلى العالم الأسفل وإحياء الإلهة الميتة بأن يوجّها عليها أشعة النار أولاً ثم ينثراها بماء الحياة ستين مرة ويطعام الحياة ستين مرة فإنها ستحيا وتنهض من عالم الأموات.

ويبدو ان الموت في هذه الاسطورة له مدلولٌ واضح وهو الإصابة بستين مرض (وهم رقم كلي مقدس كأنه يعني عدداً لا نهائياً عند السومريين) اي ان هناك ستين عضواً مصاباً وان كل مرة ستعمل علي إحياء أحد الاعضاء المصابة.

وفعل الكائنان ذلك ونهضت انانا، الاّ أنه فيما يبدو لنا أن قوانين العالم الأسفل صارمة، وكان يجب على إنانا الإتيان ببديل عنها من العالم الأعلى الذي ستعود اليه شرط

أن يرافقها جند العالم الأسفل الـ(كالو) وهم عفاريت صغيرة كأنها من القصب.

سار العفاريت امام وجنب انانا يحملون في ايديهم العصي ويتمنطقون بالأسلحة وتصف الاسطورة هؤلاء العفاريت بأنهم لا يعرفون الطعام ولا الشراب ولا يأكلون خبز القمح او يشربون خمر القرابين ويخطفون الزوجة من حضن زوجها والطفل من صدر امه اي انهم شياطين الموت.

وعندما خرجت انانا معم رآها ننشوبر فرمى بنفسه على قدميها واقعاً على التراب ملطخاً نفسه بالطين فاراد العفاريت حمله بدلاً عنها إلى العالم الأسفل فمنعتهم لأنه ادى ما عليه من واجبات تجاهها اثناء غيابها، فذهبوا الى الـ (سيجور شاكا) في مدينة (اوما) حيث كان هناك الاله (شارا) الذي فعل مثلما فعل ننشوبر، ثم ذهبوا إلى (ايموشكالاما) في مدينة بادتبيرا حيث فعل (لتراك) ما فعل السابقان، ثم ذهبوا إلى مدينة (كولاب) حيث وجدوا (دموزي) وهو يرتدي ثياباً فاخرةً ويعتلي على عرشه فانقضّ العفاريت السبق عليه كما يفعلون مع الرجل العليل فانقطع الراعي عن نفخ فايه ومزماره حيث كان يعزف عليهما في ذلكا لوقت. وقامت انانا الغاضبة عليه بتركيز نظرة الموت عليه قم نطقت بالكلمة التي تعذب الروح، ثم امرتهم بأن يأخذوه بديلاً عنها فيبكي دموزي ويرفع يديه إلى الاله (اوتو) اخ زوجته انانا ويرجوه ان يحول يديه وقدميه الى افاعي لكي يهرب منهم.

عند هذا الحد تنتهي اسطورة النزول لكنّ هناك نصاً آخر يحكي لنا مصير الاله دموزي وجد موزعاً على (٢٨) لوحاً وكسرة تشكل ما تحدثنا عنه في القسم الثاني من اساطير انانا ودموزي: اساطير ومراثي دموزي.

ان اسطورة نزول انانا الى العالم الاسفل السومرية هي من اكثر الاساطير شهرة في العالم القديم ولذلك فإننا نرى اسطورة أكدية مشابهة لها واساطير قديمة تدور في فلكها وهي معروفة للقراء والباحثين.

ونعتقد أن بعض أفكار هذه الأسطورة السومرية صُوِّرت على إناء مرمري (شكل ٨١) تظهر في جانب منه إرشكيگال وهي محاطة برموزها كالثعابين واللبوات، وفي الجانب الآخر إنانا وهي محاطة برموزها (الماء والنبات والحيوان)، وهناك من يرى أن هذه الصور تمثل طقس استنزال المطر وهذا أمرٌ بعيد عن مضامين هذه الصور.

ولكننا نجد في العام الواحد في نظر القدماء صدىً لكارثة الطوفان أو الحريق هما الصيف والشتاء (ايميش وانتين) والتتابع بينهما بل وأعياد الزكمك الاول والثاني الربيعي والخريفي عند السومريين «وحسبنا أن نذكر بأن الرواقيين قد أخذوا عن هيراقليط فكرة نهاية العالم بالحريق (اكبيروسس)، وان افلاطون (تيماوس) كان يعرف أن النهاية سوف تكون بالطوفان. لهاتين الكارثتين إيقاع يتوافق نوعاً ما مع إيقاع السنة العظمى. بحسب نص مفقود لأرسطو (protrept)، الكارثتان قد حدثتا في اعتدالين: الحريق في الاعتدال الصيفي، والطوفان في الاعتدال الشتوي» (الياد ١٩٩١ : ٦٣).

٢. التنين
(اسطورة الدمار القادم من العالم الأسفل)

الدمار الذي يأتي من العالم الأسفل لا يشبه ذلك الذي يأتي من العالم الأعلى لسببين الأول هو أن دمار العالم الأعلى دمارٌ شامل دوري يبدو وكأنه يخضع لايقاع كوني هائل تقرره الآلهة، أما دمار العالم الأسفل فهو دمارٌ جزئي لا ايقاع له ولا يأتي بصورة منتظمة تنفذه تنانين وعقاريت وشياطين كبرى تقبع في العالم الأسفل.

أما السبب الثاني فهو الدمار الأعلى يتحول إلى نوع من نهاية عالم قديم بال وبداية عالم جديد نشيط، فهو لحظة موت وحياة في نفس الوقت، أما الدمار الأسفل فلا يشير إلى ذلك بل يدل على وهلة ارتباك أو فوضى في قوانين العالم ولحظة عدم توازن، وتخلخل، وترنح سرعان ما تعود بعدها الحياة إلى سابق عهدها وتواصل ماضيها.

إن انفجار العالم الأسفل بتنانين مفزعة بين الحين والآخر يعطي انطباعاً على أن كائنات هذا العالم غير مستقرة كما أن أغلبها يشير إلى ذلك العالم الهيولي القديم الذي دفنته الذاكرة البشرية في أعماقها. . كائنات هيولى الماء الأول مثلاً.

ان هذه القوى القديمة المدفونة في عالم سفلي تحاول دائماً إرجاع الكون أو العالم إلى فوضاه الأولى ولذلك تظهر بأشكال شيطانية وهولات جبارة لا تنتمي إلى العالم البشري او الحيواني او الالهي المعروف، فقد نراها على شكل كائنات ذات رؤوس متعددة أو أجنحة عملاقة أو طيور او افاع أو اسماك غير طبيعية تنبثق (كما ينبثق البركان) من باطن الأرض وتحدث تأثيرها المحدودَ في الحياة، لكننا نرى دائماً في النهاية كيف يتصدى لها بطلٌ الهي أو بشري ليقتلها ويعيد الحياة إلى ما كانت عليه.

يكّون اللاهوت السومري الوجه العقائدي للأساطير والطقوس السومرية وتكاد الأساطير بأحكامها ونواميسها الكونية والالهية والأخلاقية والمعرفية تشكل الرحم الذي ظهر منه اللاهوت السومري.

وإذا كنا قد لمحنا الكثير من أوجه هذا اللاهوت ونحنُ نقرأ اساطير السومريين ونظامهم المثولوجي العميق، فلا شك أننا بحاجة في هذا الفصل لفرز منظومات هذا اللاهوت ومعرفة شبكته الروحية والعقلية.

١. الآلهة

عرفنا الكثير من الآلهة السومرية في الفصل السابق، بل وتوغلنا في أدق تفاصيلها وحياتها وتاريخها وسلالاتها ولكننا لم نعرف على وجه الدقة كيف كان الانسان السومري ينظر إلى آلهته هذه وكيف يتعامل معها وما هي صورتها العقلية والدينية والروحية عنده.

ولنبدأ أولاً بفكرة الألوهية التي هي، فكرة المقدّس وقد تهذّب وتعالى وأصبحت له طاقة الفعل كما يريد وطاقة الخلود ايضاً. لقد اصبح الإله بعيداً عن الإنسان بعد أن تجسد في أزمان الباليوليت في الحجر وفي النار وفي الحيوان وفي المرأة وفي الرجل. أما العصر السومري فقد أبعد الإله نسبياً عن الإنسان، لكنّ فكرة الالوهية ما كان لها ان توجد لولا الانسان، ولذلك فقد وصف الانسان في النصوص الإلهية نفسه، ولعبت فكرة الالوهية دوراً كبيراً في توازن الانسان مع الطبيعة والكون، إذ كيف يمكن له تصور كل هذا الذي حوله دون ان تكون الالوهية هي الحاجز بينه وبين الكون الرهيب اللامتناهي، وبدون فكرة الألوهية كن الإنسان سينضغط وينحصر ويتهشم عندما يواجه الكون مباشرة «ولهذا

فإن وصف الألوهة في هذه النصوص لم يكن سوى وصف مباشر لمشاعر الانسان نحو الكون وجبروته . ولم يكن الحسّ الذاتي بالإلوهة سوى الحسّ بعلاقة كونية حيوية غامرة راح الذهن القديم يفلسفها ويشخص فعلها كتجربة يومية من تجارِب وعي الانسان . . ولهذا لم يستطع المفكر القديم تخيل انسان بدون فكرة ما عن الألوهة وبدون ميل للتعبد لها وطريقة للتعليل معها ، بحثاً عن استقراره النفسي ، مبرهنا بذلك عن أن وعي الانسان لذاته هو دائماً متوازن مع وعيه للكون الكلي» (الحوراني ١٩٧٨ : ١٥٢) .

وكان الإنسان يشعر بوجود الآلهة ولكنه لا يراها رغم أنها كان تسيّر الكون وتسيطر عليه وتمرح في أرجائه . والكون من ناحية أخرى مكوّن من أجساد ومادة الآلهة فالسماء هي جسد أو مادة الاله (آن) والأرض هي جسد ومادة الإلهة (كي) والمياه (إنكي) والهواء (إنليل) وهكذا الكواكب وغيرها . لكننا لا نملك دليلاً (كما في اللاهوت والأساطير الأكدية والبابلية) بأن مادة الكون هي من جسد الإلهة الأم تيامت بل ان مادة الكون هي أجساد الآلهة المختصة بكل جزء فيه .

أما الإنسان فقد عرفنا أن مادته وجسده وروحه تتكون من مادة وجسد وروح الآلهة (وهذا ما عبرت عنه أساطير خلق الإنسان) ومن هذا المنطلق رأى السومري أن في كل إنسان روحاً الهية أو إلهاً شخصياً يرافقه ويرعى شؤونه ويحميه :

«ليس بمقدور الانسان ، بلا إله (شخصي)

أن يكسب خبزه ،

ولا بمقدور الفتى ان يحرك ذراعه ببطولة في المعركة »

« عندما تخطط للمستقبل يكون إلهك إلهك

وإذا لم تخطط للمستقبل ، ليس إلهك إلهك »

(فرانكفورت ١٩٨٠ : ٢٤١)

والإله الشخصي إله صغير يعنى بعائله الإنسان أو الإنسان نفسه ، وأقرب صورة له هو الحظ والنجاح في الحياة ، الانسان لا يؤثر في الكون والاحداث لانه أضعف من ذلك بكثير ، بل إن إلهه الشخصي هو الذي فعل ذلك وشجعه واهتم به ودفعه للنجاح ولذلك كان يرى السومريون أن الشخص الناجح المؤثر هو (من حصل على إله) .

إن الالوهية هي قوة داخل الانسان ترقى به إلى المثل العليا، وكلما بحث الانسان عن هذه القوة (عن طريق التدين والتقوى) اقترب منها واستطاع ان يتحاور معها (اي مع الآلهة) كما كان يحصل مع الملوك العظام والحكماء مثل زيود سدرا الذي أنقذ البشر من الطوفان . . والانسان الصابر وغيرهم كالكهنة والأنبياء . واذا كان تصور الآلهة ومكانتها قد جرى في العراق القديم وفق تصورات ذهنية وعقلية الا أن ذلك لم يخلُ من تأثيرات واضحة من المحيط البيئي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، ففي الألف الرابع قبل الميلاد مع صعود السومريين وظهور منجزاتهم العظيمة في الزراعة والرعي وبناء المدن والمعابد واستمراراً مع اكتشاف الآلهة الكونية الشاملة ظهر الاعتقاد قوياً بالآلهة الكونية الشاملة (آن ، انليل، كي، انكي) ومعها آلهة الكواكب الاساسية (أوتو، نانا، إنانا) وكانت هذه الآلهة السبعة هي الاساس في البانثيون الالهي.

أما في الألف الثالث قبل الميلاد وبسبب الحروب بين المدن السومرية نفسها وبين السومريين والغزاة من حولهم فقد رجحت كفة العبادة لآلهة المدن والآلهة المحلية لكل منطقة وهذا يؤكد انكماش الناس على أنفسهم. وفي الألف الثاني وبعد انهيار سومر واهتزاز ثقة الانسان بالكثير من آلهته الكبرى والمحلية ظهر مبدأ الإله الشخصي أكثر رجحاناً في العبادة رغم ظهور آلهة جديدة وقوية شمولية ومحلية.

وفي الألف الأول وبعد تداعي الامبراطوريات والدول والمدن واستبدالها ببعضها عمّ الاعتقاد بالشياطين والخوف من العفاريت بحيث عبد بعضها خوفاً. ورغم ان الانسان السومري اعتقد بأن الآلهة تشبهه في صورتها الا إنه تخيلها كبيرة وعملاقة بل وتخيلها مضيئة مشرقة، أما أماكن سكناها فلا شك أن الأعالي كانت هي هذه الاماكن ، فأولاً تصور ان جبل الكون (أن ـ كي) هو مكان الآلهة الأول ثم نزلت من هناك الى الأرض ، وصعد بعضها الى السماء . واتخذ بعضها من الكواكب والنجوم مساكن ، وذهب بعضها مثل (ارشكيگال ونركال وابناؤهما) إلى العالم الأسفل المظلم المترب ليحكموه ويعيشوا فيه .

واذا كان السومريون قد عكسوا حياتهم السياسية والاجتماعية (اي وجود مجلسين للشيوخ والشباب بالاضافة الى الملك) في شكل وهيكل اللاهوت الخاص بالآلهة، فكانت السلطة الإلهية انعكاساً للسلطة السياسية والاجتماعية وكان هناك مجلس كبار الآلهة الذي

يقابل مجلس كبار القوم (الشيوخ) ومجلس الآلهة الشباب (آلهة الكواكب) الذي يقابل مجلس (الشباب، العوام) .. وكان الملك هو سيد السلطة الاكبر والذي يمثله في المجمع الإلهي الاله إنليل الذي يمثل السلطة الالهية كاملة

«آه يا انليل

عندما خلقت السموات والأرض

كنتَ انتَ الملك»

(الطعان ١٩٨١ : ٣٦٨).

ثم أصبح الاله إنليل مصدر كل سلطة على الأرض فهو الذي يعيّن الملك وهو الذي يهب القوة لمن يشاء

«أنت الذي تلفظ اسم الملك، واسم الحاكم

ذلك لأن خلق الإله، والملك

امتياز خاص بك»

(الطعان ١٩٨١ : ٣٦٨).

وكان الملوك يتباهون أنهم أبناء آلهة بعينهم، وانهم استمدوا الحكم والسلطات من إله محدد.

وللآلهة أيضاً رموز مرسومة أو منحوته تدلّ عليهم وتكون في الغالب مشيرةً إلى أحد صفاتهم، وكانت رموز الآلهة تتطور من عصر إلى آخر، وقد تبقى ثابتةً. ومن الضروري الاشارة إلى أن رموز الآلهة لم تبدأ مع السومريين بل بدأت منذ عصر حسونة وسامراء وحلف حيث أراد الإنسان أن يشير لبعض قوى الكون بالعلامات والاشارات والرموز (انظر الماجدي ١٩٩٧).

وكانت الرموز ضرورية لتجريد الإله ولجعله مفارقاً العالم المادي الذي كان الإنسان يقع ضمنه، ورغم ذلك لم يكفّ الإنسان السومري عن تصوير الآلهة رسماً ونحتاً بالاضافة إلى رموزها. وقد جمعنا وفصّلنا شرح رموز الآلهة السومرية في الفصل الثاني.

وكان للآلهة الكبيرة رسلاً أو وزراء ينفذون أوامرها ويؤدون المهام المتعلقة بهم وكان رسل وسفراء الآلهة الذكور ذكوراً ورسل وسفراء الآلهة الاناث إناثاً ونذكر فيما يلي أهمهم :

١ . ببسوكال : رسول الإله آن والاله زيابا

٢ . ننشوير : رسولة الإلهة إنانا ، ورسول الإله آن . ويقابل اسمه هنا في الأكدية (إلبرات) ويعادل ببسوكال .

٣ . نسكو : رسول الاله إنليل .

٤ . أسيمو (ايسمود) : رسول الإله إنكي .

٥ . ممّو : رسول الإله أبسو .

٦ . بونئه : رسول الإله أوتو .

٧ . نمتار : رسول الإله ارشكيگال .

٨ . أشوم : رسول الإله إيرا .

كذلك كانت هناك أرقام خاصة ببعض الآلهة (الكبيرة منها بالذات) وكانت الأرقام السومرية الالهية مرتبطة بالنظام الستيني الرياضي للسومريين وهذا جدول بسيط بالاعداد الرمزية او السريّة لكبار الآلهة السومرية والفاظها :

الاله السومري	رقمه السرّي	لفظ الرقم باللغة السومرية
١ . آن	٦٠	كش
٢ . انليل ، ننورتا ، ننگرسو	٥٠	نينو
٣ . إنكي	٤٠	نيمين
٤ . نانا	٣٠	اوشو
٥ . اوتو	٢٠	نيش
٦ . إنانا	١٥	إي أو
٧ . أدد	١٠	أو

٢. القوة الألهية

كانت القوة الالهية تتجسد عند السومري بما خلقته الآلهة من عوالم واكوان وكائنات حية وبشر، ولكن سّر القوة الالهية أو جوهرها كان يكمن في أربع انواعٍ من القوى الالهية وهي :

أ. الكلمة (Inim , gü)

حين حلّ العصر الحجري الحديث في العراق القديم، وظهرت المكانة المتميزة للإلهة الام وللمرأة باعتبارهما عنصر الاخصاب في الطبيعة ساد اعتقاد خلقي الهي اساس هو قوة الولادة عن طريق الرحم، وكان هذا المبدأ الالهي النيوليثي يعتمد في ذلك على ما يلمسهُ الإنسان من قدرة المرأة على الانجاب.

وما أن حلّ الكالكوليت (الحجري المعدني) حتى انقلبت القوة الإلهية في الخلق وساد مبدأ جديد هو البزر وقوة البذور علي التوالد عن طريق المطر وكان المنيّ هو اساس المعتقد الجديد حيث الاله يلقح الكون بمنيّه.

وفي العصر السومري ظهر مبدأ جديد هو (الكلمة) الذي حلّ محل الرحم النيوليثي والمني الكالكوليتي . . وصار الإله يخلق لا لأنه يضاجع أو يقذف منيه فحسب بل صار له القدرة على الخلق كلما نطق أو قال للأشياء : كن فتكون. وهكذا يرى صموئيل نوح كريمر «إن فلا سفتنا السومريين طوروا مبدءً صار فيما بعد عقيدةً في أنحاء المشرق الأدنى كافة، وهو مبدأ القوة الخالقة الكامنة في الكلمة الالهية. فكل ما كان على الإله الخالق ان يفعله، وفقاً لهذا المبدأ، هو أن يضع خططه ينطق بالكلمة ويعلن الاسم، »(كريمر ب.ت: ١٥٢).

ويمكننا تقسيم قوة الكلمة (آنيم) إلى ثلاثة أنواع هي :

١ . الفكرة (نا)

٢ . الكلمة (كو)

٣ . الاسم (نام)

والفكرة هي القوة الخالقة غير المنطوقة وهي قوةٌ إلهية فاعلة رغم أنها كامنة ، أما

الكلمة المنطوقة فهي المقدسة عند السومريين وبها يخلق العالم فقد كانت كلمة انليل لا تتبدل وهي حياة جميع البلاد :

«*حكمتك هي الزرع، كلمتك هي الحبوب*

كلمتك هي الماء الغامر، حياة جميع البلاد،،

(كريمر ١٩٨٦ : ٨١).

وكانت الكلمة تأخذ صيغة المني عند إنكي بشكل خاص، حيث مني إنكي هو المياه التي فيها سرّ الحياة وفي هذه الصيغة مزج بين عناصر كالكوليتية وعناصر سومرية في الخلق.

وقد تطور مفهوم الكلمة عند اليونان وصار (اللوغوس) واستعمل للتعبير عن الخلق في انجيل يوحنا «في البدء كان الكلمة»

أما الأسم فهو شكل آخر من أشكال الكلمة وكان السومريون يعتقدون أن إطلاق إسم على الشيء هو بمثابة خلق له، ولذلك كان الوليد الجديد يطلق عليه الاسم مباشرة ويعتبر ذلك بمثابة العماد له.

وأعظم ما فعله السومريون إطلاقهم الأسماء على الاشياء وتصنيفها وتوبيبها حتى أن مدنيات الأرض ما زالت تدين لذلك الإجراء، لأن اطلاق الاسم على الشيء هو بمثابة فرزه ومعرفته قياساً لغيره . .

وكان الساحر إذا أراد عمل سحر فإنه يستخدم قوة الكلمة أو الاسم لأن فيها قوة الشيء نفسه. ويمكن لقانون التشابه السحري أن يؤكد هذا فاسم الانسان او الشيء شبيه به ولذلك يستعمل في الطقس السحري على أنه هو ذاته . . وكان على الساحر معرفة اسم المريض الذي يشافيه متلفظاً اسمه بصوت ملائم او كاتباً له بطريقة ملائمة. ولذلك احتلت التعاويذ السحرية مكانةً مهمة في السحر السومري لانها كلمات واسماء له المقدرة على التأثير .

ب) الـ (نم) أو سمة الشيء وصفاته :

هذه الكلمة تعني صفة أو صفات الشيء وسماته وطبيعته وتقابلها في الأكدية كلمة

(شمتو) اي سمة الشيء وطبيعته «وكمثال على استعمال الكلمة السومرية نجد لفظة (لولو) لديهم تعني الانسان، وعندما تقرنه بها كلمة (نم) تصبح (نملولو) وتعني عندئذ (الانسانية) دلالة على السلوك الانساني وليس إلى مجموعة الناس»، (الحوراني ١٩٨٧ : ١٢٠).

ويبدو أن إطلاق (نم) الاشياء من قبل الإله يعني تحديد صفاته وسماته وتعيين جوهره في ذاته .

ج.الـ (مي) أي النواميس المقدسة

تعني (مي) نواميس الآلهة المقدسة التي يستطيع بها الانسان أن يتحكم ويسيطر ويستخدم الأشياء أو ظواهر الأشياء والطبيعة . فإذا كانت الـ (نم) تحدد طبيعة الشيء ذاته فإن الـ(مي) تعبر عن الشيء كموضوع خارج ذاته اي الوجه الاجتماعي والحضاري والفني الذي يستخدم فيه ولذلك فإن كلمة النواميس الالهية أو المقدسة ترجمة صالحة له .

والمقابل الأكدي لهذه الكلمة هي (فرضو) أو (برضو) أو (برصو) وهي تشير الى كلمة (فرض) العربية وتدل القوانين المفروضة الثابتة للطبيعة (الفروض) .

وقد قدمت لنا (اسطورة انانا وانكي) ونقل نواميس الحضارة الالهية الـ(مي) من أريدو إلى أوروك التي يقال انها في حدود المئة ناموس ولكننا احصيناها فوجدناها ثمانين وهي كما قدمتها الاسطورة متسلسلة بالشكل التالي : (الشوك ١٩٩٢ : ٣١) .

١ . الكهنوتية العليا
٢ . الألوهية
٣ . التاج الرفيع، الخالد .
٤ . عرش الملكية .
٥ . الصولجان السامي
٦ . العصا
٧ . ذراع القياس المقدس
٨ . العرش السامي
٩ . فن الرعاية
١٠ . الملكية

وتحدث اننا الاله انكي أن كان يستطيع تسليمها نواميس (الكهنوتية العليا ، والالوهية، والتاج الرفيع ، الخالد، عرش الملكية) فسلمها هذه النواميس ثم زاد عليها بقية النواميس

«رفع انكي كأسه وتقارع مع إنانا النخب مرة ثانية :

أصالة عن نفسي . . ونيابة عن مزاري المقدس

سأمنح ابنتي إنانا

الحقيقة !

الهبوط إلى العالم الأسفل ! الصعود من العالم الأسفل!

فن عمل الحب ! تقبيل القضيب !

إنانا أجابت :

أتسلمها !

رفع إنكي كأسه وتقارع مع انانا النخب للمرة الثالثة

أصالة عن نفسي! ونيابة عن مزاري المقدس

سامنح ابنتي انانا

كهانة السماء المقدسة!

إقامة المناحات! إنعاش القلب !

إصدار الأحكام! إصدار القرارات

إنانا أجابت : أتسلمها !

(أربع عشرة مرة رفع انكي كأسه لانانا

اربع عشرة مرة منح ابنته خمسة me، ستةme، سبعة Me اربع عشرة مرة تسلمت انانا الـMe المقدسة ،،

(الشوك ١٩٩٢ : ٣٠)

بعدها أخذت النواميس التي بلغ عددها في النص (٨٠ ناموساً) ووضعت في زورق السماء وبدأت بالرحيل على ساحل أريدو إلى اوروك بينما كان إنكي يترنح في سكره،

٣٧ . كاهنة السماء المقدسة
٣٨ . الآلة الموسيقية المدويّة
٣٩ . فن الغناء
٤٠ . فن رئيس الكهنة
٤١ . فن البطل
٤٢ . فن السلطان
٤٣ . فن الخيانة
٤٤ . فن الاستقامة
٤٥ . سلب المدن
٤٦ . إقامة المناحات
٤٧ . إبهاج القلب
٤٨ . الخديعة
٤٩ . البلاد المتمردة
٥٠ . فن الحنان
٥١ . السفر
٥٢ . المأوى الآمن
٥٣ . حرفة النجار
٥٤ . حرفة النّحاس
٥٥ . حرفة الكاتب
٥٦ . حرفة الحداد
٥٧ . حرفة صانع الجلود
٥٨ . حرفة القّصار
٥٩ . حرفة البناء
٦٠ . حرفة ناسج القصب
٦١ . الأذن المصغية
٦٢ . ملكة الانتباه

٦٣ . طقوس التطهير المقدسة
٦٤ . الحظيرة التي توفر الطعام
٦٥ . تكويم الجمر
٦٦ . الحظيرة
٦٧ . الخوف
٦٨ . الذعر
٦٩ . الفزع
٧٠ . الأسد ذو الاسنان الفتاكة
٧١ . إضرام النار
٧٢ . إطفاء النار
٧٣ . الذراع الناحلة
٧٤ . العائلة الملتمة الشمل
٧٥ . الإنسال
٧٦ . تأجيج المشاحنات
٧٧ . المشورة
٧٨ . تهدئة الخاطر
٧٩ . إصدار ا لاحكام
٨٠ . صنع القرارات

ويمكن أن نلاحظ أن هذه النواميس تشمل أغلب جوانب الحياة بوجوهها الايجابية والسلبية، وقد كان هذا مقصوداً للإشارة إلى السيطرة على كل ما في الحياة.

٤) لوح القدر (لوح المصائر):

يشكل هذا (اللوح المحفوظ) أقدار ومصائر العالم والناس من قبل الآلهة وتحديداً من قبل الإله انليل الذي يحتفظ به تحت أنفه، وبالرغم من أن الآلهة مصدر السلطة وهي القادرة على منحها وحجبها لمن تريد من البشر، الأأن لوح المصائر يبقى هو الاساس الذي كتب فيه مصائر العالم.

وقد جرّب أحد شياطين العالم الأسفل (في أسطورة سومرية الأصل أكدية الصياغة) وهو الطائر العملاق (زو) أن يسرق الواح القدر من الإله إنليل . . فما كان من الكون الآ أن بدأ يغرق في العلماء

«عندما مضى إنليل ليستحم في الماء الصافي

وخلع تاجه فوضعه على العرش

خطف ألواح الأقدار فاغتصب السلطة والملك والسيادة

ثم طار زو حيث اختفى في جباله

فساد الوجوم وعمّ الصمت

إنليل أبو الآلهة ، قد شلت حركته

فالحرم المقدس قد سرقت هيبته وضاعت روعته ، ،

(الواح ب. ت ١٨٣).

وقد خلّدت بعض الأختام الأسطوانية هذه الحادثة (شكل) حيث قدّم (زو) للمحاكمة بعد أن قبض عليه الاله ننورتا إبن الإله إنليل .

٣. التعددية والتفريد والتوحيد في العقيدة الدينية السومرية

لاشك أن التعددية Polytheism هي التي غلبت على العقيدة الدينية السومرية وطبعتها بطابعها الخاص الذي صار من سمات جميع ديانات الشرق الأدنى القديم . . ولذلك ساد الفكر السومري الايمان بعدد كبير من الآلهة . ولكن هذه الآلهة لم تأت دفعة واحدة بل أن جذورها امتدت إلى فترات الكالكوليت حيث بدأ الانقلاب الذكوري وترسخ الثالوث الالهي بعد ان كان توحيداً انثوياً في النيوليت ، ومن هذا الثالوث ظهرت شجرة الآلهة السومرية .

ونرى أن الالهة الأولى هي (نمّو) التي يعني اسمها ماء الأم وربما كان اسمها القديم (نِ) الذي يعني في اللغات المقطعية الأم . ثم الاله (آن) الذي يمثل الإله الذكر الأب الذي

أُحيلت سلطاته اولاً إلى الإله (إنكي) الذي يجمع بين صفات الأم والأب. ويبدو أن انقلاباً ذكورياً حاسماً حصل مع الاله (انليل) الذي أصبح يمثل السلطة والقوة والملوكية. وكان هذا مدعاة لأن تتشكل عشرات الآلهة من الأم والاب والابن وتظهر شجرة كبيرة للآلهة ويصير كل اله مسؤولاً عن قضية.

لكن التعددية السومرية وهي تتفرع لا تخلو من آثار تفريدية Henotheism وتوحيدية Monotheism . فقد أشار السومريون بذكاء حاد إلى أن الإله (آن) هو رب العالم باكمله، ورب الناس أجمعين وهي اشارة توحيدية واضحة. وأن الإله (إنليل) هو رب السومريين حصراً (ذوي الرؤوس السود) فهو إله سومر القومي وهذا ما نرى انه اشارة تفريدية واضحة، ولذلك نميل للإعتقاد أن العقيدة الدينية السومرية حملت التعددية بأرجحية واضحة ولكنها حملت أيضاً التفريدية والتوحيدية معاً.

ولكي ندلل أكثر على كلامنا هذا نقول أن العبريين الذين أخذوا من السومريين الاله انليل وأسموه بأحد رموزه (الحمامة السماوية) التي تسمى عند السومريين (اياهو) وهو الاله (يهوه)، هؤلاء هم الذين ارتبط بهم التفريد ولكن جذوره الحقيقية كانت عند السومريين وصفات (يهوه) هي تماماً صفات (إنليل).

كذلك نرى أن التوحيد الذي نزّه الله عن التعدد جاء من الاله (ايل) الذي أُخذ من الاله (آن) بدليل ان علامة (آن) هي علامة إيل.

ونرى أن هذا الموضوع يحتاج إلى وقفات تحليلية علمية دقيقة تعتمد على النصوص الحرفية السومرية التي ستقدم لنا حلولاً كثيرة.

٤. الأرواحية Animism

وهي عقيدة تصور أن كل الاشياء والظواهر في الكون تأتي من وجود روح حيّة فيها، وأن هذه الروح لها قوة مؤثرة على ما يحيطها وعلى الانسان وهي قوة روحية عاقلة ومفكرة ومدبرة، والشكل الاساس لظهور هذه الروح هو في مفهوم (الاله).

وقد أخذ السومريون الأروحية من العقائد السحرية التي كانت سائدة قبلهم واستمرت معهم. فالأرواحية عقيدة سحرية تقف مع الفتيشية والطوطمية في مستويات مختلفة من زاوية النظر الاّ أن ما يجمع الثلاثة الإيمان بوجود قوة power وراء الاشياء

إذا اعطاك صوفاً أسود ،

إذا اعطاك طحيناً أبيض ،

سأعطيك صوفاً أبيض

إذا أعطاك جعة

سأعطيك حليباً صراحاً

إذا أعطاك خبزاً

سأعطيك جبناً حلواً

أنا الذي سأعطي الفلاح بقايا قشدتي

أنا الذي سأعطي الفلاح بقايا حليبي

لماذا تتحدثين عن الفلاح ؟

ماذا لديه اكثر مني ؟ ، ،

(الشوك ١٩٩٢ : ٥٠).

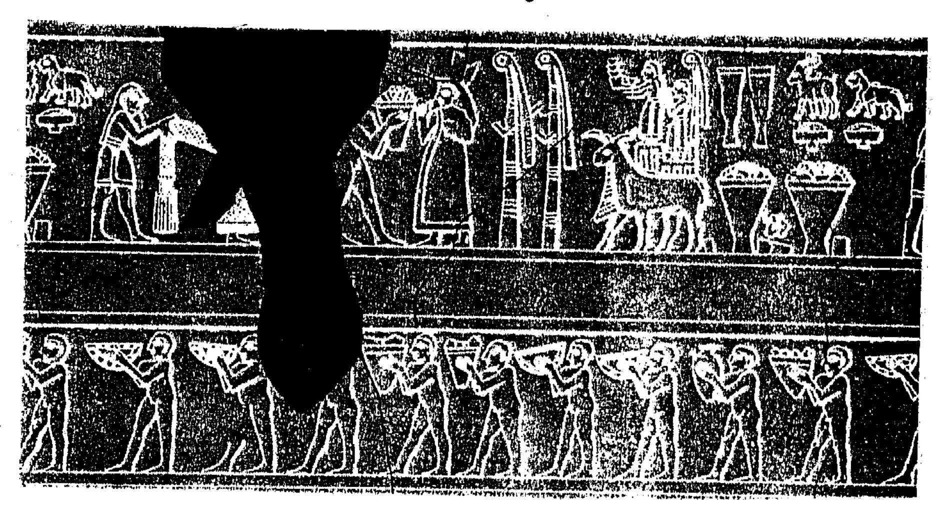

شكل (٧٠)

تقديم الهدايا إلى إنانا من قبل دموزي وأتباعه

ويضبط الأوضاع من خلال القوانين والمراسيم التي يصدرها، كما أنهم لاحظوا أساليب تنظيم الحياة الاقتصادية وأهمية الوسائل المعتمدة، فتصوروا أن الأمور تجري كذلك في عالم الآلهة، بل إنهم رأوا أن هذا العالم هو الذي عمد إلى إيجاد العالم الكوني، وخلق الانسان وجعله في خدمته» (سيدا ١٩٩٥ : ١٧٠).

٦ . الإنسان

عرّفتنا الأساطير السومرية أن الإنسان خُلق من قبل الآلهة لكي يقوم عنها بالأعمال الشاقة ولكي يخدمها ويكون عبداً لها .

وفي الفلسفة الدينية العميقة للسومريين أن الإنسان هو إله ولكنه إله ضعيف أو عاجز أو ميت ولذلك فإننا نشاهد الإنسان الذي خلقه الاله إنكي والإنسان الذي خلقته الآلهة ننماخ كانا مصابين بنقوص وأمراض كثيرة حالت دون أن يكونا سويين .

فالإنسان إذن إله ناقص مريض عاجز ميت . ولذلك فانه لا يتمتع مثل بقية الآلهة بالخلود .

وإذا كانت الآلهة تتناسل عن بعضها بالولادة دون مرجعيات، فإن الإنسان صنع من إله مقتول أو من طين أو من طين وماء أو من كلمة صاغها الرب في فمه أولاً ثم اطلقها . وهكذا يكون الانسان مربوطاً كلياً بالآلهة فهو لا يستطيع فعل شيء دونهم، كذلك فإن هذا الكون الواسع لا يمكن مجابهته دون آلهة تستطيع إدارته وتعاون الانسان في التعامل معه .

ثم إن الالوهية كانت تبدو في الإنسان كما لو أنها عقله الذي يجعله يميز بين الصواب والخطأ «إنها البعد الآخر للإنسان ولا تكون حقيقة إنسانية بدونها، فهي القوة الجسدية والروحية معاً . وقد عبر أحد الطلبة السومريين عن مفهوم الألوهة في سومر القديمة وأوضح كيف أنها فعل وعي حي في الانسان خلال خطاب يخاطب به معلمه لشكره فقال يخاطبه : أنت إله . وحيث ان الاله يصنع الانسان فأنت إلهي لأنك صنعت فيّ الانسان» (الحوراني ١٩٧٨ : ١٥٥) .

كان السومريون يرون في كل صفة غير جسدية وغير مرئية أو محسوسة قوة لاهوتية، هكذا يرى الحوراني، وهذا صحيح إلى حد بعيد فالقوى الكونية كانت قوى

إلهية، وكذلك الإنسانية الخارقة التي يصعب تفسيرها بسهولة فقد كانت بنظرهم نوعاً من القوة اللاهوتية داخل الإنسان فكانوا يعطوها بنسب محسوبة للبشر مثل كلگامش الذي كان ثلثاه إلهاً، وربما الملك دموزي الذي أُلهِّ بسبب صلته بالإلهة إنانا وصارت له أفعال خارقة. ولذلك نعتقد أن الملوك الأكديين الذين أُلهو (مثل سرجون الأكدي وابنه نرامسين) كان ذلك بسبب أفعالهم الخارقة والعظيمة لأن فيهم جزءً الوهياً بارزاً غير مرئي، ولم يكن المقصود منذ لك عبادتهم، ولذلك وضعت علامة الأُلوهية (دنگر) أمام أسمائهم.

إن علامة الالوهية (دنگر بالسومرية، إيل بالأكدية) كانت علامة موحدة تدل على الألوهية اينما وجدت وتوضع أمام أسماء الآلهة . . وفي هذا الاجراء ما يدل على تجريد الالوهية واعتبارها صفةً مطلقة لقوة عظمى تسيّر الكون والعالم والإنسان. وكان السومري يرى أن هذه القوة توجد في السماء وأن الإله (آن) هو الرب الواحد المطلق عند السومريين وهو يعيش في السماء السابعة بعيداً حتى عن الآلهة الآخرين الذين ينفذون إرادته وأفعاله، فهو إله العالم والوجود والكون، أما إنليل فهو إله الهواء ولكنه إله سومر القومي حصراً.

«إن اندماج فكرة الألوهة بالعلو والسماء في الذهن القديم - حيث كانت اشارة الألوهة تعني العلو والسماء - كذلك هذا الإندماج هو ذو دلالة هامة على العلاقة التي تعبر عن ذاتها بالمشاعر اللاهوتية المشدودة نحو المطلق الكوني. وهي ذاتها التي أشار لها بيلار دي شاردين حين قوله: «الإله هو المجموع الكوني في كل إنسان» (الحوراني ١٩٨٧ : ١٥٧).

وعلامة الأُلوهية في أصلها أيضاً تشير الى الجهات الأربعة وما بينها، أي إلى ثمانية جهات، وهذا يعني أن الإله الأعظم رغم كونه في السماء فهو موجود في كل مكان. وكذلك تشير إلى الضوء اللامع في الفضاء المدلهم الواسع أي إلى النجمة باعتبارها نبضاً في الظلام، فهو روح وقلب اللامتناهي وهكذا وسعت هذه العلامة عدة معاني (السماء، الاعالي، الجهات، الضوء النابض في الظلام).

الإنسان إذا مات ذهب باتجاه عمودي نحو الأسفل إلى القبر ثم العالم الأسفل

٤. إنانا تلتمس موافقة أبيها القمر

تخبرنا هذه القصيدة أن انانا تشعر بالحاجة لكي تلتمس موافقة أبيها الإله نانا (إله القمر) قبل أن تمنح نفسها الى عاشقها دموزي. . وتبدأ القصيدة بذكر تفاصيل عن زينة انانا لمختلف انحاء جسدها بمختلف انواع الحجارة الكريمة والمجوهرات والحلي واللآلئ فصدرها مزينٌ بحجر اللازورد، واردافها ورأسها مزينة بالخرز البيضوي، وضفائر شعرها مزينة بحجر الدورو وآذانها مزينة باقراط برونزية، ووجهها وانفها وعجيزتها بأنواع الحلي، سرتها مزينة بالأبستر اللامع، وفرجها مزين بالصفصاف، وأقدمها مزينة بخفين.

وبعد أن تتزين إنانا بزينتها هذه وتخرج ترى دموزي واقفاً لها بباب حجر اللازورد (باب جيبار) لكنها ترسل رسالةً إلى أبيها تخبره فيها بأنها تريد الزواج من دموزي:

«سوف آخذ الى هناك رجل قلبي،

سوف آخذ إلى هناك أمّا وشوم گال آنّا،

سوف يضع يده بيدي

ويضم قلبه إلى قلبي

وضعه اليد باليد – ينعش الفؤاد

ضمّه القلب الى القلب – لذته بالغة الحلاوة»

(كريمر ١٩٨٦: ١١٢).

٥. إنانا تلتمس موافقة أمها ننگال

في هذه القصيدة تلتمس انانا موافقة ونصح امها حيث يأتي دموزي الى بيت انانا وهو يحمل هداياه من اللبن والقشدة والجعة ليطلب يدها، فتبدي انانا تردداً في قبول مجيئه لكن أمها تحثها على الإذن له بالدخول:

«هو ذا الفتى، هو أبوك

هو ذا الفتى، هو امك

أمه تدللك كما تدللك امك

الكالكوليت الذي كان المعبد أهم مظاهر أي ان الكهنة ارتبطوا بالمعبد وكانوا يتزعمون المجتمع على أسس دينية وسحرية وقدرات خاصة وكانت العصور الحجرية تعج بهم ويطلق عليهم الباحثون اسم (الشامان) .

في مزهرية أوروك من العصر شبه الكتابي ظهرت صور لرجال عراة يقدمون الأضاحي وهؤلاء هم الكهنة وكانوا غير مختونين .

وهناك ما يشير بوضوح إلى أن الملوك الأوائل كانوا كهنةً ثم انفصلت وظيفة الملك عن الكاهن . لقد كان الحاكم أو الملك الأول يسمى بالسومرية باتيزي أو إنسي ثم انفصلت هذه الوظيفة إلى : الملك (لوگال Lugal) والكاهن أين En) .

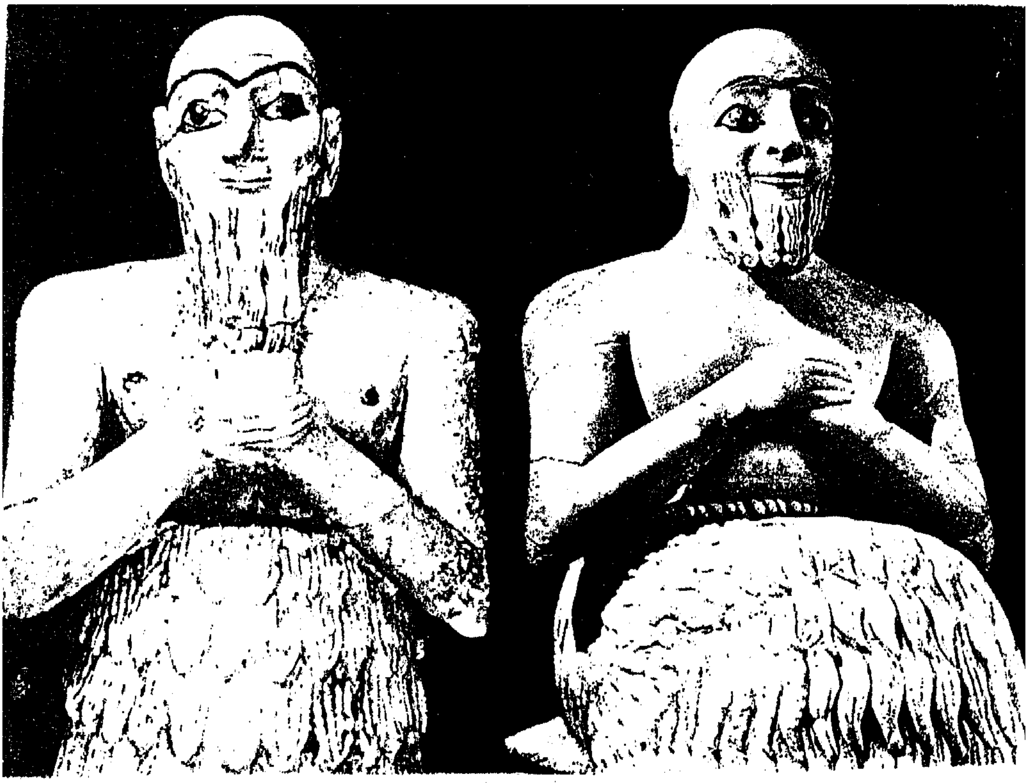

شكل (٨٢)
تمثالان للكاهن نيني والحارس أبيخ
ماري النصف الأول من الألف الثالث ق.م

وكان الكاهن (اين) يمثل أعظم الكهنة ويقع في قمة الهرم الكهنوتي السومري، ونحن نظن ان كلمة (عين) أو (العين) العربية هي من بقايا تلك الكلمة السومرية حيث الأعيان هم سادة البلاد وأعلامها. أما الكاهنة التي تقابل (الإين) فتسمى (إينتو) اي الكاهنة العليا (Nin - Dingir) اما الراتب الكهنوتية تحت هذا المنصب فتنقسم إلى :

أ- **المرتبة العليا** : وتتضمن ثلاث درجات

١ . الدرجة الأولى (السانكا) وهم الكهنة الأعلون وتضم الـ (ماخ) وهو الكاهن الأعلى أو الكبير وهو كاهن يتم ترشيحه وسط شروط خاصة جداً ويعّد تكريسه حدثاً كبيراً، ولكل واحد من آلهة المدن السومرية كاهن أعلى خاص.

٢ . الدرجة الثانية : وهم كهنة القّداس والمسؤولون عن بوابة المعبد ويسمون كهنة الـ (اوريكالو) أي الحرس.

شكل (٨٣)
كاهن سومري يمسك اناءً ويؤدي طقساً

أ) الكهنة يهيئون الفراش المخصب للعروسين في معبد إنانا :

في معبد إنانا (اي - أنّا) اي بيت السماء يقوم الكهنة (لابسو الكتّان) باعداد الهيكل وغسله بالماء ثم يخبرون دموزي الذي كان قد قدم إلى المعبد بأن انانا قد جاءت ويحثّونه على التقدم نحو عرشها . فيتقدم دموزي نحوها وتعده انانا بانها ستحقق الرفاه للبلاد وللناس وسيسود العدل ، فيقوم دموزي بالطلب من انانا ان توزع الشراب والطعام :

شكل (٧٣)

كاهنان بدور دوموزي وإنانا ، نفر، الألف الثاني ق.م

«صدرك يا اينين هو حقل

أي إنانا ، صدرك هو حقل :

حقلٌ متسعٌ ينتج الزروع

حقلٌ فسيحٌ يسكب الحبوب!

إنشري من أجل الملك

الشراب بوفرة ، إنشري من أجل الملك ،

فيضاً من الأطعمة

وقـد يكون في الإسـم السـومـري للكاهنة العليـا (اينتـو) وهو (Nin- Dingir) اي (السيدة الإلهـة) ما يفسر أيضاً حالة عدم زواج وإنجاب هذه الكاهنة لانها كانت تعتبر بمصاف الآلهة وأن لها قدسية خاصة تمنعها من الإتصال بالبشر . . وربما لانها كانت تعتبر بمثابة زوجة الاله .

أما أصناف الكاهنات السومريات فهو كما يلي :

أ) السيدة الإلهة (Nin - Dingir) وتسمى الأكدية (اينتو) وهذا النوع من الكاهنات لا يقع ضمن المراتب العليا أو العادية للكهنة بل يحتل أرفع وأسمى وأقدس رتبة، ولها مكانة دينية واجتماعية كبيرة جداً توازي طبقة الملوك. وتكون مثل هذه الكاهنة عادة إبنة أو اخت ملك.

وكانت هذه الكاهنة تعتبر قرينة الإله وزوجته ولها غرفة في أعلى زقورة المعبد وفيها سرير واسع ومزخرف، وكانت هذه الكاهنة هي المرشحة لطقوس الزواج المقدس. وبالاضافة لذلك كانت تقوم باستطلاع الفأل والعرافة . وهناك ما يؤكد أن جميع الملوك السومريين والساميين والعيلاميين قد وهبوا بناتهم لهذه الوظيفة .

ب. الراهبة (لوكر Luker) وتسمى بالأكدية (ناديتو Naditu) أي النادية ،وهي المرأة التي نذرها أبوها للخدمة في معبد أحد الآلهة وكان لكل إله نادية مثل نادية ننورتا ونادية نانا وغيرهم وكانت الراهبة تقوم أحياناً بدور الكاهنة العليا في الزواج المقدس وربما كانت الوظيفة الأساسية لها وظيفة إدارية، وكان هناك ما يشير إلى أنها قد تقوم بطقوس تقديم قربان (البكُتّو Piqittu) الذي يقام في نهاية الشهر القمري عندما يهبط القمر الى العالم الأسفل، واصبح هذا القربان بشير الى تقديم القرابين للموتى . . وكانت الراهبة تقوم به لأجل الراهبات الميتات قبلها ويتضمن الطقس تقديم (اللحم والخبز والبيرة).

وكانت الراهبة ممنوعة من الزواج والإنجاب ولذلك كانت تعيش حياةً طويلة لتجنبها مخاطر الولادة ولأنها تعيش حياة منعزلة بعيدة عن الاوبئة والامراض .

ج. القـديسـة (نوكك Nu.gig) وتسـمى بالأكـدية (قـديشـتـو Quadishtu) أي القديسة، وتعني كلمتها بالسومرية (الخالية من الأمراض) وقد ترجمها بعض الباحثين ببغية المعبد وكان متجنياً وسبب لبساً وسوء فهم كبير في معالجة امر الكاهنات السومريات

وكاهنات العراق القديم بعامة. لقد عالج الكثير من الباحثين هذا الموضوع بمغالطة كبيرة كان الأساس فيها ما ترجمه عالم الآثار (Jensen) للمكان الخاص الذي تسكنه كاهنات الناديتو وهو (gagumi) فقال انه (الماخور brothel) وكان من الطبيعي ان يتبع ذلك الاعتقاد بأن هذا الصنف من الكاهنات كان من البغايا وان هناك عمليات جنسية تجري داخل المعبد طيلة أيام السنة. (انظر Harris, 1964 : 106 f)

ولكن ترجمتها الدقيقة كما أسلفنا هو (الدير) الذي يقلب الفهم كلياً.

ويذكر ان لقب Nu gig كان يطلق على عدد من الالهات مثل (انانا، ننماخ، ننسينا).

شكل (٨٥)
آلهة وكهنة وكاهنات من سومر
معبد تل اسمر (آبو) النصف الأول من الألف الثالث ق.م

د. المنذورة (نوبار Nu. bar) وتسمى بالأكدية كُلماشيتو Kulmshitu ومعناها المنذورة Votaressاو المكرسّة Devotee وتنحدر المنذورة من العوامل الغنية ولها الحق بالزواج، ولم تكن المنذورة تعيش في المعبد بل في بيت أبيها حتى الزواج.

هـ. المرافقة (سوكي Su. ge) وتسمى بالأكدية شوكيتو Sugetu وهي الراهبة غير المنذورة او المرأة السجينة، ولم تكن مكرسةً او منذورة لإله معين ويبدو أن لها علاقة بالمشاركة باحتفالات الزواج المقدس وكان لها الحق بالزواج، أو بانجاب الاطفال لصالح الكاهنة النادية المحرومة من الإنجاب.

و. الحاجبة (سال زكروم Sal. zikrum) وهو نفس الاسم الأكدي - وقد ترجمها البعض الى (المرأة الرجل) (أو الخنثى) وهي راهبة لها علاقة بالمعبد وغير منذورة الى إله معين ويبدو أنها تقوم بجلب أو توفير من يقوم بالخدمة في القصر والمعبد عن طريق التبني.

هذه هي أصناف الكاهنات السومريات اللائي لهن علاقة بالمعبد والآلهة والطقوس الدينية أما ما يسمى بالبغيّ فهي امرأة عادية كانت تمارس فن الحب والجنس وليس لها بالمعبد أية صلةمن قريب او بعيد، وقد أتى الصاق هذه الصفة بالكاهنات من ثلاثة مصادر:

١. ما قاله هيردوتس من أن على الكاهنات البابليات أو النساء البابليات جميعاً ممارسة البغاء ولو مرةً في العمر. وقد كان هيرودتث الذي لم يزر بابل بل كتب عنها وهو في اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد متأثراً بالبيئة الإغريقية التي كانت تمتهن المرأة وتجبر المرأة على أن تكون مومساً قبل الزواج.

٢. ترجمة جينسن لدير عزلة الناديات ترجمة خاطئة (الماخور)

٣. الزواج المقدس الذي هو طقس مقدس يجري بين اعظم الكاهنات (إينتو) والإله الممثل بالملك، وقد وجود بعض الباحثين الغربيين في هذه الممارسة نوعاً من البغاء عمّموها على كاهنات العراق القديم. واعتبروا البغي التي تلجأ الى المعبد وكأنها تمارس ها الفعل في المعبد.

البغيّ بالسومرية اسمها (Kar. kid) وتقابلها في الأكدية كلمة (حريمتو Harimtu) التي تقابلها في العربية كلمة الحريم والحرمة ونرى بقاياها في الجنوب العراقي الشعبي بمعنى (الخارمة) أي المرأة التي لا نفع منها غير المدبرة وربما غير الشريفة، «ويظهر من دراسة

النصوص المسمارية بأن البغايا كن يمارسن البغاء أما في بيوت خاصة بهن أو في حانات بيع الخمور. تعرف حانات بيع الخمور بالسومرية (E. Kurunna) والأكدية بـ(Astamma) وكانت مثل هذه الحانات المكان الاعتيادي الذي تتردد اليه البغايا في وادي الرافدين تدار عادة أمامن قبل صاحب الحانة (في الأكدية Sabu) او صاحبة الحانة (Sabitu) والتي تعرف بالسومرية Mi - Kurun - na ، ، (عقراوي ١٩٧٨ : ١٩٧).

٣. **الكهنة العاديون** : وهم الصنف العادي أو التقليدي من رجال الدين والذين لا يمتلكون خصوصية كهنوتية مميزة ونجد منهم نوعين :

أ- سابنغو أي عامة الكهنة .

ب- أربي بيتي أي الداخلون الى المعبد أو الذين لهم الحق في الدخول الى المعبد بشكل دائم وكأنهم (أهل البيت).

ب. المعابد السومرية

بدأ ظهور المعابد في وادي الرافدين مع الانقلاب الكالكويتي، وبدأنا نرى المعبد بصورته البسيطة في جنوب العراق القديم . . حيث كان المعبد نواة ظهور المدينة في المركز وطرد القرية الى المحيط .

إن أول المعابد ظهر في أريدو (الطبقة السادسة عشر) وهو يعود إلي الألف الخامس قبل الميلاد، وقد كانت هذه المدينة منذ القدم مخصصة للإله إنكي، وهو «معبد ذي تخطيط مثير للإعجاب بالرغم من بساطته . إنه أقدم معبد مشيد تمّ اكتشافه حتى الآن ويضم عناصر استمرت حتى أزماننا عبر آلاف كثيرة من السنين والحضارات. فهو يحتوي على حرم مستطيل يبدو عليه بأنه كان مقسماً الى منطقتين بجدران فاصلة . وفي احدى النهايات يوجد مذبح صنع لكي يحتوي على منصة من اللبن، فهنا يتوفر لدينا، كما هو في الواقع، مخطط لكنسية مسيحية نموذجية فيها مجاز مدخل والصحن والهيكل الذي يضمّ مذبحاً. ولقد كان معبد سليمان يضمّ تماماً ذات الترتيب الثلاثي : الرواق، والمكان المقّدس، وقدس الأقداس. وعلى هذا فإن اثنين من أعظم الاديان العالمية التوحيدية قد أعادوا انتاج هيكل بناء المعبد العراقي » (بارو ١٩٧٩ : ١٠٠) .

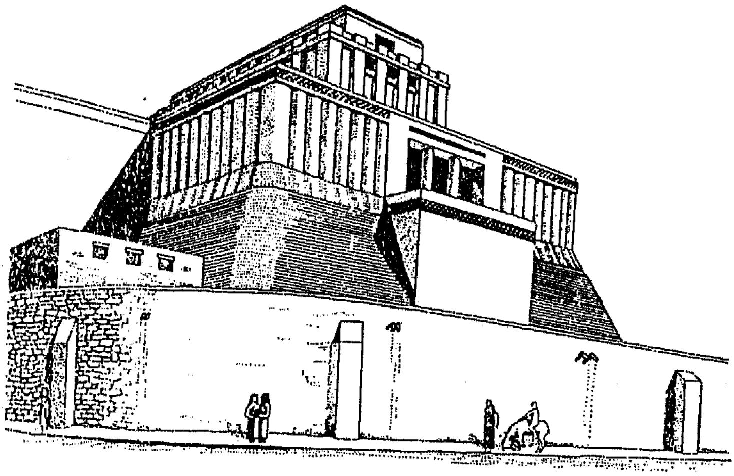

شكل (٨٦)
إعادة بناء معبد اوروك المبكر

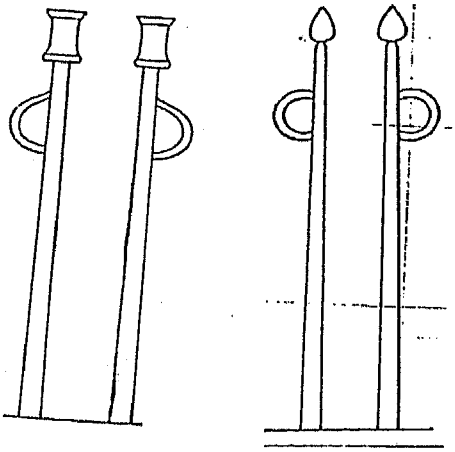

شكل (٨٧)
رمز بوابة المعبد
١. حوالي ٢٤٧٥ ق.م
٢. خلال العصر الأكدي وما بعده ويرمز
كذلك إلى بوابة السماء وبوابة العالم الأسفل
رسم : علي محمد آل تاجر

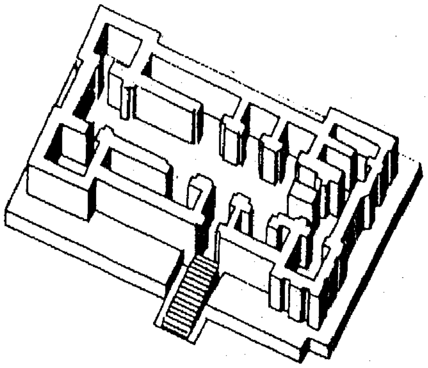

شكل (٨٨)
معبد سومري معاد التصميم
من الطبقة السادسة في أريدو
(مرحلة العبيد ٤٠٠٠ ق.م)

٢- معبد انليل في نفّر

٣- معبد آبو في اشنونا

٤- معابد خفاجي وهي ثلاثة (البيضوي ، ننتو ، سين) .

٥- معبد شارا في تل أجرب .

٦- معبد عشتار في آشور

٧- معابد ماري وهي ستة (انانا، ننخرساگك، اوتو، عشتارات، نني زازا، الزقورة) .

٤- معابد مرحلة سلالة اور الثالثة (٢١٢٤ - ٢٠٠٦) ق.م

وامتازت بظهور زقورات (اور ، اريدو، نفّر، اوروك)

وظهرت ايضاً المنازل السفلية خصوصاً في أور وهي أشبه بالمعابد السريّة، ستتناول نموذجاً من كل مرحلة بشرح مبسط، وقد أتينا على ذكر المعبد الأول في أريدو لأهمية التاريخية لأنه أول معبدٍ يشاد على وجه الأرض ويحمل المواصفات الأساسية للمعبد.

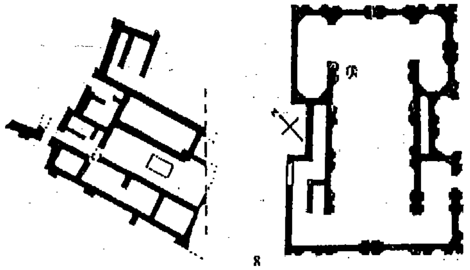

شكل (٨٩)
معبدان من تبة كاورا
الأول هو المعبد الشمالي في نهاية فترة العبيد
الثاني هو المعبد الواقع شمال شرقي نينوى (٤٥٠٠ ق.م).

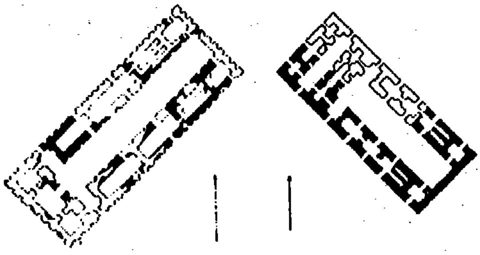

شكل (٩٠)
معبدا إنانا في اوروك
الأول من الطبقة السادسة ٣٢٠٠ ق.م
الثاني من الطبقة الخامسة ٣٤٠٠ ق.م (المعبد الصخري)

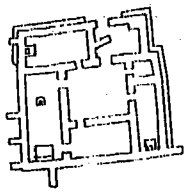

شكل (٩١)
المعبد المربع (معبد آبو) في تل

آسمر ٢٧٥٠ ق.م

معبد انانا في اوروك

وهو معبد يمثل المرحلة الثانية من التاريخ السومري، ويسمى (أي . أناE- anna) ويعني (بيت السماء) وقد كان مخصصاً لعبادة الإلهة إنانا باسمها القديم الأول (إينين)، ويعتقد أنه كان في نفس الوقت معبد الإله دموزي.

ولهذا المعبد ميزتان معماريتان مهمتان الأولى هي أن مخططة الأرضي كان يشبه الصليب الذي تحيط به جدران مختلفة (انظر شكل ٨٦)

وقد يكون هذا نضحاً لا واعياً من بناة المعبد، حيث أن إنانا عند نزولها الى العالم الأسفل تعلّق على عمود بعد ان تقرر اختها موتها . . ثم ان دموزي زوجها يموت كل عام في العالم الأسفل (ولنتذكر مقارنات دموزي وانانا مع السيد المسيح) . . أما الوجه الثاني للصليب وهو الأساس فهو انه كان رمزاً للخصب وانانا ودموزي هما خير من يمثل الخصب. الميزة المعمارية الثانية هي الزخرفة الفسيفسائية المذهلة لأنصاف الأعمدة المثبتة على الجدران، وذلك عن طريق تثبيت عشرات الألوف من المخاريط الطينية الصغيرة بعد تغطيسها في ألوان مختلفة حتى تصبح رؤوسها أما حمراء أو سوداء أو برتقالية باهتة «وذلك دون ريب إختراع سومري بكل تمييز ولغرض تنويع الجدران الداخلية والأعمدة الضخمة يلقون في غلاف الطين آلافاً من المخاريط المدببة الصغيرة ذات الوان سوداء وحمراء وبيضاء بطريقة لا تظهر منها سوى رؤوسها حيث تؤلف أشكالاً متكسرة ومتقاطعة ومتعرجة من معيّنات ومثلثات تغطي سطح الجدار بمختلف الألوان. ويكون التأثير العام لذلك أشبه بالطنافس التي تتألف - بدلاً من ان تنسج بأصواف ملونة - من عدد لا يحصى من الحبات الصغيرة المصنوعة من التراب» (بارو ١٩٧٩ : ١١٥).

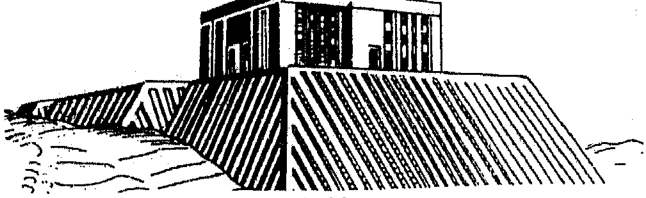

شكل (٩٢)
زقورة آن في اوروك

ويبدو أن المعبد كان شيداً فوق منطقة محاطة بساحة مركزية ومخازن وأماكن للأضاحي وجميع هذه المرفقات والمعبد محاطة بسور. ويرى الباحثون الالمان بشكل خاص ان لهذا المعبد زقورة وأنها كانت تتألف في البداية من طبقة واحدة.

المعبد البيضوي في خفاجي (توتوب)

يمثل هذا المعبد نموذجاً فريداً لمعابد مرحلة دول المدن السومرية. تبلغ مساحة المعبد حوالي (٨٠٠٠)م٢، وأهم ما يميزه أنه محاطٌ بسورين بيضويين يقع بينهما (بيت الكهنة). واشتمل بناء المعهد على دكاكين ومخازن وقدس أقدس في النهاية الأولى.

كان مدخل هذا المعبد سلّماً يقع بين درجين. وتظهر خلوةٌ متميزةٌ. وكذلك ما يسمى بالطريقة المزدوجة التي كانت سائدة في النمط المعماري لهذا العصر ويبدو أن المعبد كان مبنياً على مصطبة عالية وما زالت الزقورة غير شائعة كثيراً في هذا العصر رغم وجودها.

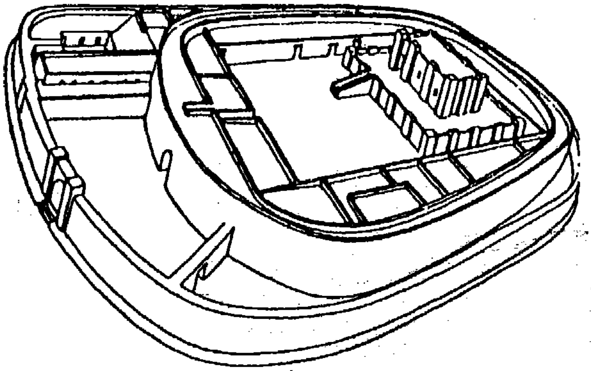

شكل (٩٣)
المعبد البيضوي في خفاجي

زقورة أور (معبد إله القمر تانا)

كانت الزقورة ابتكاراً سومرياً عظيماً لفن عمارة المعابد وقد كانت لكل من اور والوركاء ونفر ولارسا وأريدو زقوراتها الخاصة بها «وقد شيدت كل هذه الزقورات التي تتألف من ثلاثة الى سبعة طوابق من الآجر (غير المشوي من الداخل والمشوي من سطحه

الخارجي). فهذه النُصب تذكرنا لأول نظرة بالأهرام المصرية. وبصفة خاصة بما عرف بهرم (سقارة) المدرج» (بارو ١٩٧٩ : ٢٥٤) ويبدوأن الزقورات السومرّية كانت حافزاً لبناء الأهرام المصرية، رغم أن الأهرام اخذت خصوصيتها المصرية وانها كانت بمثابة القبور العملاقة وليس المعابد.

إن زقورة أور التي بناها الملك (اورنمّو) ذات ثلاثة طوابق وتعلو الطابق الأعلى غرفة الإله (نانا) وقد وجهت زوايا المعبد الأربع نحو الجهات الأربع، ورتب التغليف على شكل طلعات ودخلات «أما السلم الذي يهبط بتعامد في اتجاهه مع الضلع الشمالية الشرقية فمن المحتمل أن يؤدي قدماً الى الطبقة العليا التي شيدت عليها المعبد العالي الحقيقي. وأما السّلمان الجانبيان فانهما يرتبطان عند الطبقة الأولى. بالسلّم الرئيس الذي يؤدى بشكل منفصل الى الطبقة الثانية من الزقورة (مورتكات ١٩٧٥: ١٩٥).

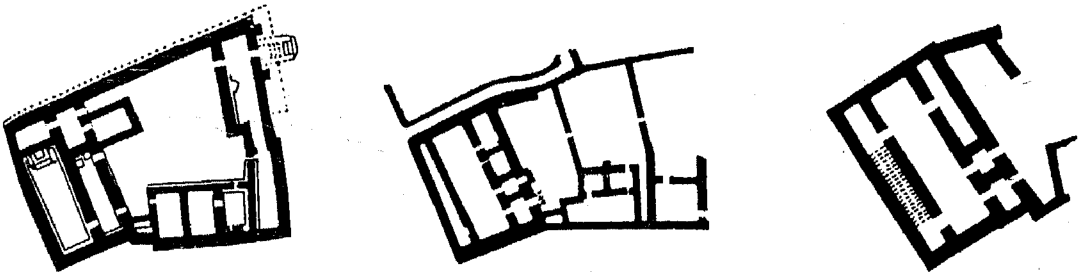

شكل (٩٤)
معابد اله القمر(سين)
١. الطبقة الاولى خفاجي قرب ديالي ٣١٠٠ ق.م
٢. الطبقة الرابعة خفاجي ٢٩٠٠ ق.م
٣. الطبقة الثامنة خفاجي ٢٧٠٠ ق.م

٩. الحكماء السبعة (أبكالّو)

أفردنا لمبحث الحكماء السبعة فقرةً منفصلة لإيماننا أن هؤلاء الكهنة لا يشكلون مرتبة كهنوتية معروفة، ولكنهم في نفس الوقت يمتلكون أهمية استثنائية في الماضي السومري وبوجهه الديني بشكل خاص.

الحكماء السبعة هم (ابكالّو) واحياناً يلفظون بـ(افكالّو) سومرياً ولكن المصطلح الأكدي لهم هو بُلوكوّ (Pulukku). ويشير الأصل السومري لهم أنهم خبراء العرافين، أما المصطلح الأكدي فيعني حصراً (مراقبو النجوم) ومن هذا المعنى اشتقت كلمة (الفلك) فهي قريبة من بولوكو وكذلك كلمة (الأفك) اي الكذب التي تشير الى فئة الدجالين من العاملين في قراءة النجوم.

وقد أظهر نصّ مكتوبٌ باللغتين السومرية والأكدية أسماء هؤلاء الحكماء السبعة الذين عاشوا قبل الطوفان، ويعتقد أن كلّ واحدٍ منهم عاصر أحد ملوك الطوفان.. وكان هو مصدر الحكمة والدين آنذاك (انظر Reiner 1961 : 4).

ويأتي ذكر الحكماء السبعة في اللوح الأول من ملحمة كلكامش:

«اعلُ فوق أسوار أوروك

وإمشِ عليها متأملاً

تفحص اسس قواعدها وآجر بنائها

أفليس بناؤها بالآجر المفخور؟

وهلاّ وضع الحكماء السبعة اسسها»

(باقر ١٩٨٠: ٧٤).

ويطلق على الواحد منهم ايضاً لقب (منتاكّو Muntakku) ويعطي معنى المستشار. ويوحي كذلك بكلمة (المنطق) وهي جزءٌ من الحكمة فهم (المنطقيون) ايضاً. وكذلك اسمهم السومري ابكالو Apkallu اي الافكل وتشير الى جذر سومري أقدم أبگال Abgal. وهناك مصدر يذكر اسماءهم الصريحة كما يلي:

١ . **أدابا** : ومعنى اسمه الحكيم أو العاقل أو العارف وهو كاهن التطهير لمدينة أريدو والذي صعد إلى السماء ، وتذكره احد القصص الأكدية تفصيلياً ، بحيث انه كاد يحصل على طعام وشراب الآلهة فيكون بذلك خالداً إلاّ انه رفض أخذ هذا الطعام والشراب وخسر الخلود ، وأدابا شخصية سومرية عاشت في أقدم عصور ما قبل الطوفان . وتختلط شخصيته بشخصية أخرى هي (أوان Uan) وهي الشخصية التي ذكرها المؤرخ البابلي برعوشا (Berssous) بصيغة (أوانيس Oannes) ، ولكن أوان أو أوانيس هذا على ما يبدو كائن اسطوري نرى أنه الاله انكي نفسه وقد أخذ اسمه الأكدي أو البابلي (أيا) وصيغ بصيغة يونانية (أيانيس) بدليل أن برعوشا يذكر بأنه كان يلبس ملابس سمكة وهو رداء الاله إنكي ألّذي كان يلبسه رهبانه وكهنته وتذكرهم النصوص المسمارية على أنهم صنّاع (Um-mianu) وهي تسمية قد تكون مصدر (اوان) .

٢ . **نونبيرگال نون گالدم** : وهو الحكيم الثاني وكان حكيم إنمركار الذي جلب عشتار من السماء ووضعها في معبدها في أوروك (أي أنا)

٣ . **بيرگال نونگال** : وهو الحكيم الثالث القادم من كيش والذي أغضب الإله أدد في السماء ، فقام هذا الاله بحبس الأمطار ثلاث سنوات وماتت خلالها النباتات .

٤ . **بيرگال أبسو** : وهو الحكيم الرابع الآتي من مدينة (أريدو) والذي أغضب الإله إيا أو إنكي في الـ (أبسو) .

٥ . **لونانا** : وهو الحكيم الخامس الذي طرد التنين (اوشنگالّو) من معبد عشتار (انينكار نونا) .

أما الأثنان الآخران فيصعب قراءة إسميهما (انظر 4: Reiner : 1961) ولكن هناك مصدراً آخر يذكر اسماءهم السبعة بصيغة مختلفة ويبدو ان لهم عدة ألقاب وهم حسب هذا المصدر (انظر Dalley 1989: 327) :

١ . **أدابا Adapa**

٢ . **أوان دوگا U- an - duga**

٣ . **اينمي دوگا En- me - duga**

٤ . **انيمي گلاما En- me - galamala**

إن لم تجد أرغفة القربان العشرة

إن لم تعلم بيوم موتي

أنت، أيتها البرية، خبريها، خبري أمي

في البرية، ستذرف أمي الدموع من أجلي

في البرية، ستحزن شقيقتي الصغيرة عليّ، ،

(الشوك ١٩٩٢ : ٩٢).

ومن شدة تعبه وبكائه استلقى بين الاعشاب وحلم حلماً مفزعاً وحين وصل إلى بيت اخته روى لها الحلم:

«أسلٌ يشطأ فيما حولي، أسلٌ ينمو بغزارة حولي

قصبةٌ فريدة نامية اهتزت أمامي

من قصبة ثنائية المنبت، اختفت واحدة أول الامر، ثم الأخرى.

في أجمة أشجار، تعالى رعب الاشجار من حولي

ماءٌ أهرق فوق موقدي المقدس

قعر ممخضتي انفصل عنها

كأس شرابي هوت من مشجبها

عصاي اختفت

نسرٌ خطف حملاً في الحظيرة

بازٌ انقضّ على عصفور حط على السياج القصبي

شقيقتي، عنزاتك تجرجر ذقونها الفيزوزية على التراب

خرافك تخط على الأرض بحوافر معوجة

الممخضة مهملة هناك : لا حليب يُصب

إن العالم الذي نحنُ فيه لا يكتسب شرعية أخرى غير الشرعية التي ترتد الى النموذج فوق الأرضي الذي جاء هذا العالم على مثاله. أي أن الانسان يبني طبقاً لنموذج، ولا تقتصر النماذج السماوية على المدينة والمعبد وحسب، وانما تشمل كل أقليم يسكنه وما فيه من أنهار تروي أراضية وحقول تمدّه بالغذاء . . الخ، إن مخطط مدينة بابل يرينا المدينة في وسط إقليم دائري واسع يحيط به نهرٌ «عامرٌ» تماماً كما تمثل السومريون الفردوس من قبل (انظر الياد ١٩٨٧ : ٢٨).

وتشكل رمزية المركز واحدة من أوجه فكرة العود الأبدي التي تظهر من خلال الجبل أو المكان المقدس حيث تتلاقى السماء والأرض والذي يوجد في مركز العالم، وهكذا كان الاعتقاد بمدينة نفّر التي كانت مركز العالم حيث انفصلت السماء عن الأرض في منطقة (اوزموا) فيها ولذلك تعتبر هذه المنطقة أشبه برباط الأرض والسماء أو (سرة الأرض) حيث خلق الانسان لأول مرة في (اوزموا). ويرد اسم (دوكو) وهو (التل المقدس) عند السومريين ليشير الى مجمع الآلهة (الانونا) عنده وربما أشار حقيقةً الى جبل حمرين.

وتظهر رمزية المكان أيضاً في كل معبد أو قصر يشاد من قبل الملوك السومريين ولذلك كانت الزقورات والمعابد تحمل اسماء تشهد على تمثلها للجبل الكوني (جبل البيت، بيت جميع البلاد، جبل العواصف، صلة ما بين الأرض والسماء . . الخ وتقول المدونة الحلمية للملك گوديا أن حجرة الإله التي بناها الملك كانت شبيهة بالجبل الكوني. وقد كانت الزقورة تحديداً جبلاً كونياً. أي صورة رمزية للكون، فالأدوار السبعة تمثل السموات السبع الكوكبية أو هي ملونة بألوان العالم (انظر الياد ١٩٨٧ : ٣٣-٣٤).

وقد تردد إسم سوميرو Sumeru للجبل المركزي الذي كان يعتقد به اقوام الاورال (الألطاييق) باعتباره المكان الذي يتدلى فوق قمته نجم القطب. وهؤلاء الأقوام يرتبطون بذاكرة لغوية مشتركة مع السومريين ولهم صلات أصل مع سومر.

وكانت طقوس الزواج المقدس في سومر مناسبة لاحياء ذكرى كوسموغونية كانت تقوم بها الآلهة، ولذلك كانت استعادة هذه الذكرى في مهرجانات صاخبة تمثلُ إحياءً طقسياً لبداية الخلق الكوني والزواج الألهي، وقد انسحبت هذه الفكرة تماماً على أعياد

رأس السنة الجديدة عند السومريين فقد كان «المغزى الإجمالي لهذه الاحتفالات، ومغزى كل عنصر من عناصرها المكونة لها واضحاً وضوحاً كافياً : وفي اثناء قطع الزمان الذي تشكله السنة، لا نشهد إيقافاً فعلياً لفترة زمنية معينة وبداية لفترة أخرى وحسب، وإنما نشهد أيضاً إبطالاً للسنة الماضية والزمن المنصرم. وهذا، من جهة ثانية، هو معنى التطهيرات الطقسية : حرق، ومحو للخطايا والذنوب التي اقترفها الفرد والجماعة في مجموعها، لا مجرد تطهير . إن التجديد هنا معناه الولادة الجديدة» (الياد ١٩٨٧ : ١٠٣).

لقد كان عيد الأكيتو السومري عوداً دورياً أبدياً لبدء الخليقة، ولحظة شروع في بناء عالم جديد وكانت طقوس غياب دموزي أو نانا (القمر) أو دامو أو غيرهم من الآلهة غياباً مؤقتاً مناسبةً للطرد السنوي للخطايا والأمراض والعفاريت التي سببت مثل هذا الغياب وهي - في الأساس محاوله - ولو مؤقتة - لإعادة إنشاء للزمن الميثي والبدئي، الزمن النقي، زمن لحظة الخلق كل سنة جديدة فهي عودة بالزمان الى بدايته، أي تكرار لولادة الكون. «وكذلك كان يحتفل بالعيد المسمى بـ(عيد المصائر)، (زكمك) في الاطار نفسه الذي كان يُحتفل فيه بـ(اكيتو) في (عيد المصائر) حيث كان يتم تعيين دلالات كل شهر من أشهر السنة الاثنى عشر، وهذا يعني خلق الأشهر الاثنى عشر القادمة »، (الياد ١٩٨٧ : ١٠٧).

لقد أصبحت كل هذه المداليل العميقة اساساً عملياً لفكرة وفلسفة العود الأبدي التي ظهرت بوضوح في المعتقدات اليونانية العرفانية كالفيثاغورية والرواقية ثم الغنوصية.

ونلمح كذلك جذور فكرة العودة الأبدي في الدورات الكونية الكبرى (السار) عند السومريين والبابلين حيث ينقسم الزمن الى دورات فلكية تنتهي بحوادث عظيمة كالطوفان أو الحرائق.

وقد شكلت هذه الأفكار اساس الفكر اليوناني حيث أصبحت «فكرتا العود الأبدي) و(نهاية العالم) دورياً ذات حظوة كبيرة عند اتباع الفيثاغورية الحديثة التي اقتسمت مع الرواقية قبول المجتمع الروماني كله لها، في القرنين الثاني والأول قبل المسيح. لكن اعتناق اسطورة (التكرار الابدي) واسطورة (نهاية العالم) كان يمثل موقفين فلسفيين يسمحان لنا أن نستشف من خلالهما موقفاً معادياً للتاريخ بعيد الرسوخ، وتؤكد إرادة للوقاية من التاريخ (الياد ١٩٨٧ : ٢١٥).

المبكرة «للميثاقيين» . وسرعان ما انتشر الاتحاد عبر الغالبية العظمى من المناطق . وعين الوكلاء من كل النواحى ، وعقدوا إجتماعات فى كل مكان ، وكسبوا أعضاء جدد . ولقد مثل المؤتمر الأول للمندوبين فى «مانشستر» عام ١٨٤٤ - ٦٠,٠٠٠ عضو ، ومثل المؤتمر الثانى الذى إنعقد فى « جلاسجو » بعد ستة شهور ١٠٠,٠٠٠ عضو . هنا ، نوقشت كل أمور عمال المناجم ، وأخذت قرارات خاصة بالإضرابات الكبيرة ، وأسست عدة صحف وخاصة «الماينرز ادفوكات» ، فى « نيوكاسل - تاين » للدفاع عن حقوق عمال المناجم . وفى ٣١ مارس ١٨٤٤ ، أنهيت كل عقود العمال ، وفوض « روبرتس » فى كتابة إتفاق جديد ، طالب الرجال فيه بما يلى : —

(١) يحسب الأجر على أساس الوزن لا على أساس المكيال . (٢) تحديد الوزن بموازين عادية خاضعة للمفتشين العموميين . (٣) تجديد العقود كل نصف سنة . (٤) إلغاء نظام الغرامات ، ويكون الأجر طبقاً للعمل المنجز بالفعل . (٥) أن يضمن المستخدمون للعمال أربعة أيام عمل على الأقل فى الأسبوع ، أو أجور هذه الأيام الأربعة طوال فترة عملهم الشاملة . ورفع العقد إلى « ملوك الفحم » وعين وفد مفوض ، للتفاوض معهم ، إلا أنهم ردوا بأن الاتحاد غير قائم بالنسبة لهم ، وأنهم يتعاملون مع العمال كأفراد فقط ، وأنهم لن يعترفوا بالاتحاد . وقدموا هم أيضاً إتفاقاً خاصاً بهم ، تجاهل كل النقاط السابقة ، وكان من الطبيعى أن يرفضه عمال المناجم . وبذا أعلنت الحرب . وفى ٣١ مارس ١٨٤٤ ، ألقى ٤٠,٠٠٠ من عمال المناجم بمعاولهم ، ووقفت كل المناجم فى الريف خالية . كانت مدخرات الاتحاد كبيرة إلى حد ضمان إعانة أسبوعية لكل أسرة قدرها ٢ شلن ، ٦ بنسات لعدة شهـــور . وبينما كان العمال ، يضعون بذلك صبر سيادتهم فى الإختبار ، نظم (روبرتس) كلا من الإضراب وعملية الإثارة ، بمثابرة منقطعة النظير ، أعد لعقد الاجتماعات ، قطع انجلترا من طرف إلى آخر ، كان أسلوبه فى الإثارة سلمياً وقانونياً ، وحمل حملة صليبية ضد « قضاة الصلح » الظالمين وضد سادة المقايضة ، حمل حملة لم يعرف لها مثيل فى انجلترا من قبل . لقد بدأ هذه الحملة مع بداية العام . إذ عندما كان يدين «قاضى الصلح» عاملا من عمال المناجم ، كان يحصل له من محكمة هيئة قضاء الملكة ، على أمر بأن يمثل أمام القاضى للتحقيق فى عدم قانونية إحتجازه ، وكان يحضر عميله إلى لندن ، ضامنا تبرأته على الدوام . وبناء على ذلك ، برأ القاضى « ويليامز » من هيئة قضاء الملكة ، فى ١٣ يناير ثلاثة من

عمال المناجم كان « قضاة الصلح » فى « بيلستون » ، « سوث ستافورد شاير » قد أدانوهم . كانت تهمة هؤلاء الرجال ، أنهم قد رفضوا العمل فى مكان مهدد بالانهيار على من فيه ، وبالفعل إنهار هذا المكان قبل عودتهم . وفى مناسبة سابقة مبكرة ، برأ القاضى « بانيسون » ستة من العمال ، حتى أن إسم « روبرتس » بدأ يصبح رعباً لأصحاب المناجم . وفى « بريستون » وضع أربعة من زبائنه فى السجن ، وإنتقل فى الأسبوع الأول من يناير إلى هناك ليفحص الحالة فى موقعها ، لكنه وجد عندما وصل ، أن المحكوم عليهم قد أفرج عنهم قبل نهاية الحكم . وفى « مانشستر » كان هنالك سبعة عمال فى السجن ، وحصل لهم « روبرتس » على أمر تحقيق لعدم قانونية إحتجـــازهم ، وبرؤوا جميعاً أمام القاضى « ديتمان » وفى « بريسكوت » كان هنالك تسع عمال مناجم فى السجن ، متهمين بخلق الإضطرابات فى « سانت هيلز » « سوث لانكشاير » . كانوا فى إنتظار المحاكمة ، وعندما وصل « روبرتس » إلى المكان ، أخلى سبيلهم على الفور . كل ذلك وقع فى النصف الأول من فبراير . وفى أبريل أطلق « روبرتس » سراح عامل مناجم من السجن فى « دربى » ، وأربعة فى « ويكفيلد » وأربعه فى « ليسستر » . وسار الحال على هذا المنوال فترة من الزمن ، حتى وصلت « كلاب الحراسة » تلك إلى احترام عمال المناجم بعض الاحترام . وحل بنظام المقايضة نفس المصير . كان « روبرتس » يقدم أصحاب المناجم سيئ السمعة واحداً بعد الآخر أمام المحاكم ، ويضطر قضاة الصلح الكارهين ، على إدانتهم ، وانتشر الفزع بينهم من هذا « المدعى العام » الذى يبدو كوميض البرق ، وكأنه فى كل مكان ، حتى فى « بيلبر » مثلا ، نشرت إحدى شركات المقايضة الإعلان التالى :

« إعلان »

مناجم بنتريك للفحم

« يعتقد السادة « هاسلام » ، أنه من الضرورى ، منعاً لكل الأخطاء ، أن يعلنوا أن كل الأشخاص الذين يعملون فى مناجم الفحم الخاصه بهم ، سيتسلمون أجورهم بالكامل نقداً ، وأنه فى وسعهم ، أن يصرفوها فى الوقت وبالطريقة التى يختارونها ، فإن اشتروا بضائع من حوانيت السادة «هاسلام» ، فإنهم سيتسلمونها

كما كان قبلا بأسعار الجملة ، غير أنه ليس متوقعاً منهم أن يبتاعوا بالضرورة من هناك ، وسيستمر العمل والأجور كالمعتاد ، سواء تمت المشتروات من هذه الحوانيت ، أو من أى مكان آخر » .

وأثار هذا الإنتصار أشد صور البهجة عبر الطبقة العاملة الانجليزيه ، وجلب للاتحاد كتل من الأعضاء الجدد . وفى تلك الأثناء ، كان الإضراب فى الشمال يتقدم ، لم تتحرك يد واحدة للعمل ، وجردت « نيوكاسل » الميناء الرئيسى للفحم من بضاعتها ، حتى أن الفحم كان يؤتى به إليها من الساحل الاسكتلندى ، رغم الحكمه المأثورة* . فى البداية ، عندما كانت مدخرات « الاتحاد » صامدة ، سارت كل الأمور سيراً حسناً ، إلا أن الصراع باقتراب الصيف ، صار أكثر ايلاما لعمال المناجم . لقد ساد العوز الأكبر فيما بينهم ، لم يكن لديهم نقوداً ، لأن إعانات عمال كل فروع الصناعة فى إنجلترا كانت ذات نفع قليل أمام العدد الزاخر من المضربين ، مما اضطرهم إلى الاقتراض من أصحاب الحوانيت الصغيرة بخسارة وبيلة . لقد كانت الصحافة كلها ، ما عدا الصحافة البروليتارية القليلة ، ضدهم ، وحتى القليلين من البورجوازية ، والذين يحتمل أن يكون لديهم إحساس كاف بالعدالة كى يدعموا عمال المناجم ، كانوا لا يعرفون عنهم غير أكاذيب صحافة « المحافظين » و « الأحرار » العفنة . وحصل وفد مكون من إثنى عشر عاملا من عمال المناجم الذين ذهبوا إلى لندن على مبلغ من البروليتاريا هناك ، إلا أنه أيضاً لم يدم طويلا بين الجمهرة التى تحتاج للدعم . ومع هذا ورغم كل ذلك ، فإن عمال المناجم ظلوا ثابتين . إن الأمر الذى كان له مغزى أكبر — هو أنهم كانوا هادئين فى مواجهة كل الأعمال الاستفزازية والعدائية التى قام بها أصحاب المناجم وخدمهم المخلصين . لم ترتكب اى أعمال إنتقامية ، ولم تسيء معاملة أى مرتد ، ولم تقع عملية سرقة واحدة . وبذا إستمر الإضراب اربعة شهور على نحو جيد ، ومازال أصحاب المناجم بلا أمل فى أن تكون اليد العليا لهم . إلا أن طريقاً كان ما يزال مفتوحاً أمامهم ، على أى حال . لقد تذكروا نظام الكوخ ، لقد خطر

---

* فى الأصل الألمانى ، تستمر الجملة الأخيرة على النحو التالى « رغم أن نقل الفحم إلى نيو كاسل ، فى انجلترا ، يعطى نفس المعنى القائل ، «بنقل البوم إلى أثينا» ، فى اليونان ، أى أن تفعل شيئا لا لزوم له على الإطلاق » — ناشر الطبعة الانجليزية .

لهم أن منازل المتمردين إنما هى « ملكهم » الخاص . ونفذ الإجراء بوحشية تستثير الثورة . فقد أزيح المرضى وضعاف الصحة وكبار السن من الرجال ، والصبية الصغار وحتى النساء الذين هم فى حالة وضع ، من أسرتهم بلا رحمة . وألقى بهم فى الحفر الموجودة فى جانب الطريق ، لقد جر أحد العملاء إمرأة كانت فى فترة الوضع من شعرها ، من سريرها إلى الشارع . كانت هنالك حشود من الجنود ورجال الشرطة ، مستعدين لإطلاق النار عند أول بادرة للمقاومة ، عند أقل إشارة من قضاة الصلح ، الذين مهدوا السبيل لكل هذه الإجراءات الوحشية . كانوا يأملون فى أن يلجأ الرجال إلى العنف ، لقد كانوا يستفزونهم بكل أشكال القوة كى يخالفوا القوانين ، يجدوا مبرراً لإنهاء الإضراب بالتدخل العسكرى . إلا أن عمال المناجم الذين لا مأوى لهم ، ظلوا ساكنين صامدين ، وهم يتذكرون تحذيرات « مدعيهم العام » ، وقد وضعوا حاجياتهم المنزلية فوق الأرض السبخة أو الحقول التى تم حصادها . وحط البعض منهم ، والذى لا مأوى آخر له ، حط رحاله فى الحفر وعلى جانبى الطريق وحط آخرون فوق أرض مملوكة للغير ، ومن ثم فقد رفعت ضدهم الدعاوى ، وكانوا يغرمون جنيهاً مقابل كل «خسارة تسببوا فيها ، يساوى قدرها نصف بنس» ، ولما كانوا عاجزين عن الدفع ، فقد عملوا على آلات تعذيب المدنيين بدلا من الغرامة ، وهكذا عاشوا هم وعائلاتهم ثمانية أسابيع وأكثر من أيام الصيف الأخيرة الرطبة، تحت السماء المكشوفة ، دون أى مأوى لهم ولصغارهم غير ستائر سررهم المصنوعة من البفتة ، ودون أى عون آخر غير المساعدات الزهيدة التى يقدمها « إتحادهم » ، والتعامل بالنسيئة مع صغار التجار ، وهو تعامل سريع الإنكماش ، ولذا هدد « اللورد ديرى » وهو مالك مناجم هائلة فى « دور هام » ، أصحاب الدكاكين الصغار فى « مدينته » من أعمال « سيهام » ، بأشد درجات غضبه إن هم إستمروا فى إقراض « عمالة » المتمردين . إن هذا اللورد « النبيل » قد جعل من نفسه المهرج الأول للإضراب ، بسبب الفرمانات المختالة المثيرة للسخرية ، والتى كان يوجهها إلى العمال دون أن يكون لها محل من الإعراب ، والتى كان ينشرها من حين لحين ، دون أية نتيجة غير إدخال البهجة على الأمة . وعندما لم تجدى كل تلك الجهود ، قام أصحاب المصانع بإستيراد أيدى عاملة من إيرلندا بتكلفة عالية ،

لقد إستوردوا العمال من الأجزاء النائية من ويلز والتى لم توجد بها بعد حركة عمالية . وبذا أعيدت منافسة العمال للعمال ، فإنهارت قوة المضربين . وإضطرهم أصحاب المناجم إلى التبرؤ من « الإتحاد » وإلا هجران « روبرتس » ، وقبول الشروط التى وضعها المستخدمون . وبذا إنتهت ، فى آخر سبتمبر ، معركة الشهور الخمس الكبرى ، لعمال مناجم الفحم ضد أصحاب المناجم ، معركة خاضها المضطهدون بجلد وشجاعة وذكاء وهدوء أعصاب يستحق أعلى درجات الاعجاب . أى قدر من التحضر الانسانى الحقيقى ، من الحماس ومتانة الخلق ، تضمنته مثل تلك المعركة ، من جانب الرجال الذين وصفوا حتى عام ١٨٤٠ ، بأنهم متوحشون غاية الوحشية وقاصرين فى حسهم الخلقى ! كما جاء فى « تقرير لجنة تشغيل الصبية » . ولكن ، كم من الضرورى أيضاً ، أن يكون هذا الضغط الذى دفع هؤلاء الأربعين ألفاً من عمال مناجم الفحم الحجرى قاسياً ، ليهبوا هبة رجل واحد ، وأن يقاتلوا المعركة ، ليس فقط كجيش متحمس أيضاً ، جيش يملك إرادة واحدة ، بأكبر قدر من هدوء الأعصاب ورباطة الجأش ، إلى نقطة تصبح المقاومة بعدها ضرباً من الجنون . وأية معركة ! إنها ليست معركة ضد أعداء الداء مرئيين ، لكنها معركة ضد الجوع والعوز والشقاء والتشرد ، ضد عواطفهم الخاصة التى تستفزها وحشية الثروة إلى حد الجنون . ولو حدث أن لجأ العمال إلى العنف من ثورتهم ، وهم العزل دون حماية ، لضربوا بالرصاص ، وكان يوم أو إثنان كافيان لحسم إنتصار أصحاب المصانع . إن هذا الاحتياط إلتزاماً بالقانون ، لم يكن خوفاً من أركان حرب الكونستبلات ، لكنه كان نتاج المداوله والتمعن ، وهو أفضل دليل على ذكاء العمال وسيطرتهم على أنفسهم .

وهكذا أجبر العمال مرة أخرى على الخضوع لبأس رأس المال ، رغم جلدهم الذى لا مثيل له . إلا أن القتال لم يكن عبثاً ، وأول شىء هو أن أسابيع الاضراب التسعة عشر تلك ، قد إنتزعت عمال مناجم شمال إنجلترا ، وإلى الأبد ، من الموات الذهنى الذى كانوا يرقدون فيه حتى الآن . لقد هجروا سباتهم ، وغدوا يقظين للدفاع عن مصالحهم ، ودخلوا حركة التحضر ، خاصة حركة العمال . إن الاضراب الذى وضع كل وحشية الملاك فى الضوء لأول مرة ، قد أسس معارضة العمال هنا وإلى الأبد ، وجعل ثلثى العمال على الأقل « ميثاقيين » إن

كسب ثلاثين ألف من أمثال هؤلاء الرجال ذوى العزم والخبره إلى « الميثاقيين » لهو أمر له بالقطع قيمته الضخمة ، كذلك ، فإن الالتزام بالقانون والجلد الذى ميز الاضراب كله ، مرتبطاً بالاثارة النشطة التى صاحبته ، قد ركز الانتباه العام على عمال المناجم . ولقد أثار « توماس دونكومب » العضو الوحيد « المؤكد ميثاقيته » فى « مجلس العموم » حال عمال المناجم ، بمناسبة مناقشة ضريبة التصدير على الفحم ، وقرأ إلتماساً لهم ، وبذا أجبر الصحافه البورجوازية بحديثه هذا ، على أن تنشر على الأقل بياناً صحيحاً عن الحالة ، فى تقاريرها عن الأعمال البرلمانية ولقد وقع انفجار فى « هاسويل » بعد الإضراب مباشرة ، وذهب « روبرتس » إلى لندن ، وطالب بإجتماع مع « بيل » ، وأصر باعتباره ممثلا لعمال المناجم ، على إجراء بحث دقيق للحالة . ونجح فى أن يعهد إلى البروفسورين « لييل » و « فاراداى » وهما أبرز مشهورين فى الجيولوجيا والكيمياء فى انجلترا ، بزيارة المكان . وحيث أن إنفجارات أخرى قد وقعت بعد ذلك فى تتابع سريع ، فإن « روبرتس » وضع التفصيلات مرة أخرى أمام رئيس الوزراء ، الذى وعد أن يقترح كل التدابير اللازمة لحماية العمال ، فى دورة البرلمان التالية ، أى الدورة الحالية لعام ١٨٤٥ ، إن كان ذلك ممكنا . ما كان كل هذا ليتم إن لم يكن هؤلاء العمال قد أثبتوا ، عن طريق الإضراب ، إنهم رجال محبون للحـــرية ، ويستحقون كل احترام ، وإن لم يكونوا قد استخدموا « روبرتس » مستشاراً لهم .

ما كاد يصبح معروفا أن عمال مناجم فحم الشمال قد أجبروا على التبرىء من الاتحاد وعلى طرد « روبرتس » ، حتى كون عمال المناجم فى « لانكشاير » إتحاد من قرابة عشرة آلاف رجل ، وكفلوا « لمدعيهم العام » راتبا سنوياً قدره ١٢٠٠ جنيهاً إسترلينياً . لقد جمعوا فى خريف العام الماضى أكثر من ٧٠٠ جنيهاً إسترلينياً ، صرفوا منها أكثر من ٢٠٠ جنيهاً على الأجور ونفقات التقاضى ، وصرف الباقى أساساً فى دعم العاطلين ، بسبب إفتقادهم العمل أو بسبب نزاعاتهم مع مستخدميهم . وبذا فقد أخذ العمال يدركون بثبات وبصورة أوضح ، أنهم فى وحدتهم قوة تستحق الاعتبار أيضاً ، وأنهم فى وسعهم فى المدى الأخير ، أن يهزموا بأس البورجوازية أيضاً . إن كل ما اغتنمته كل الحركات العمالية من بعد نظر ، قد كسبه كل عمال المناجم فى انجلترا ، عن طريق « الاتحاد » والإضراب الذى تم عام ١٨٤٤ . إن التفاوت فى الذكاء والنشاط ، والموجود حالياً لصالح

عمال المصانع ، سوف يختفي في زمن قصير للغاية ، ولسوف يصبح عمال المناجم في المملكة ، قادرين على الوقوف معهم جنباً إلى جنب في كل وجه من الوجوه* ، وبذا فإن قطعة وراء أخرى من الأرض التي تقف البورجوازية عليها تتقوض تحت أقدامها ، وأي قدر من الوقت سينقضي قبل أن ينهار صرحها الاجتماعي والسياسي بقواعده التي يستقر عليها ؟

إلا أن البورجوازية لن تأخذ حذرها . إن مقاومة عمال المناجم لا تفعل غير أن تزيد من إغاظتها . وبدلا من أن تعرف قيمة هذه الخطوة إلى الأمام ، في الحركة العامة للعمال ، فإن الطبقة الممسكة بالملكية لا ترى فيها غير مصدر حنق وغضب ضد طبقة من الناس ، بلهاء إلى حد إعلان إنهم لن يذعنوا أطول من ذلك ، للمعاملة التي كانوا يتلقونها حتى الآن . إنها لا ترى في مطالب العمال الذين لا يمتلكون ، إلا سخطا وقحاً ، وتمرداً معتوهاً ضد « النظام الإلهي والبشري » ، وفي أحسن الأحوال نجاح (يجب أن تقاومه البورجوازية بكل بأسها) تحقق بواسطة « الديماجوجيين سيئي النية ، والذين يعيشون على الإثارة ، لأنهم أكسل من أن يعملوا » . لقد سعت دون نجاح بالطبع ، كي تصور للعمال أن « روبرتس» ووكلاء « الاتحاد » ، والذين على الاتحاد أن يدفع لهم بالتأكيد ، إنما هم نصابين وقحين ، يسحبون آخر مليم من جيوب العمال . عندما يسود مثل هذا الخلل العقلي في الطبقة الممسكة بالملكية ، عندما يصيبها كسبها الوقتي بمثل هذا العمى ، حتى لم يعد لديها عيون ترى أكثر دلالات الأزمنة ظهوراً للعيان ، فإنه يجب بالتأكيد ، إنهاء كل أمل في حل سلمي للمشكلة الاجتماعية في انجلترا . إن الحل الوحيد الممكن هو ثورة عنيفة ، ثورة لا بد من وقوعها .

---

* كان لدى عمال المناجم في تلك اللحظة عام ١٨٨٦ ، ستة من جماعتهم يجلسون في مجلس العموم .

البروليتاريا الزراعية

لقد رأينا فى المقدمة ، كيف تحطمت البورجوازية الصغيرة والاستقلال المتواضع للعمال الأول والفلاحون الصغار أيضاً ، فى آن واحد ، عندما فض « الاتحاد » السالف بين العمل الصناعى والزراعى ، وأدخلت المزارع المهجورة جملة فى مزارع كبيرة ، وألغت المنافسة الشاملة لكبار المزارعين ، صغار المزارعين . وبدلا من أن يكونوا ملاك أرض ومستأجرين كما كانوا من قبل ، أجبروا الآن على تأجير أنفسهم كعمال للمزارعين الكبار وأصحاب الأراضى . كان هذا الوضع محتملا إلى حين رغم سوئه إن قورن بوضعهم السابق . وساير إتساع الصناعه زيادة السكان ، حتى بدأت الصناعة تتخذ خطى أبطىء ، ثم غدا من المستحيل على الصناعة أن تمتص كل فائض السكان الزراعى بسبب التحسين المستمر فى الآلة . منذ ذلك الحين وما تلاه ظهرت المحنة . كانت حتى ذلك الحين موجودة فى المناطق الصناعية فقط وفى بعض الأحيان فقط ، ظهرت المحنه فى المناطق الزراعية أيضاً . فى هذا الوقت تقريباً ، جاءت نهاية الخمسة وعشرين عاما فى الصراع مع فرنسا . وأعطى الإنتاج المتناقص للركائز المختلفة للحروب ، وقطع الواردات ، والحاجة إلى تزويد الجيش البريطانى فى أسبانيا ، وأعطى للزراعة الانجليزية رخاء خادعا ، كما سحبت بالإضافة إلى ذلك ، أعداد هائلة من العمال ، من عملهم الطبيعى إلى الجيش . إن منع تجارة الوارد ، وفرصة التصدير والطلب العسكرى على العمال ، قد بلغ الآن نهايته فجأة ، وكانت النتيجة الحتمية لذلك ، ما أسماه الانجليز بالمحنة الزراعية . كان على المزارعين أن يبيعوا قمحهم بأسعار منخفضة ، وبالتالى لم يعد فى وسعهم إلا أن يدفعوا أجوراً منخفضة . وصدرت قوانين القمح عام ١٨١٥ بغرض المحافظة على الأسعار ، مانعة استيراد القمح

طالما ظل سعره أقل من ٨٠ شلنا للوزنة* . وعدلت تلك القوانين العظيمة بالطبع عدة مرات ، إلا أنها لم تنجح فى إصلاح النكبة فى المناطق الزراعية . لم يكن كل ما فعلوه غير تغيير المرض الذى كان من الممكن أن يتخذ شكلا حاداً فى ظل المنافسة الأجنبية الواردة من الخارج — ليبلغ أوجه فى سلسلة من الأزمات تتصل فى أزمة حادة ، تنوء بثقلها — وإن كان بطريقة متسقة — على عمال المزارع .

إن العلاقة الأبوية بين السيد والرجل ، والتى تحطمت مع الصناعة ، قد أدت هنا — ولفترة من الزمن بعد نشوء البروليتاريا الزراعية — إلى نمو نفس العلاقة بين المزارع وعماله ، إن تلك العلاقة ما تزال قائمة فى كل ألمانيا تقريباً . لقد كان فقر العمال أقل وضوحا ، طالما ظلت تلك العلاقة فى حالات الضرورة القصوى ، إلا أن كل هذا قد تغير الآن . إن الأيدى التى تعمل فى المزرعة قد تحولت إلى عمال يومية فى كل مكان تقريباً ، إنهم يدعون للعمل فقط عندما يحتاج المزارعون إليهم ، وبالتالى فهم لا يجدون فى الغالب عملا لأسابيع متصلة ، وخاصة فى الشتاء . كانت الأيدى العاملة وأسرها تعيش فى الفترة الأبوية على المزرعة ، حيث كان يشب أطفالهم هناك ، وكان المزارع يحاول إيجاد عمل للجيل القادم . وكان عمال اليومية إذن ، هم الاستثناء لا القاعدة وبالتالى كان هناك فى كل مزرعة ، عدد من الأيدى العاملة أكبر من الحاجة الفعلية بالضبط . وبذا أصبح من صالح المزارعين حل هذه العلاقة ، وطرد عامل المزرعة من المزرعة ، وتحويله إلى عامل باليومية لقد حدث هذا تقريباً وبشكل عام ، نحو عام ١٨٣٠ ، وكانت النتيجة هى إطلاق فائض السكان الذى كان كامنا حتى ذلك الحين ، فالزم معدل الأجور على الانخفاض وارتفع معدل الفقر بصورة هائلة ، ومنذ ذلك الوقت صارت المناطق الزراعية بؤراً دائمة للفقر ، مثلها فى ذلك مثل المناطق الصناعية والتى كانت بؤراً دورية للفقر منذ أمد بعيد . وكان تعديل « قانون الفقراء » هو أول معيار إضطرت « الدولة » إلى تطبيقه على حالة الإفقار المتزايد بصـــورة يومية فى إبراشيات الريف . يضاف إلى ذلك أن الاتساع المستمر لأعمال الزراعة على نطاق واسع ، وإدخال آلات الدراسة وغيرها ، وتشغيل النساء والصبية (والذى هو الآن ظاهرة عامة ، حتى أن آثارها قد فحصت مؤخراً بواسطة مندوب رسمى خاص)،

* الوزنة ٢٨ رطلا (المترجم) .

قد ألقت بعدد كبير من الرجال خارج نطاق العمل . من الواضح إذن ، إن نظام الإنتاج الصناعي قد شق طريقه هنا أيضاً ، بالزراعة على نطاق واسع ، وفسخ العلاقة الأبوية والتي لها هنا أهمية قصوى ، وذلك بإدخال الآلات والبخار وعمل النساء والصبية . وبهذا الفعل . فإن آخر جزء من البشرية العاملة وأكثرها سكونا قد شد إلى الحركة الثورية . إلا أنه بقدر ما طال سكون الزراعة ، بقدر ما غدا الحمل الآن ثقيلا فوق العامل ، بقدر ما ظهرت نتائج الإخـــلال بنظام النسيج الاجتماعي القديم بعنف . وظهر « فائض السكان » للتو إلى الضوء . لم يكن من الممكن امتصاصه عن طريق حاجات الإنتاج المتزايد ، كما يحدث في المناطق الصناعية . إذ من الممكن دوما بناء مصانع جديدة ، إن كان هناك مستهلكين لمنتجاتها إلا أنه لا يمكن خلق أرض جديدة . إن فلاحة الأرض البور المشاعة ، كان فكرة جريئة للغاية بالنسبة للأوقات السيئة التي تلت نهاية السلام . إن المنافسة بين العمال بعضهم البعض — كنتيجة حتمية — قد بلغت أعلى درجات الحدة ، كما أن الأجور هبطت إلى أدنى حد . إن العمال يتسلمون إعانة من الضرائب المحلية ، مادام « قانون الفقراء »* القديم ما زال قائماً ، وهبطت الأجور بالطبع إلى مستو أكثر إنخفاضاً ، حيث إضطر المزارعون أكبر عدد من العمال للمطالبة بالمعونة . إن المعدل الأكثر إرتفاعا للفقراء ، والذي يوجبه فائض السكان ، قد إزداد فقط بهذا الإجراء ، وشرع « قانون الفقراء » الجديد كعلاج ، وهو القانون الذي سنتحدث عنه فيما بعد . إلا أن هذا لم يحسن الأمور . لم ترتفع الأجور ، ولم يكن في الاستطاعة التخلص من فائض السكان ، ولم تفعل وحشية القانون الجديد شيئاً غير تغيص الناس إلى أقصى حد . وحتى معدل الفقراء ، الذي تضاءل في البداية بعد الموافقة على القانون الجديد ، إستعاد إرتفاعه القديم بعد سنوات قليلة . وكان تأثيره الوحيد ، أنه بينما كان يوجد من ثلاثة إلى أربعة ملايين من أنصاف المعوزين فيما سبق ، فقد ظهر الآن مليونين من المعوزين تمام العوز وظل الباقون نصف معوزين ، فقط دون إعانة . إن الفقر في المناطق الزراعية قد إزداد كل عام . إن الناس يعيشون في أكبر عوز وحاجة ، إن عائلات بأكملها يجب أن

* انظر أسفل صفحة ٣٢٨ من هذا الجزء — الناشر .

تكافح قدما بست أو سبع أو ثمان شلنات فى الأسبوع ، وفى بعض الأحيان لا يكون لديها أى شىء . دعونا نستمع إلى وصف لهؤلاء السكان ، قدمه عضو برلمان من « الأحرار » فى فترة مبكرة من عام ١٨٣٠* .

«عامل زراعى إنجليزى ومعوز إنجليزى إنما هى كلمات مترادفة. لقد كان أبوه معوزاً ، ولم يكن يحتوى لبن أمه على أى قوت . منذ طفولته المبكرة وغذاءه ردىء . إنه لا يتناول غير نصف ما يكفى لإسكات جوعه . ومع ذلك فإنه يعانى عضة الجوع الذى لم يشبع طوال يقظته ، إنه نصف مكتسى ، ليس لديه نار أكثر من تلك التى تكفى لطبخ وجبته الطفيفة . ولذا يلازمه البرد والرطوبة دوماً فى المنزل ، وهما لا يتركانه إلا إن تحسن الطقس . إنه متزوج ، لكنه لا يعرف شيئاً عن مسرات الزوج والأب . إن زوجته وأطفاله جوعى ، نادراً ما يدفأون ، مرضى وعاجزون فى غالب الأحوال تصيبهم المتاعب والهموم على الدوام . وهم بلا أمل مثله . إنهم بالطبع ممسكى اليد ، أنانيين ، مزعجين ، وبذا فإنه — طبقاً لتعبيره هو — يكره مرآهم . إنه يدخل كوخه فقط ، لأنه يقدم له مأوى من الريح والمطر ، أفضل بقدر ضئيل من ذلك الذى يقدمه سياج . عليه أن يعول أسرته ، رغم أنه لا يستطيع فعل ذلك ، وعندما تحل الفاقة ، فإنه يرتكب كل أنواع الغش والخداع ، منتهياً إلى الإحتيال الكامل التام . إنه وإن كان قد انحدر إلى هذا الحد ، فإنه ما يزال يملك الشجاعة التى تجعل ممن هم أكثر قوة وهمة فى طبقته ، لصوص صيد أو مهربين بالجملة . إلا أنه يسلب إن واتته الفرصة ، ويعلم أبناءه الكذب والسرقة. إن سلوكه الذليل المستسلم لجيرانه الأثرياء ليوضح أنهم يعاملونه بغلظة وريبة، وبالتالى فهو يخافهم ويكرههم، إلا أنه لن يضيرهم عنوة . إنه يفسد خلقياً على طول الخط ، لقد تمادى كثيراً ليمتلك قوة اليأس أيضاً . إن وجوده

* ا . ج . ويكفيلد ، م . ب « سوينج دون قناع ، أو سبب حرائق العمد فى الريف » لندن ، ١٨٣١ ، كتيب رعا توجد الاقتباسات السابقة فى الصفحات ٩ — ١٣ ، إن الفقرات التى تتناول ، فى الأصـــل ، « قانون الفقراء » القديم والذى مازال قائماً ، قد حذفت هنا .

(لمعرفة « سوينج » ، أنظر صفحات ٣٠٧ ، ٣٠٨ من هذا الجزء — الناشر) .

التعس قصير ، إن الروماتيزم والربو يقودانه إلى دار تشغيل الفقراء ، حيث يلفظ أنفاسه الأخيرة دون ذكرى واحدة مفرحة ، ويفسح المجال لتعس آخر عديم الحظ ، ليعيش ويموت كما عاش هو وكما مات » .

ويضيف كاتبنا أنه إلى جوار تلك الطبقة من العمال الزراعيين ، ما تزال هنالك طبقة أخرى أكثر نشاط إلى حد ما ، إنها موهوبة صحياً وعقلياً وأخلاقياً بطريقة أفضل ، إنها مكونة بالتحديد من هؤلاء الذين يعيشون نفس الحياة التعسة ، إلا أنهم لم يولدوا على تلك الحال . إنه يقدمهم على أنهم أفضل فى حياتهم العائلية ، إلا أن المهربين ولصوص الصيد والذين يدخلون فى صدامات دموية عديدة مع حراس غابات الصيد وضباط السواحل يصبحون أكثر شعوراً بالمرارة . ضد المجتمع ، خلال حياة السجن التى غالباً ما يقاسونها . وهكذا يقفون جنباً إلى جنب مع الطبقة الأولى فى كراهيتهما للقابضين على الملكية ، ويقول الكاتب فى النهاية « إن كل هذه الطبقة ، تدعى من باب المجاملة ، فلاحو انجلترا الجسورين » .

ان هذ الوصف ، عند الوصول إلى الوقت الراهن ، ينطبق على الجزء الأكبر من العمال الزراعيين فى إنجلترا . فلقد أرسلت « التايمز » فى يونيو ١٨٤٤ ، مراسلا إلى المناطق الزراعية ليكتب تقريراً عن وضع هذه الطبقة . وقد إتفق التقرير الذى أعده الراسل ، تمام الإتفاق ، مع ما جاء فيما سبق . كانت الاجور فى بعض المناطق لا تزيد عن ست شلنات فى الأسبوع ، أى أنها لا تزيد عن تلك التى فى كثير من المناطق فى ألمانيا ، بينما تبلغ أسعار كل ضروريات الحياة ضعفها على الأقل . أى حياة تلك التى يحياها هؤلاء الناس أمر يمكن تصوره ، إن طعامهم طفيف وردىء ، ملابسهم مهلهلة ، مآويهم أكواخ يائسة صغيرة ، مكدسة وخربة ، ليس بها أى نوع من أنواع الراحة ، كما أنه يندر فصل الرجال عن النساء ، فى المنازل المؤجرة مفروشة للشباب ، مما يحرض على الجماع غير الشرعى . أن البقاء دون عمل مدة يوم أو يومين خلال الشهر أمر لابد وأن يدهم هؤلاء الناس الذين هم فى أشد حالات الحاجة بشاعة ، يضاف إلى ذلك ، أنهم لا يستطيعون الإتحاد لرفع أجورهم ، حيث أنهم متناثرين ، وإن حدث ورفض أحدهم بمفرده أن يعمل طبقاً للأجور المنخفضة ، فهنالك العشرات بلا عمل ،

أو ممن تعولهم ضرائب البلدية ، وهم حامدين شاكرين لأشد العروض تفاهة ، بينما يرفض القائمون على « قانون الفقراء » تقديم أى إعانة ، لهذا الذى يرفض العمل ، إلا أن يعمل فى « دار تشغيل الفقراء » الكريهة ، باعتبار أنه متشرد كسول ، حيث أن الأوصياء هم أنفسهم المزارعين الذين سيطلب منهم وحدهم أو جيرانهم أو معارفهم ، عملا . إن مثل تلك التقارير لم يرد فقط من منطقة أو منطقتين بعينهما فى إنجلترا ، بل على عكس ذلك ، الضيق عام ، تتساوى ضخامته فى الشمال والجنوب ، فى الشرق والغرب . إن وضع العمال فى «سوفولك» و « نورفولك » يتطابق مع ذلك الذى فى «ديفونشاير» «وهامبشاير» «وسوسكى». إن الأجور منخفضة فى « دورسيتشاير » و « اكسفورد شاير » ، كما هو الحال فى « كنت » و « سورى » و « باكينجهام شاير » و « كمبريدج شاير » .

إن « قوانين الصيد » تتضمن قساوة همجية ضد الطبقة العاملة بشكل خاص ، إنها هنا أشد تضييقاً عنها فى أى بلد آخر ، رغم وفرة الصيد بصورة تفوق كل تصور . إن الفلاح الإنجليزى الذى يرى فى سرقة البط فقط ، تعبيراً طبيعياً ونبيلا عن الشجاعة والجسارة ، طبقاً للعادة والتقليد الإنجليزى التليد ، ليستفزه أكثر وأكثر ، ذلك التناقض بين فقره ومسرات اللورد ، ذلك الذى يحافظ على آلاف الأرانب البرية وطيور الصيد لمتعته الخاصة . إن العامل ينصب الشراك ، أو يطلق النار هنا وهناك على قطعة من الصيد ، إن هذه القطعة لن تضير المالك فى الحقيقة ، إذ لديه فائض وفير ، فى حين أنها تقدم لسارق الصيد ، وجبة له ولأسرته الجائعة . إلا أنه لو أمسك لأرسل إلى السجن ، وفى حالة إرتكاب الجرم لثانى مرة ، فإنه ينال سبعة سنين فى المنفى على الأقل . إن قسوة « قوانين الصيد » تتسبب فى صدامات دموية عديدة مع حراس غابات الصيد ، وهى تؤدى كل عام إلى عدد من حوادث القتل ، ولذا فإن وظيفة حارس الصيد ، ليست مجرد وظيفة خطرة ، بل إنها سيئة السمعة أيضاً ومحتقرة . لقد حدث فى حالتين فى العام الماضى ، أن أطلق حارسا صيد النار على نفسيهما ، مفضلين ذلك عن الاستمرار فى عملهما . ذلك هو متوسط الثمن الذى تبتاع به أرستقراطية أصحاب الأراضى رياضة الصيد النبيلة ، لكن ماذا يهم سادة الأرض من ذلك؟ ماذا يهمهم إن مات واحد أو إثنان ، أكثر أو أقل من «الفائض » ، إن ذلك لا يعنى شيئاً ،

بل لو أمكن إزاحة نصف فائض السكان نتيجة « قوانين الصيد » ، فإن ذلك كله سيكون خيراً للنصف الآخر — وذلك طبقاً للنهج الذى يسير عليه أصحاب الأرض الإنجليز بذلا فى سبيل الإنسانية .

إن الفقر والحاجة يحملان ثمارهما حتى إلى هنا ، رغم أن أحوال الحياة فى الريف والمآوى المنعزلة ، وثبات البيئة والحرف ، وبالتالى الأفكار لابد وأن تكون غير مواتية لأى تطور . لقد أظهرت البروليتاريا الصناعية والتعدينية فى فترة مبكرة ، منذ المرحلة الأولى لمقاومة نظامنا الإجتماعى ، تمرداً فردياً مباشراً باقتراف الجريمة ، إلا أن الفلاحين فى وقتنا الراهن ، ما يزالوا فى هذه المرحلة . إن طريقتهم المفضلة فى الحرب الإجتماعية هى الحرق العمد . لقد غدت تلك الحرائق عامة ، خلال الشتاء الذى أعقب ثورة يوليو عام ١٨٣٠ — ١٨٣١ . لقد وقعت الإضطرابات فى أكتوبر ودخلت منطقة « سوسكى » كلها والأقاليم المجاورة لها فى حالة من الهياج ، وذلك على أثر زياده حرس السواحل (مما جعل التهريب أكثر صعوبة ، و « دمر الساحل » — كما جاء فى كلمات أحد المزارعين) ، والتغييرات التى أدخلت على «قانون الفقراء » ، والأجور المنخفضة وإدخال الآلات . لقد حرق تبن وأعواد قمح المزارعين فى الحقول ، وتحت نوافذ الزرائب والاسطبلات ذاتها . كان يشعل حريقان من أمثال تلك الحرائق كل ليلة تقريباً ، فينشران الذعر بين المزارعين وملاك الأراضى ، ونادراً ما كان يكتشف المذنبين ، ولقد نسب العمال الحرق العمد إلى شخص أسطورى ، أطلقوا عليه إسم « سوينج » * . لقد أجهد الرجال عقولهم لإكتشاف من يكون « سوينج » هذا ، ومن أين هذا الغضب بين فقراء المناطق الريفية . إن واحداً هنا أو هناك فقط ، قد فكر فى أن القوة الكبرى الدافعة لذلك ، إنما تكمن فى العوز والإضطهاد ، إلا أن الشىء المؤكد ، هو أن أحداً من هؤلاء لم يكن من المناطق الزراعية . ومنذ ذلك العام تكررت تلك الحرائق العمد كل شتاء ، مع كل فصل تتكرر فيه بطالة العمال الزراعيين . ولقد تكررت تلك الحرائق مرة أخرى ، وبطريقة أكثر غرابة فى شتاء عام ١٨٤٣ — ١٨٤٤ .

---

* الأرجوحة (المترجم) .

وأمامى الآن ، ترقد سلسلة فى أعداد « النورثن ستار » الصادرة فى ذلك الوقت ، إن كل منها تشتمل على تقرير عن حرائق عمد عديدة ، ذاكرة مرجعها فى كل حالة . إن الأعداد الناقصة فى القائمة التالية ، لم تكن فى متناول اليد ، إلا أنها تحتوى أيضاً ودون شك عدداً من الحالات . يضاف إلى ذلك ، أن مثل تلك الصحيفة ، ربما لا يمكنها أن تثبت كل ما يقع من حالات . ففى الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٨٤٣ وقعت حالتان ، وهنالك حالات عديده مبكره يتم بحثها . وفى السادس عشر من ديسمبر وقع هياج عام مدة أسبوعين ، أثر حرائق عمد متكررة ، كان يحدث العديد منها فى كل ليلة . لقد أحرقت خلال الأيام القليلة الماضية دارين فى مزرعتين كبيرتين ، وأحرقت فى « كامبريدج شاير » أربع دور فى مزارع كبيرة ، وواحدة فى « هرفورد شاير » ، وإلى جانب ذلك ، خمسة عشر حريق عمد فى مناطق مختلفة . وحدثت فى الثلاثين من ديسمبر ، حريقة واحدة فى « سوفولك » ، وإثنتان فى « اسكس » وواحدة فى « ششاير » ، وواحدة فى « لانكشاير » ، وإثنى عشر فى « دربى » ، لينكولن والجنوب . وكان المجموع الكلى للحرائق فى السادس من يناير ١٨٤٤ عشرة حرائق . وسبعة فى الثالث عشر من يناير ، وأربع حرائق عمد فى العشرين من يناير . وشملت التقارير ، منذ ذلك الوقت وما تلاه ثلاث أو أربع حرائق عمـــدية كل أسبوع ، ولم تتوقف الحرائق بمجىء الربيع كما كان فى الماضى . بل امتدت أيضاً إلى يوليو وأغسطس . إن هذا النوع من الجرائم فى إزدياد خلال الموسم القاسى المقترب لعام ١٨٤٤ — ٤٥ ، والذى أشارت إليه الصحف الإنجليزية بالفعل .

بماذا يفكر قرائى فى شئون هذا حالها ، فى مناطق ريفية فى انجلترا ، مناطق هادئة وبسيطة وساحرة ؟ هل هذه حرب إجتماعية أم لا ؟ هل تلك هى الأوضاع الطبيعية التى يمكن أن تدوم ؟ ومع كل ذلك فإن أصحاب الأراضى والمزارعين هنا أغبياء ذاهلين . إنهم عميان أيضاً عن كل شىء لا يضع المال فى جيوبهم مباشرة ، مثلهم فى ذلك مثل أصحاب المصانع والبورجوازية عموما فى المناطق الصناعية . وإن كان أصحاب المصانع يعدون العاملين لديهم بالخلاص عن طريق إلغاء « قوانين القمح » ، فإن ملاك الأراضى وجزء كبير من المزارعين يعدون العاملين لديهم بفردوس فوق الأرض عن طريق تعضيد نفس القوانين . إلا أن القابضين على الملكية فى كلا الحالين لم ينجحوا فى كسب العمال إلى هوايتهم المحببة .

إن العمال الزراعين ، مثلهم فى ذلك مثل الصناع ، غير مبالين بإلغاء « قوانين القمح » أو عدم إلغائها . ومع ذلك فإن السؤال هام لكليهما . أى يمكن القول أنه بإلغاء « قوانين القمح » والمنافسة الحرة ، فإن الاقتصاد الاجتماعى الحالى يسير إلى نقطته القصوى ، ويصل كل مزيد من التطور فى إطار النظام الحالى إلى نهايته ، وتصبح الخطوة الوحيدة الأبعد من ذلك ، هى التحويل الجذرى للنظام الإجتماعى* . بالإضافة إلى ذلك ، كان هذا السؤال يطرح على العمال الزراعيين ، تلك العلاقة الهامة التاليه : إن الاستيراد الحر للقمح ، يتضمن تحرر المزارعين من ملاك الأراضى وتحويلهم إلى « أحرار » (أما كيفية حدوث ذلك ، فليس فى وسعى أن أشرحها « هنا ») . لقد عاونت العصبة المعادية لقانون القمح فى الوصول إلى هذه النهاية . وتلك هى الخدمة الوحيدة الحقيقية التى قامت بها . إذ عندما يصبح المزارعون « أحراراً » فإن البورجوازيين الواعين والعمال الزراعيين ، سيصبحون بالحتم « ميثاقيين » و « اشتراكيين » ، إن التغيير الأول يتضمن التغيير الثانى . لقد تحققت بداية فعلية لحركة جديدة بين العمال الزراعيين فى اجتماع دعا إلى عقده « إيرل راندور » — وهو مالك أراضى من الأحرار — فى أكتوبر عام ١٨٤٤ ، قرب « هاى وورث » ، حيث تقع أملاكه ، وذلك للموافقة على قرارات موجهة ضد « قوانين القمح » ، إلا أن العمال الذين لم يكونوا مهتمين على الإطلاق بهذه القوانين ، قد طالبوا فى هذا الإجتماع بشىء مختلف تمام الاختلاف ، طالبوا بمنحهم قطعاً من الأرض صغيرة بإيجار منخفض ملقين بكل أنواع الحقائق المرة ، فى وجه « ايرل راندور » . وبذلك تجد حركة الطبقة العاملة طريقها إلى المناطق الزراعية المائتة معنويا ، الساكنة النائية ، وشكراً للضيق العام ، الذى سيغدو فى القريب متأصلا بعزم ونشاط ، كما هو الحال فى المناطق الصناعية** .

---

* لقد تحقق هذا حرفيا ، إذ بعد فترة من إتساع لا مثيل له فى التجارة ، أوقعت « التجارة الحرة » انجلترا فى أزمة بدأت عام ١٨٧٨ ، وما زالت فى تزايد نشيط فى عام ١٨٨٦ .

** ان للعمال الزراعيين الآن « اتحادات عمال » ، ان أكثر ممثليهم نشاطا هو « جوزيف آرك » ، والذى انتخب عضوا فى البرلمان عام ١٨٨٠ .

أما بالنسبة لحالة العمال الزراعيين الدينية ، فإنهم — وهذا حق — أكثر ورعا من العمال الصناعيين ، إلا أنهم — أيضاً — فى شجار مع الكنيسة ، حيث لا يكاد يوجد فى تلك المناطق إلا أعضاء مخلصين من « الكنيسة المعترف بها من الدولة » ، إن مراسلا لجريدة « المورنينج كرونيكل » ، يستخدم توقيع « الرجل الذى صفر على المحراث »* ، يكتب عن رحلته عبر المناطق الزراعية ، ويروى المحادثة التالية التى جرت مع بعض العمال بعد القداس ، ضمن ما يرويه من أشياء أخرى : —

« سألت واحداً من هؤلاء الناس ، إن كان واعظ اليـــوم هو كاهنهم الانجليكانى ، قال نعم ، لتصيبه الآفة ! انه راعى كنيستنا ، وهو يتسول طوال الوقت ، انه دائم التسول منذ عرفته (كانت الموعظة عن بعثه إلى الوثنيين) ، وأضاف آخر ، وأنا أيضاً لم أعرف القسيس فيه البتة ، طوال معرفتى به ، بل عرفت فيه ذلك الذى يتسول لهذا أو ذاك » ، وقالت امرأة كانت قد خرجت من الكنيسة لتوها ، « نعم أنظر كيف تهبط الأجور ، وانظر الى المتشردين الأثرياء الذين يأكل القسيس معهم ويشرب ويصطاد . ساعدنى يا الهى ، ان الموت جوعا فى «دار تشغيل الفقراء» لأمر أكثر مناسبة لنا من أن ندفع للقساوسة حتى يذهبوا الى وسط الوثنيين » . وقال آخر « ألا يرسلون القسس كدكور النحل كل يوم كاتدرائية سالسبورى ، أليس ذلك من أجل لا أحد غير الأحجار العارية ؟ لماذا لا يذهبون « هم » الى الوثنيين ؟ « انهم لا يذهبون » ، قال الرجل العجوز الذى سألته أولا ، « لأنهم أغنياء ، انهم يمتلكون كل الأراضى التى يحتاجونها ، انهم يريدون النقود حتى يتخلصوا من القسس الفقراء ، انى أعرف ما يريدون ، انى اعرفهم منذ زمن بعيد» . وتساءلت أنا « من المؤكد أيها الأصدقاء الطيبون أنكم لا تخرجون على الدوام من الكنيسة ، بمثل هذه المشاعر المرة تجاه الواعظ ؟ لماذا تذهبون على أى حال » . « لماذا نذهب » ، قالت المرأة ، « يجب علينا أن نذهب . ولقد علمت فيما بعد أنهم يمنحون ميزات محدودة . خاصة بخشب الحريق وأرض البطاطس (والتى يدفعون عنها !) على شريطة أن يذهبوا الى الكنيسة » .

* انه التوقيع القلمى « لالكسندر سومرفيل » — الناشر .

وينتهى المراسل ، بعد وصف فقرهم وجهالتهم ، إلى القول :

« والآن فإننى أؤكد بشجاعة ، أن حالة هؤلاء الناس ، فقرهم وكراهيتهم للكنيسة ، اذعانهم الخارجى ، ومرارتهم الداخلية ضد الرؤساء الكهنوتيين ، إنما هى القاعدة بين الابرشيات الريفية فى إنجلترا ، وأن عكسها هو الاستثناء »

إن كان فلاحو إنجلترا قد جعلها النتائج التى تتضمنها علاقة بروليتاريا زراعية كثيرة العدد ، بزراعة كبيرة ، أمراً واضحاً فى المناطق الريفية ، فإن « ويلز » توضح بالشواهد ، دمار صغار الملاك . وإن كانت الابرشيات الريفية الانجليزية تولد العداء بين الرأسمالى و ابروليتارى ، فإن حالة فلاحى « ويلز » تناظر الدمار

إن كان فلاحو إنجلترا قد جعلوا النتائج التى تتضمنها علاقة بروليتاريازراعية كثيرة العدد ، بزراعة كبيرة ، أمراً واضحاً فى المناطق الريفية ، فإن « ويلز » توضح بالشواهد ، دمار صغار الملاك . وإن كانت الابرشيات الريفية الإنجليزية تولد العداء بين الرأسمالى والبروليتارى ، فإن حالة فلاحى « ويلز » تناظر الدمار المطرد للبورجوازية الصغيرة فى المدن . إذ لا يكاد يوجد فى « ويلز » غير ملاك صغار ، لا يستطيعون بيع منتجاتهم رخيصة ، بنفس الربح الذى يحققه من هم أكبر منهم ، هؤلاء المزارعين الإنجليز الذين هم فى وضع أفضل ، والذين هم مضطرين إلى منافستهم على أية حال . يضاف إلى ذلك ، أن نوعية الأرض فى بعض الأماكن ، لا تسمح إلا بتربية المواشى فقط ، وتلك تكاد تكون قليلة الربح . كما أن مزارعى « ويلز » أكثر إستقراراً من المزارعين الإنجليز ، ومرجع ذلك إلى قوميتهم المنفصلة ، والتى يحافظون عليها بعناد . إلا أن المنافسة فيما بينهم هم ، وفيما بينهم وبين جيرانهم الانجليز (والرهونات المتزايدة على أرضهم نتيجة هذا) ، قد نزلت بهم إلى منزلة لا يكادوا يعيشون البتة فى ظلها . وحيث أنهم لا يعرفون السبب الحقيقى لما هم فيه من تعاسة ، فإنهم يرجعون ذلك إلى كل أنواع العلل الطفيفة ، مثل المكوس المرتفعة ... الخ ، والمكوس تعيق بالفعل تطور الزراعة والتجارة ، إلا أن كل من يأخذ قطعة أرض ، يضع المكوس فى الحسبان كرسوم دائمة ، وبذا فإن الذى يدفعها ، فى الحقيقة فى نهاية الأمر ، هو المالك . إن « قانون الفقراء » الجديد مكروه ، هنا أيضاً ، من صميم فؤاد

المستأجرين الذين يرتعدون من خطر دائم ، إن يقعوا تحت تسلط . لقد نشبت عام ١٨٤٣ إضطرابات ربيكا الشهيرة بين فلاحى « ويلز » لقد إرتدى الرجال ثياب النساء وسودوا وجوههم ، وإنقضوا فى جموع مسلحة على بوابات المكوس ، وحطموها وسط إطلاق البنادق والتهليل الهائل ، كما دمروا منازل حراس المكوس ، وكتبوا خطابات تهديد بإسم «ربيكا» الخيالى . وتمادوا ذات مرة إلى حد إقتحام دار « كارمرش » لتشغيل الفقراء ، وعندما إستدعيت الميليشيا وعززت الشرطة فيما بعد ، قام الفلاحون بسحبهم فى مهارة تدعو للإعجاب وراء آثار مزيفة ، لقد دمروا بوابات المكوس عند إحدى النقط ، بينما الميليشيا تسير فى الاتجاه المعاكس ، بعد أن إستدرجتها أبواق الاشارة المزيفة . وعندما دعمت الشرطة دعماً كلياً ، إنصرف الفلاحون فى النهاية إلى الحرائق الفردية ومحاولات القتل . وكالمعتاد ، كانت تلك الجرائم الكبرى هى نهاية الحركه . لقد إنسحب الكثيرون بسبب الاستهجان ، وانسحب آخرون من الخوف ، وعاد السلام من تلقائه . وعينت الحكومة لجنة لتقصى الأمر ودوافعه ووضع نهاية لهذا الأمر . إلا أن فقر الفلاحين ، على أى حال ، سوف يستمر ، وهو الذى سوف ينتج يوماً ما مظاهر أكثر جدية من ذلك التنكر الهزلى « ربيكا » حيث أنه لا يمكن أن يضمر فى ظل الظروف الراهنة بل لابد وأن يزداد كثافة .

إن كانت إنجلترا تظهر نتائج نظام الزراعة على نطاق واسع ، « وويلز » على نطاق ضيق ، فإن إيرلندا تبين نتائج التقسيم الزائد عن الحد للأرض . إن الكتلة الكبيرة من سكان إيرلندا تتكون من مستأجرين صغار ، يشغلون أكواخاً كئيبة دون حواجز ، ورقعة بطاطس مساحتها تكفى إمدادهم بالبطاطس طوال الشتاء ، مع إستخدام أقصى درجات التقتير . ولقد بلغ إيجار الأرض حداً من الارتفاع لم يسمع به ، إنه ضعف أو ثلاث أضعاف أو أربع أضعاف ذلك الذى يدفع فى إنجلترا وذلك نتيجة المنافسة الشديدة التى تسود بين هؤلاء المستاجرين الصغار ، حيث يسعى كل عامل زراعى كى يصبح مزارعاً مستأجراً ، ورغم أن تقسيم الأرض قد سار شوطاً بعيداً ، إلا أن عدداً من العمال ما زال باقياً يتنافس على قطع الأرض . ومع أن بريطانيا تزرع ٣٢,٠٠٠,٠٠٠ أكرا * من الأرض ، وإيرلندا

* الأكر أقل من فدان (المترجم) .

٠٠٠,٠٠٠,١٤ لا غير ، ورغم أن بريطانيا تنتج من المنتجات الزراعية ما تبلغ قيمته ٠٠٠,٠٠٠,١٥٠ جنيهاً استرلينياً ، وأيرلنـــدا ٠٠٠,٠٠٠,٣٦ جنيهاً استرلينياً لا غير ، فإنه يوجد فى أيرلندا ٧٥,٠٠٠ بروليتارياً زراعياً أزيد من الجزيرة المجاورة * . إن المدى الذى يجب أن تكون عليه المنافسة حول الأرض. لأمر واضح فى أيرلندا ، من هذا التفاوت غير العادى ، خاصة عندما يفكر المرء فى أن العمال فى بريطانيا العظمى يعيشون فى غاية التعاسة. إن نتيجة هذه المنافسة ، هى استحالة أن يعيش المستأجرون حياة أفضل كثيراً من حياة العمال ، وذلك بسبب الإيجارات العالية التى عليهم دفعها . وبذا فإن فقراً ساحقاً يمسك بالشعب الأيرلندى ، فقر لايستطيع أن يحرر منه نفسه فى ظل ظروفنا الإجتماعية الحالية. إن هؤلاء الناس يعيشون فى أشد الأكواخ الطينية بؤساً ، إنها بالكاد تصلح زرائب ماشية ، طعامهم طول الشتاء كله شحيح ، أوكما يتناول التقرير المقتبس عاليه الأمر ، بأن ما لديهم من بطاطس ، يكفى نصف حاجتهم طوال ثلاثين أسبوعاً فى العام ، ولا شىء باقى العام . وعندما يأتى الربيع ، الوقت الذى تصل فيه تلك المؤونة إلى نهايتها ، أو أنها تصبح غير صالحة للإستعمال حيث تكون قد نبتت ، فإن الزوجة والأطفال ينطلقون إلى التسول يجوبون الريف وأباريقهم فى أيديهم . فى تلك الأثناء ، يكون الزوج وقد زرع بطاطس العام القادم ، فيذهب إلى أيرلندا أو انجلترا بحثاً عن عمل ، ثم يعود إلى عائلته فى موسم جمع البطاطس. تلك هى الحالة التى يعيش فيها تسعة أعشار أهل الريف الأيرلندى. إنهم فقراء كفأر كنيسة ، يرتدون أشد الهلاهيل بؤساً ، ويقفون عند أدنى مستوى ممكن للذكاء ، فى بلد نصف متحضر . وطبقاً للتقرير المقتبس ، فإنه من بين سكان عددهم ٨,٥ مليوناً ، يوجد ٥٨٥,٠٠٠ رب أسرة فى حالة عوز كاملة . وطبقاً لبعض الهيئات الحكومية الأخرى التى استشهد بها العمدة «أليسون»**، بأنه يوجد فى أيرلندا ٠٠٠,٣٠٠,٢ شخصاً ، لا يستطيعون الحياة دون مساعدة عامة أو خاصة ، أى أن ٢٧ ٪ من السكان معوزين !

---

* تقرير لجنة قانون الفقراء عن أيرلندا « الموسم البرلمانى لعـام ١٨٣٧ (مضافة من النسخة الألمانية) » .

** مبادىء السكان . الجزء ٢ .

إن سبب هذا الفقر، يمكن في الحالة الإجتماعية القائمة، وخاصة في المنافسة الموجودة هنا، الموجودة في شكل تجزئة الأرض المجزأة. لقد بذل جهد كبير في البحث عن أسباب أخرى. فقد زعم أنها العلاقة بين المستأجر ومالك الأرض، الذي يؤجر أملاكه قطعاً كبيرة إلى مستأجرين، يكون لديهم بدورهم، مستأجرين أدنى، ثم مستأجرين أدنى وأدنى على التوالي، حتى أنه يوجد في غالب الأحوال عشرة وسطاء بين مالك الأرض والزارع الفعلي — ورغم أن الذي يلام على كل هذا الفقر، هو القانون المخجل الذي يعطي لمالك الأرض، حق نزع الأرض، من الزارع الذي يكون قد دفع الإيجار المستحق عليه في حينه، لأن المستأجر الأول عجز عن الدفع لمالك الأرض. إلا أن كل هذا يحدد فقط الشكل الذي يعلن به الفقر عن نفسه. إجعل المستأجر الصغير نفسه مالكا، ماذا تكون النتيجة؟ إن الغالبية منهم لن تستطيع الحياة على قطع أرضها، حتى وإن كانت لا تدفع عنها إيجاراً، وإن حدث تحسن ضئيل، فإنه سيضيع مرة أخرى في سنوات قليلة، نتيجة الزيادة السريعة في السكان. إن الأطفال الذين يموتون الآن في طفولتهم المبكرة نتيجة الفقر، سوف يعيشون حينذاك، لينمو في ظل الظروف التي تحسنت، ويجيء، من ناحية أخرى، زعم بأن الظلم الوقح الذي يفرضه الإنجليز هو سبب الإضطراب. إن هذا الظلم على نحو ما، هو السبب المبكر لهذا الفقر، إلا أنه ليس سبب الفقر ذاته. أو يلقي باللوم على «الكنيسة البروتستانتية»، المفروضة على أمة «كاثوليكية»، إلا أننا، إن قسمنا ما تأخذه الكنيسة من الإيرلنديين عليهم، فلن يصل نصيب الرأس إلى ست شلنات. فضلا عن ذلك، فإن العشور ضريبة على ملكية صاحب الأرض، وليست على المستأجر، رغم أن دفع المالك لها قد يكون اسمياً، إلا أنه منذ صدور «لائحة الفدية» لعام ١٨٣٨، فإن أصحاب الأرض يدفعون العشور مباشرة، ويحددون إيجاراً عالياً للغاية، حتى أن المستأجر ليس أفضل حالا. كما تقدم بنفس الطريقة، مئات الأسباب الأخرى التي تكمن وراء هذا الفقر، وكلها تبرهن على القليل، شأنها في ذلك شأن تلك السابقة. إن هذا الفقر إنما هو نتيجة أحوالنا الاجتماعية. أما الأسباب فيما عدا تلك الأحوال، فإنها يمكن أن توجد مع الكيفية التي يعلن الفقر بها عن نفسه، ولكنها ليست أسباب حقيقة وجوده. إن يعلن الفقر عن نفسه على هذا النحو وليس العكس، إنما يرجع إلى ماهية هذا الشعب، وإلى تطوره التاريخي.

إن الإيرلنديين إنما هم شعب ينتمى إلى الأمم اللاتينية فى صفتـــه الكلية ، إلى الفرنسيين . وخاصة الإيطاليين ، إن السمات الرديئة فى خلقهم ، والتى صورها كارليل ، قد تناولناها سابقاً . دعونا الآن نستمع إلى رجل إيرلندى ، رجل يقترب على الأقل من الحقيقـة عن « كارليـــل » الذى يتعصب للجنس التيوتونى *.

« إنهم قلقين ومع ذلك خاملين ، أذكياء وقليلى الفطنة ، سريعى الغضب ، نافذى الصبر وعديمى التبصر ، شجعان بالسليقة، كرماء دون كثير تأمل ، يتأثرون فى سرعة للإهانات ويغفرونها ، يقيمون الصداقات ويقلعون عنها ، موهوبين بإفراط عبقرى وتقتير حصيف » .

يتسلط الإنفعال والعاطفة على الايرلنديين ، إن العقل يجب أن ينحنى أمامهم. إن طبيعتهم الحسية سريعة الهيجان ، تمنع التأمل والهدوء والنشاط المثابر عن بلوغ التطور — إن مثل تلك الأمة كما تدار الآن ، غير لائقة للصناعة كلية . ومن ثم ، فقد أمسكوا بالزراعة ، وظلوا عند أدنى مستوى لها أيضاً . إن تحسين الأرض بتوظيف رأس المال ، لم يكن مطروحاً للتفكير فيه ، فى ظل التقسيمات الصغيرة للأرض المقسمة ، ذلك الوضع الذى نشأ منذ عهد مفرط فى القدم ، ولم ينشأ هنا بطريقة مصطنعة كما حدث فى فرنسا وعلى نهر الراين ، وذلك بتقسيم العقارات الكبيرة**. إن ذلك التحسين ، طبقاً « لاليسون » ، يحتاج إلى ١٢٠ جنيهاً استرلينياً ، ليرتفع بالأرض إلى حالة من الخصوبة، ليست بالقدر العالى الذى بلغته بالفعل فى انجلترا . إن الهجرة الانجليزية ، والتى ربما كان عليها أن ترفع مستوى الحضارة الايرلندية ، قد إكتفت بأشد صور النهب الوحشى للشعب الايرلندى .

* « حالة ايرلندا » لندن ، ١٨٠٧ ، الطبعة الثانية ١٨٢١ . كـتيب .

** خطأ . لقد كانت الزراعة على نطاق صغير هى الشكل السائد للزراعة منذ العصور الوسطى . وبذا فان مزرعة الفلاح الصغير قد ماتت قبل « الثورة » أيضاً . ان الشىء الوحيد الذى غيرته الأخيرة هو ملكيتها ، أى أنها أخذتها من ملاكها الإقطاعيين وحولتها بشكل مباشر أو غير مباشر الى الفلاحين (مضافة الى النسخة الألمانية لعام ١٨٩٢) .

وبينما وضع الايرلنديون بهجرتهم إلى انجلترا ، خميرة سوف تؤتى ثمارها فى المستقبل ، فإن ما يحمد الايرلنديون الهجرة الانجليزية عليه لقليل .

إن محاولات الأيرلنديين إنقاذ أنفسهم من دمارهم الراهن ، قد اتخذ من ناحية شكل الجرائم . إنها الطريقة المتبعة اليوم فى المناطق الزراعية ، وهى تكاد توجه دائماً إلى أكثر الأعداء مباشرة ، إلى عملاء أصحاب الأراضى ، أو خدمهم المطيعين ، إلى البروتستانت الدخلاء ، والذين تتكون مزارعهم الكبيرة ، من قطع أرض البطاطس ، التي تخص مئات العائلات التى طردوا منها . إن مثل تلك الجرائم ، متعددة بصورة خاصة فى الجنوب والغرب . ويأمل الأيرلنديون ، من ناحية أخرى ، فى الفرج ، عن طريق الإثارة من أجل إلغاء « الاتحاد التشريعى » مع انجلترا(٢١). يتضح من كل ما سبق ، أنه على الأيرلنديين غير المتعلمين ، أن يروا فى الانجليز أسوأ أعدائهم ، وأن أول أمل لهم فى التحسن ، هو أن يظفروا بالإستقلال الوطنى . إلا أنه من الواضح أيضاً ، وبنفس القدر ، أن الشقاء الأيرلندى ، لا يمكن إزاحته بأى « قانون » « للإلغاء » . إذ أن مثل هذا « القانون » ، على أى حال ، سيعرى للتو ، حقيقة سبب الشقاء الأيرلندى ، والذى يبدو الآن ، على أنه آت من الخارج ، فى حين أنه حقيقة ، موجود فى الداخل . فى تلك الأثناء ، هنالك مسألة مطروحة للبحث ، وهى إن كان تحقيق « الإلغاء » ضرورياً ، لجعل هذا الأمر واضحاً أمام الأيرلنديين ، وقبل ذاك ، لن يحقق « الميثاقيون » ولا « الاشتراكيون » نجاحاً ملحوظاً فى أيرلندا .

إننى أنهى بأكبر سرعة، ملاحظاتى عن أيرلندا عند هذه النقطة ، حيث كانت « الإثارة من أجل الإلغاء » عام ١٨٤٣ ومحاولة « أوكونل » وهى الوسائل التى جعلت الشقاء الأيرلندى معروفاً على نحو أكثر وأكثر فى ألمانيا .

لقد تعقبنا الآن بروليتاريا الجزر البريطانية عبر كل فروع نشاطها ، ووجدناها تعيش فى كل مكان ، فى حاجة وشقاء ، فى ظل ظروف غير إنسانية على الإطلاق . لقد رأينا السخط وهو ينشأ مع نشأة البروليتاريا ، ينمو ويتطور وينظم . لقد رأينا معارك مفتوحة للبروليتاريا ضد البورجوازية ، معارك دموية

وغير دموية . لقد بحثنا الأسس التى يتحدد طبقاً لها ، مآل وآمال ومخاوف البروليتاريا ، ولقد وجدنا أنه لا إمكانية لتحسين حالهم فى المستقبل .

لقد كانت لدينا الفرصة ، هنا وهناك . لملاحظة سلوك البورجوازية تجاه البروليتاريا . ولقد وجدنا أنها تراعى نفسها فقط ، إنها لا تضع فى إعتبارها إلا منفعتها الخاصة — وعلى أى حال ؛ وحتى لا نكون غير منصفين ، دعونا نبحث منوال فعلها ، بطريقة أكثر دقة ، إلى حد ما .

□

موقف البورجوازية تجاه البروليتاريا

عند الحديث عن البورجوازية، فإنني أتحدث ضمناً عما تسمى بالأرستقراطية، إذ أنها طبقة ذات إمتيازات ، والأرستقراطية تتضاد فقط مع البورجوازية ، ولا تتضاد مع البروليتاريا . والبروليتاري لا يرى في كليهما غير ذلك الممسك بزمام الملكية — أي البورجوازي . إن كل الامتيازات الأخرى تختفي إزاء إمتياز الملكية . إن الفرق الوحيد ، هو أن البورجوازي الخلص ، يرتكز على علاقات نشطة مع البروليتاريين الصناعيين ، وبمعيار ما ، مع البروليتاريين التعدينيين ، وكمزارع مع العمال الزراعيين . بينما تتعامل ما تسمى بالأرستقراطية مع جزء من العمال التعدينيين والعمال الزراعيين .

إنني لم أر على الاطلاق طبقة فاسدة الآداب إلى حد بعيد ، طبقة حطت الأنانية من قدرها إلى حد لا يرجى منه شفاء ، متآكلة من الداخل إلى درجة كبيرة ، عاجزة عن التقدم إلى مدى بعيد ، مثل البورجوازية الانجليزية ، وإنني أعني بذلك على وجه الخصوص ، البورجوازية الخالصة خاصة « الأحرار » ، تلك البورجوازية المطالبة بإلغاء « قانون القمح » . إذ بالنسبة لها ، لا شيء موجود في هذا العالم . بما فيه ذاتها ، إلا من أجل المال . أنها لا تعرف نعيما غير الكسب السريع ، ولا ألما غير خسران الذهب* . إنه لمن المستحيل

---

* قدم « كارليل » من « الماضي والحاضر » (لندن ، ١٨٤٣) وصفاً رائعاً للبورجوازية الانجليزية وجشعها المقزز للمال [وقد ترجمت جزء من هذا الوصف في « ديوتش — فرانزوسيش جاربوشر » والتي أحيل للقارىء إليها (٢٢) . (مضافة في الطبعة الألمانية)] .

فى ظل هذا الولع والشبق بالكسب ، أن تظل عاطفة إنسانية واحدة أو رأى واحد طاهر الذيل . حقاً أن هؤلاء البورجوازيين الانجليز أزواج طيبون وأرباب عائلات ، كما أنهم يتمتعون بكل أنواع الفضائل الخاصة الأخرى ، ويبدون أثناء عملية الجماع العادية محتشمين ومحترمين ، شأنهم فى ذلك شأن البورجوازيات الأخرى ، وحتى فى الأعمال ، فإنهم يتعاملون بطريقة أفضل من الألمان ، إنهم لا يساومون ولا يماحكون كثيراً كما يفعل تجارنا الحقراء ، لكن، من المستفيد من كل تلك الأمور ؟ إن ما يحدد ذلك فقط فى نهاية الأمر ، هو المنفعة الذاتية وخاصة كسب المال . لقد ذهبت إلى « مانشستر » مع واحد من مثل هؤلاء البورجوازيين ، وحدثته عن طريقة البناء السيئة غير الصحية ، والوضع المخيف للأحياء العمالية ، وأكدت له أننى لم أر على الاطلاق ، مدينة مبنية بطريقة رديئة مثل هذه المدينة ، واستمع الرجل فى هدوء إلى كلامى حتى النهاية ، وعند الناصية حيث إفترقنا ، قال « ومع ذلك ، فإن هذا المكان يدر قدراً كبيراً من المال ، صباح الخير ، سيدى ». إن البورجوازى الانجليزى لا يهمه على الاطلاق ، إن كان عماله يموتون جوعاً أم لا ، ماذام يربح مالا . إن كل أحوال الحياة تقاس بالمال ، وذاك الذى لا يدر مالا ، إنما هو لغو فارغ، غير عملى ومثالى . ومن ثم ، فإن الاقتصاد السياسى ، علم الثروة ، هو الدراسة المفضلة عند هؤلاء اليهود تجار المقايضة . إن كل واحد منهم رجل إقتصاد سياسى . لا يوجد شىء إنسانى فى علاقة صاحب المصنع بعماله، إنها علاقة إقتصادية بحتة. إن صاحب المصنع إنما هو رأس مال ، وما العامل إلا عمل ، وإن لم يلزم العامل بهذا التجريد ، إن أصر على أنه ليس « عملا » ، وإنما هو « رجل » يمتلك من بين ما يمتلك ملكة قوة العمل ، إن وضع فى رأسه أنه يحب ألا يسمح لنفسه بأن يباع ويشترى فى السوق كسلعة « عمل » ، فإن عقل البورجوازى سيتوقف . إنه لا يستطيع إدراك وجود أية علاقة أخرى مع العمال ، غير علاقة البيع والشراء . إنه لا يرى فيهم بشراً ، بل أيدى ، كما يدعوهم فى وجوههم على الدوام . إنه يصر ، كما يقول « كارليل » ، على «أن الدفع نقداً ، هو الصلة الوحيدة بين الرجل والرجل» بل أن تسعة وتسعين فى المائة من العلاقة بينه وبين زوجته ، إنما هى أيضاً مجرد « الدفع نقداً » ، إن المال يحدد قيمه الرجل ، « هذا قيمته عشرة آلاف جنيه »

إن هذا الذى لديه مالا « هو أفضل نوع من الناس » ، « إنه ذو نفوذ » ، ومايفعله إنما يقوم به حسابا لشىء ما فى دائرته الإجتماعية . إن روح البائع المتجول تتخلل كل اللغة ، إن كل العلاقات إنما يعبرعنها باصطلاحات عمل ، بتصنيفات إقتصادية . إن العرض والطلب هى المعادلات التى يحكم المنطق « البورجوازى الإنجليزى » طبقاً لها كل حياة الإنسان . ومن هنا كانت المنافسة الحرة فى كل علاقة ، ومن هنا كان شعار « دعه يعمل» « دعه يمر»(٢٣) ، فى الحكومة وفى الطب وفى التعليم ، وعما قريب سيكون فى الدين أيضاً ، كلما تدهورت كنيسة الدولة أكثر فأكثر . إن المنافسة الحرة لن تعانى أى تقييد ، لا رقابة من الدولة ، إن الدولة كلها ماهى غير عبء عليها . إنها ستصل إلى قمة كمالها فى ظل مجتمع فوضوى لا حكومة له ، حيث يكون فى إستطاعة كل فرد أن يستغل الآخر بما يرضى هواه * . وحيث أن البورجوازية ، على أية حال ، لا تستطيع الإستغناء عن الحكومة ، بل يجب أن تملكها ، حتى تقمع الطبقة العاملة التى لاغنى لها عنها بالمثل ، فإنها توجه قوة الحكومة ضد البروليتاريا ، وتظل هى بعيدة عن طريقها قدر المستطاع .

لاتدع أحداً يصدق ، بأى حال ، أن « المثقف الإنجليزى يفاخر علنا بأنانيته إنه على عكس ذلك ، يخفيها تحت أدنى صورة من صور النفاق . ماذا ؟ أثرياء الإنجليز يعجزون عن تذكر الفقراء ؟ هم أولئك الذين أسسوا المؤسسات الانسانية ، على نحو لا يستطيع أى بلد آخر أن يباهى به ! مؤسسات إنسانية بكل تأكيد ! وكأنكم تقدمون للعمال معروفاً بأن تمتصون دم حياتهم ذاته فى البداية ، ثم تمارسون عليهم لطفكم وإنسانيتكم الزائفة ، واضعين أنفسكم أمام العالم كأفضل المدافعين عن الانسانية . عندما تعيدون إلى الضحايا المسلوبة واحداً فى المائة مما يخصها ! الصدقة التى تحط مقام هذا الذى يعطى أكثر من ذاك الذى يأخذ ، صدقة تدوس ذلك الذى وطأته الأقدام أعمق وأعمق فى التراب ، صدقة تطالب الذى جرد من مقامه والذى نبذه المجتمع خارجه ، بأن يسلم أولا آخر ما بقى له وبالذات حقه فى آدميته ، أن يستجدى الرحمة أولا قبل تنازلاتكم

* أضيفت الكلمات التالية إلى الأصل الألمانى « مثل ، (مجتمع) الصديق (ستيرنر) مثلا » — الناشر .

الرحيمه ، أن يوسم بميسم التحقير على جبينه فى صورة صدقة . لكن دعونا نستمع إلى البورجوازية ذاتها ، إذ لم يمض عام منذ قرأت فى « المانشستر جارديان » الخطاب التالى إلى رئيس التحرير ولقد نشر هذا الخطاب كوجهة نظر معتدلة وطبيعية تماما: السيد رئيس التحرير - منذ وقت مضى وشوارعنا الرئيسية مسكونة بحشود من المتسولين ، الذين يحاولون إيقاظ شفقه المارة ، فأكثر الطرق وقاحة وإثارة للضيق ، وذلك بعرض ملابسهم الرثة البالية ، وجراحهم وتشوهاتهم المقززة . وفى إعتقادى ، أن المرء عندما يدفع ، ليس فقط ضريبة الفقراء ، بل ويتبرع بسخاء أيضاً للمؤسسات الخيرية ، فإنه يكون قد فعل الكثير للحصول على حق عدم تعريضه لمثل هذه المضايقات الكريهة السليطة . ولماذا تدفع مثل هذه الضرائب العالية لإعاشة شرطة البلدية ، إن كانوا لا يقومون حتى بحمايتنا ، ليصبح الذهاب والإياب فى سلام من المدينة أمر ممكناً لنا ؟ آمل أن يكون نشر هذه السطور فى جريدتكم واسعة الانتشار ، عاملا لحمل السلطات على إزاحة هذا الازعاج ، وسأظل — خادمتكم المطيعة .

« سيده »

ها هى أمامك ! البورجوازية الانجليزية خيرة بدافع من المصلحة الذاتية ، إنها لا تعطى شيئاً بصورة نهائية ، ولكنها تنظر إلى هباتها على أنها مسألة تجارية ، إنها تساوم الفقراء قائلة : « إننى إن كنت أنفق الكثير على المؤسسات الخيريه ، فإننى بذلك أبتاع حق ألا أتعرض للمضايقه أبعد من هذا ، وإنتم بذلك مقيدون على أن تظلوا فى جحوركم المعتمه ، وألا تستثيروا أعصابى المرهقه بعرض تعاستكم ، ستقطعون الرجاء كما كنتم من قبل ، لكنكم ستقطعون الرجاء فى الستر دون أن أن يراكم أحد ، هذا ما أحتاج اليه وما ابتغيه بتبرعى للملجأ بعشرين جنيهاً ! » . إنها لشائنة تلك الصدقة التى يقدمها البورجوازى المسيحى ! وهكذا تكتب « سيدة » ، لقد فعلت حسناً بتوقيعها هذا ، حسنا أنها فقدت الشجاعة على أن تسمى نفسها إمرأة ! ولكن ، إن كانت « السيدات » هكذا ، فماذا يكون حال « السادة » ؟ سيقال إن تلك حالة فردية ، لكن لا ، إن الخطاب السابق يعبر عن الغالبية العظمى من البورجوازية الانجليزية ، وإلا لما كان رئيس التحرير قد قبله وكان لابد من الرد عليه ، وهو الشيء الذى إنتظرته فى الأعداد التالية دون جدوى . أما بالنسبة لمدى فاعلية حب الخير هذا اللإنسانية ، فإن « كانون

باركينسون ، نفسه يقول ، إن الفقراء يغيثون الفقراء أكثر بكثير مما تغيثهم البورجوازية ، ومثل تلك الإغاثة المعطاة من بروليتارى مخلص ، يعرف هو نفسه ماذا يعنى أن تكون جوعاناً ، كما تعتبر مشاركته فى وجبته الهزيلة تضحية حقيقية، لكنها تضحية محتملة فى سعادة ، إن لمثل هذا العون رنينه المختلف تمام الإختلاف عن تلك الصدقة التى يقذف بها البورجوازى المترف فى لا مبالاة .

إن البرجوازية تتظاهر بالبذل الذى لا حد له فى سبيل الانسانية بطريقة مرائية فى أوجه أخرى أيضاً ، ان تطلبت مصالحها ذلك ، كما يحدث فى سياستها ، وإقتصادها السياسى . حتى مضت حتى الآن قرابة خمس سنوات ، وهى تعمل كى تثبت للعمال أنها تكافح من أجل إلغاء « قوانين القمح » ، من أجل مصالحهم فقط. إلا أن خلاصة الموضوع هو كما يلى : إن قوانين القمح تحافظ على سعر الخبز مرتفعاً عن سعره فى بلدان أخرى ، وينتج عن ذلك بالتالى رفع الأجور ، إلا أن هذه الأجور المرتفعة ، تجعل منافسة أصحاب المصانع للأمم الأخرى التى يوجد بها الخبز بسعر أرخص وبالتالى الأجور ، أكثر صعوبة . أما عند إلغاء «قوانين القمح » ، فإن سعر الخبز سيهبط ، وتقترب الأجور من تلك التى فى البلدان الأوربية الأخرى ، ذلك هو الأمر كما يجب أن يكون واضحاً لكل امرىء ، من عرضنا السابق للمبادىء التى تتحدد الأجور طبقاً لها . إن صاحب المصنع يستطيع أن يكون أكثر تأهباً للمنافسة ، ولسوف يزداد الطلب على البضائع الانجليزية ، ومعها الطلب على العمل . ونتيجة هذا الطلب المتزايد ، فإن الأجور فى الواقع لابد وأن ترتفع بعض الشىء ، ويعاد تشغيل العمال العاطلين ، ولكن إلى متى ؟ إن فائض السكان فى إنجلترا ، وخاصة فى ايرلندا ، لكاف لإمداد الصناعة الانجليزية بكل ما تحتاجه من عمال حتى إن تضاعف عددهم ، وتتوازن فى سنوات قليلة ، تلك الميزة المحدودة لالغاء « قوانين القمح » ، ويلى ذلك بالضرورة أزمة جديدة ، ونعود بالضرورة إلى النقطة التى بدأنا منها ، بينما يكون المحرك الأصلى للصناعة قد تسبب فى تلك الأثناء فى زيادة عدد السكان . كل هذا يعرفه البروليتاريون جيداً ، وهم قد قالوه لأصحاب المصانع وجهاً لوجه ، إلا أن أصحاب المصانع لا يرون أمامهم رغم ذلك ، إلا الميزة الفورية التى تعود عليهم بها «قوانين القمح » . إنهم لأضيق أفقاً ، من أن يروا ذلك ، حتى من أجل أنفسهم ، إذ لا يمكن أن تنشأ ميزة من إتخاذ هذا الاجراء ، حيث أن منافستهم لبعضهم

البعض سرعان ما تجبر ربح الفرد على العوده إلى مستواه القديم ، وبالتالي يستمر صراخهم في العمال ، بأن ما يصبه أعضاء حزب « الأحرار الأثرياء » من مئات وآلاف الجنيهات في خزينة « العصبة المعادية لقانون القمح » ، إنما هو من أجل الملايين الجائعة ، بينما يعرف الجميع أنهم يرسلون الجبن بعد الزبد فقط ، وأنهم يعتمدون على تحصيل كل ذلك مرة أخرى ، في السنوات العشر الأولى بعد إلغاء «قوانين القمح» . إلا أن العمال لم يعودوا يخدعون بواسطة البورجوازية ، خاصة منذ عصيان عام ١٨٤٢ . إنهم يطلبون من كل من يقدم نفسه كمحب لما يعود عليهم بالخير ، بأن يعلن أنه في جانب « ميثاق الشعب » كدليل على صدق معتقداته ، وهم بفعل ذلك ، إنما يحتجون ضد كل عون خارجى ، حيث أن « الميثاق » إنما هو طلب للقوة حتى يعاونوا هم أنفسهم . وكل من يرفض أن يعلن عن نفسه هكذا ، يعلنونه عدواً لهم ، وهم محقين تماماً في عملهم هذا ، سواء كان هذا الشخص عدو صريح أو صديق زائف . إن « العصبة المعادية لقانون القمح » قد إستخدمت ، بالإضافة إلى ذلك ، أشد الخدع والافتراءات دناءة لكسب تأييد العمال . لقد حاولت أن تثبت لهم ، أن السعر النقدى للأجر ، يتناسب تناسباً عكسياً مع سعر القمح ، إن الأجور تكون عالية عندما تكون الحبوب رخيصة ، والعكس صحيح ، إنه زعم تظاهرت بإثباته بأشد الحجج سخفاً ، وهو في حد ذاته أمر أشد سخفاً من أى أمر آخر صدر عن فم « مشتغل بالإقتصاد » . وعندما فشل هذا في تحقيق الغرض ، وعد العمال بأقصى نعيم ممكن لزوم الطلب المتزايد في سوق العمل ، وتمادى رجال بالفعل إلى حد حمل نموذجين من أرغفة الخبز عبر الشوارع ، كتب على أكبرهما « رغيف الثماني بنسات الأمريكى ، الأجور أربع شلنات في اليوم » ، وعلى أصغرهما « رغيف الثماني بنسات الإنجليزى ، الأجور شلنان في اليوم » . إلا أن العمال لم يضللوا . إنهم يعرفون سادتهم ورؤسائهم حق المعرفة .

إلا أنه يجب وضع خبرة البورجوازية في الإعتبار ، حتى يمكن قياس زيف هذه الوعود قياساً صحيحاً . لقد رأينا من خلال تقريرنا كيف تستغل البورجوازية العمال بكل طريقة يمكن للعقل أن يتصورها ، من أجل منفعتها الخاصة . ورأينا ، حتى من قبل ذلك ، على أى حال ، كيف يسىء البورجوازى

الفرد معاملة البروليتارى لحسابه الخاص . دعونا نرجع الآن إلى الطريقة التى تتصرف بها البورجوازية كحزب ، كسلطة الدولة تجاه البروليتاريا . من الواضح غاية الوضوح أن المقصود من كل التشريعات إنما هو حماية هؤلاء الذين يحوزون الملكية ضد هؤلاء الذين لا يحوزون . إن القوانين ضرورية فقط ، لأن هنالك أشخاص فى الوجود لا يمتلكون شيئاً ، ورغم أن هذه الضرورة معبرعنها مباشرة فى « قوانين قليلة » فقط ، مثل تلك القوانين ضد المتشردين والصعاليك ، والتى تعتبر البروليتاريا فيها مهدرة الحقوق بالمثل ، إلا أن كراهية البروليتاريا هى بالتأكيد أساس القانون ، حتى أن القضاة وخاصة قضاة الصلح ، الذين هم أنفسهم بورجوازيين ، وهم الذين غالباً ما يحتك بهم البروليتارى ، يجدون هذا المعنى فى القوانين دون حاجة إلى مزيد من الحيثيات . وأن حدث واستقدم أو حتى إستدعى رجل ثرى للظهور أمام المحكمة ، فإن القاضى يعتذر لإضطراره لفرض مثل ذلك الإزعاج الشديد عليه ، وهو يتناول المسألة بطريقة ودودة قدر الإمكان ، وأن إضطر لادانة المتهم ، فإنه يفعل ذلك وهو فى غاية الأسف . . . الخ الخ ، ونهاية كل ذلك غرامة هزيلة ، يلقيها البورجوازى بازدراء فوق المنضدة ثم ينصرف . ولكن إن وقع بائس فقير فى مثل ذلك الوضع ، كأن يتورط فى الظهور أمام « قاضى الصلح » ، فإنه دائماً على وجه التقريب — ما يقضى الليلة فى المخفر مع حشد من أقرانه — إنه يعتبر مذنباً منذ البداية ، إن دفاعه ينحى بازدراء جانباً « أوه ! إننا نعرف السبب » ، وتوقع عليه غرامة يعجز عن دفعها ويصبح عليه أن يعمل بقيمتها على الآلة الدوارة لتعذيب المذنبين عدة شهور . وإن لم يكن مستطاعاً إثبات شيء ما ضده ، فإنه يرسل إلى الآلة الدوارة لتعذيب المذنبين ، ولا شيء دون ذلك ، باعتباره محتالا ومتشرداً . إن تعصب « قضاة الصلح » وخاصة فى الريف ، أمر يفوق كل وصف . إن الوضع السائد اليوم ، وبصورة كبيرة ، هو نشر كل القضايا ، غير الفاضحة إلى حد كبير ، عن طريق الصحف دون تعقيب . ولا شيء آخر غير ذلك يمكن توقعه . إن هؤلاء الأوغاد لا يفعلون ، من ناحية ، شيئاً غير تأويل القانون طبقاً لمرام المزارعين ، وهم أنفسهم ، من ناحية أخرى ، بورجوازيون ، يرون أساس النظام الحقيقى كله ، إنما هو فى مصالح طبقتهم . كما أن سلوك الشرطة ، يماثل سلوك « قضاة الصلح » . ربما يفعل البورجوازى ما يشاء ، ويظل رجل الشرطة مهذباً على

الدوام معه ، متشبثاً بالقانون في دقة ، إلا أن البروليتارى يعامل بغلظة ووحشية ، إن فقره يلقى عليه شبهة إرتكاب كل أنواع الجرائم ، كما يعزله عن العدالة الشرعية في مواجهة أى نزوة من نزوات المختصين بالقانون ، ومن ثم ، فإن أشكال الحماية القانونية غير قائمة بالنسبة له ، إن الشرطة تشق طريقها عنوة إلى داخل منزله دون أى مرسوم ، تقبض عليه وتسبه . ولا يتضح مدى ضآلة وجود الجانب القانونى بالنسبة للعامل ، وكيف عليه أن يتحمل عادة كل أثقال القانون دون أن يتمتع بمزاياه ، إلا عندما يكون هنالك إتحاد للعمال قبل إتحاد التعدين ، ويكون هنالك رجل مثل « روبرتس » فى خدمة هذا الإتحاد .

إن الطبقة القابضة على الملكية ، ما زالت حتى ساعتنا الراهنة ، تناضل ضد المشاعر الأفضل التى توجد عند هؤلاء الذين لم يعفوا بعد ضحية للأنانية ، وتسعى لاستعباد البروليتاريا أكثر فأكثر . إن اليد توضع على قطعة بعد قطعة من الأرض المشاع ، ثم تبدأ زراعة تلك الأرض ، إنها عملية تؤدى إلى تقدم الزراعة عامة ، إلا أن البروليتاريا تضار من ذلك بصورة كبيرة ، إذ كان فى وسع الفقراء أن يرعوا حماراً أو خنزيراً أو أوزا ، حيثما توجد أرض ما تزال على المشاع ، كما كان هنالك مكان للأطفال والشباب ، حيث يمكنهم أن يعيشوا ويلعبوا فى الهواء الطلق ، إلا أن هذا قد إنتهى بالتدريج . لقد قلت إيرادات العامل ، وأخذ الشبان فى الذهاب إلى حوانيت البيرة ، بعد أن حرموا من ملاعبهم . إن البرلمان يوافق فى كل دورة من دوراته ، على عدد من القرارات الخاصة بتسوير الأرض وزراعتها . ولقد حدث خلال دورة ١٨٤٤ عندما قررت الحكومة أن تجبر كل محتكرى السكك الحديدية ، على جعل السفر للعمال ممكناً ، وذلك بتناسب تكاليفه مع دخولهم ، بواقع بنس عن كل ميل ، واقترحت الحكومة لذلك تسيير قطار يومى للدرجة الثالثة فوق كل سكة من السكك الحديدية ، حدث خلال تلك الدورة أن أقترح « الأب الموقر » ، « أسقف لندن » إستثناء يوم الأحد من هذه القاعدة ، فى حين أن يوم الأحد هو اليوم الوحيد الذى يستطيع فيه العمال الذين يعملوا ، أن يسافروا ، وبذا يترك السفر مفتوحاً أمام الأثرياء ، مغلقاً فى وجه الفقراء . إلا أن هذا الإقتراح قد أسقط ، على أى حال ، حيث كان سافراً ومباشراً إلى حد لا يمكنه من المرور فى البرلمان . ليس لدى متسع لسرد الهجمات المستترة العديدة ضد البروليتاريا ، حتى تلك الهجمات الخاصة

بدورة واحدة . إن عرض واحدة منها وقعت فى دورة ١٨٤٤ ، لابد وأن يكون كافياً . إن عضواً خاملا من أعضاء البرلمان ، شخصاً ما يدعى « مستر ميلز » ، قد إقترح لائحة بدت مقبولة نسبياً ، تنظم العلاقة بين المالك والأجير . واهتمت الحكومة بهذه اللائحة التى أحيلت إلى لجنة . فى تلك الأثناء نشب الإضراب بين عمال التعدين فى الشمال . وقام « روبرتس » بمروره الظافر عبر إنجلترا ، بصحبة عماله الذين أطلق سراحهم . واكتشف عندما كتبت اللجنة تقريرها عن اللائحة ، أن شروطا معينة شديدة الظلم قد دست فيها ، وخاصة أحد هذه الشروط ، والذى ينعم على المستخدم بسلطة إستدعاء أى عامل ، يكون قد تعاقد شفاهة أو تحريراً على القيام بأى عمل كان ، أمام « قاضى الصلح » فى حالة رفضه العمل أو فى حالة سلوكه أى سلوك آخر سىء ، وأن يحكم عليه بالسجن شهرين أشغال شاقة ، بناء على قيام المستخدم بحلف اليمين ، أى بناء على قيام الشاكى بحلف اليمين . ولقد أثارت هذه اللائحة ثائرة العمال إلى أقصى درجاتها ، زد على ذلك أن « لائحة العشر ساعات » كانت تعرض فى ذات الوقت على البرلمان ، وكانت باعثاً على الجهر بحالة من الهياج الشديد . لقد عقدت مئات الإجتماعات ، وأرسلت مئات العرائض التى كتبها العمال إلى لندن ، إلى « توماس دنكومب » ممثل مصالح البروليتاريا . كان هذا الرجل ، بإستثناء « فراند » ممثل « إنجلترا الشابة » ، هو المعارض الوحيد النشط ضد اللائحة . إلا أن الراديكاليين الآخرين ، ما أن رأوا الشعب يجهر بالعداء ضد اللائحة ، حتى بدأوا فى الزحف إلى الأمام واحداً بعد الآخر ، كلا يأخذ مكانه إلى جانب « دوكومب » وحيث أن « البورجوازية الليبرالية » لم تكن تمتلك الشجاعة اللازمة للدفاع عن اللائحة فى مواجهة الاضطراب السائد بين العمال ، فإنها قد فشلت فشلا مشيناً .

فى تلك الأثناء ، كان قانون « مالتوس للسكان » و « قانون الفقراء الجديد » الذى صيغ بناء عليه ، هما ابرز إعلان لحرب البورجوازية ضد البروليتاريا . لقد أشرنا مرات عديدة إلى « نظرية مالتوس » ، ويمكننا إجمال نتيجتها النهائية فى الكلمات المعدودة التالية ؛ إن الأرض مسكونة دائما بعدد من السكان أكثر مما يلزم ، لذا لابد وأن يسود الفقر والشقاء والضيق والفجور ، ذلك هو القضاء والقدر الأبدى للجنس البشرى ، قدره فى أن يوجد فى أعداد كبيرة للغاية ، ومن

ثم فى طبقات متباينة ، بعضها ثري متعلم وعلى خلق ، والبعض الآخر فقير تقريباً ، مكرب جاهل وبلا خلق . ومن ثم يلي ذلك فى التطبيق ، أن الصدقات وضرائب الفقراء — حتى نتكلم كما يجب — إنما هى هراء ، وقد استخلص « مالتوس » نفسه هذه النتيجة ، إذ أنها تفيد فقط فى المحافظة على الزيادة فى فائض السكان وإنعاشه ، هذا الفائض تسحق منافسته أجور الذين يعملون ، وأن تشغيل الفقراء عن طريق « الأوصياء على قانون الفقراء » إنما هو أمر غير مرغوب فيه بالمثل ، حيث أن كمية محدودة من منتجات العمل يمكن إستهلاكها ، كما أن كل عامل عاطل يعطى عملا بهذه الطريقة ، يدفع بعامل آخر مازال يعمل حتى الآن ، إلى بطالة إجبارية ، ولذا فإن المشروعات الخاصة تعانى من تكلفة الصناعة الناتجة عن « قانون الفقراء » ، أى أن المشكلة برمتها فى كلمات أخرى ، هى ليست فى كيفية إعالة فائض السكان ، ولكن فى كيفية كبحه إلى أبعد مدى ممكن . إن «مالتوس» يعلن فى إنجليزية واضحة ، أن حق الحياة — وهو حق زعم فيما سبق أنه من صالح كل إمرىء فى العالم — إنما هو لغو وهراء . إنه يقتبس كلمات أحد الشعراء الذى يقول ، أن الفقير يأتى إلى وليمة «الطبيعة» فلا يجد بساطاً ممدوداً من أجله ، ويضيف أن الطبيعة «تأمره بأن يغرب عنها» ، لأنه لم يسأل المجتمع قبل مولده ، إن كان هو مرغوبا فيه أم لا ، تلك النظرية الآن ، هى النظرية المفضلة عند كل بورجوازى إنجليزى صادق مع نفسه ، وهذا أمر طبيعى للغاية ، حيث أنها تقدم لهم أشد الأعذار تضليلا ، كما أن لها بالإضافة إلى ذلك ، نصيب وافر من الصحة فى ظل الظروف القائمة . إذن ، لو كانت المشكلة ، ألا يجعل « فائض السكان » هذا مفيداً ، ألا يحول إلى سكان نافعين ، أن يترك فقط للجوع حتى الموت بأقل طريقة مثيرة للإعتراض ، وأن يمنع من أن يكون لديه أطفال عديدين للغاية ، لكانت هذه المشكلة بالتأكيد ، مشكلة بسيطة للغاية ، شريطة أن يشعر فائض السكان هذا ، بأنه زائد عن الحاجة ، وأن عليه تحمل الموت جوعا ، فى وداعة . لكن ، كيفما كان الأمر ، فليس هنالك من أمل مباشر ، فى نجاح البورجوازية الرحيمة ، فى إدخال هذه النزعة بين العمال ، رغم ما تبذله من جهود عنيفة . إن العمال مقتنعون بأنهم ، بأيديهم المجتهدة ، إنما هم الشىء اللازم والضرورى ، وأن الرأسماليين الأثرياء ، والذين لا يفعلون شيئاً ، إنما هم فائض السكان .

وحيث أن الأثرياء ، على أى حال ، هم الذين يقبضون على كل السلطة ، فإنه من المحتم على البروليتاريين أن يذعنوا ، وإن هم لم يقروا بذلك عن طيب خاطر ، فإن القانون سيقوم بإظهار أنهم شيء زائد عن اللازم بالفعل . لقد تم هذا عن طريق « قانون الفقراء الجديد » . إن « قانون الفقراء الجديد » قد استند إلى لائحة ١٦٠١ (الثالث والأربعين « لاليزابيث ») ، والتى إنطلقت — بحسن نية — عن تصور بأن من واجب الأبرشية أن تهيأ لاعالة الفقراء . إن كل من لا عمل له يتلقى معونة ، واعتبر الفقير أن الأبرشية كفيلة بحمايته من المجاعة . لقد طالب بمعونته الأسبوعية كحق له ، وليس كمنة ، وغدا هذا فى النهاية أكثر بكثير مما تحتمله البورجوازية . وفى عام ١٨٣٣ ، عندما وصلت البورجوازية بالضبط إلى السلطة عن طريق « لائحة الإصلاح » . وعندما كان العوز فى المناطق الريفية قد بلغ بالضبط قمة تطوره ، بدأت البورجوازية فى إصلاح « قانون الفقراء » طبقاً لوجهة نظرها . وعينت لجنة لدراسة « قانون الفقراء » فكشفت عن العديد من أشكال إساءة إستخدام تلك القوانين . لقد اكتشف أن كل الطبقة العاملة فى الريف فى حالة عوز ، وأنها تعتمد بصورة أو أخرى ، على الضرائب التى يتسلمون منها المعونة عندما تنخفض الأجور ، لقد وجد أن هذا النظام الذى يعال به العاطلون ، ويخفف به عن سيء الأجور ، ووالدى الأسرة الكبيرة ، وآباء الأطفال غير الشرعيين الذين يلزم دفع نفقة لهم ، وجد أن الفقر عامة ، قد إعترف به كأمر يحتاج حماية ، وجد أن هذا النظام كان يدمر الأمة . وجد أنه —

« قيد على الصناعة ، مكافأة عن زيجة مغامرة ، حافز على تزايد السكان ووسيلة لموازنة تأثير تزايد السكان على الأجور ، وجد أنه إحتياط قومى لتثبيط الأمين والمجتهد ، لحماية الكسول والفاسد والمغامر ، وأنه قصد به تحطيم روابط الحياة العائلية ، وتعويق تراكم رأس المال بشكل منسق ، وبعثرة ذلك الذى تراكم بالفعل ، وتحطيم دافعى الضرائب . يضاف إلى ذلك ، تشجيعه إنجاب الأطفال غير الشرعيين ، وذلك من أجل الحصول على زاد من الغذاء » .

(كلمات تقرير مندوبى « قانون الفقراء »)*

---

* إقتباسات من بلاغ تم تسلمه من « مندوبى لجنة قانون الفقراء » ، نشرته السلطة . لندن ، عام ١٨٣٣ .

إن هذا الوصف لتأثير « قانون الفقراء القديم » لصحيح تمام الصحة ، إن المعونة تحتضن الكسل ، وتزيد من « فائض السكان » . من الواضح تمام الوضوح أن الفقير مجبر فى ظل الظروف الراهنة ، على أن يكون أنانيا . وعندما يصبح فى وسعه أن يختار ، فإنه سيفضل ألا يفعل شيئاً عن أن يعمل ، طالما سيحيا نفس الحياة فى كلتا الحالتين . لكن ماذا ينتج عن ذلك ؟ إن ماينتج عن ذلك، هو أن أوضاعنا الإجتماعية الراهنة ستكون عديمة الجدوى ، وليس كما ينتهى مندوبو اللجنة المالتوسيين ، إلى أن الفقر جريمة ، وإلى أنه ما دام كذلك ، فيجب أن يبتلى بالعقوبات البشعة ، التى ربما تكون نذيراً للآخرين .

إلا أن هؤلاء المالتوسيين العقلاء، كانوا مقتنعين تمام الإقتناع بصدق نظرتهم، حتى أنهم لم يترددوا ولو للحظة واحـــدة ، فى إلقاء الفقراء فى السرير « البروكروستيانى » * لمفاهيمهم الإقتصادية ، ومعاملتهم بأشد صور الوحشية إثارة للإشمئزاز . أن إقتناعهم « بمالتوس » والمشايعين للمنافسة الحرة ، التى ترى أنه من الأفضل أن ندع كل أمرىء ليعتنى بذاته ، ليجعلهم يفضلون محو « قوانين الفقراء » محواً كلياً . إلا أنهم على أى حال ، لا يملكون الشجاعة أو السطوة لفعل هذا ، ولذا فإنهم قد اقترحوا « قانوناً للفقراء » يقوم قدر المستطاع على مذهب « مالتوس » ، ومع ذلك ، فإن هذا القانون أشد همجية من همجية « دعه يعمل » ، حيث يتدخل بنشاط ، فى الحالات التى يكون فيها هذا الأخير مستكيناً . لقد رأينا كيف وصف « مالتوس » الفقر ، أو على الأصح الحاجة إلى العمل بجريمة ، تحت عنوان «الزائد عن اللزوم» ، وأوصى أن يعالج بالتأديب جوعاً حتى الموت . لم يمكن أعضاء اللجنة همجيين إلى هذا الحد ، فالموت الناتج عن المجاعة مباشرة ،كان شيئاً رهيباً للغاية حتى بالنسبة لأعضاء لجنة « قانون الفقراء » أنهم يقولون : « حسناً ، لقد وهبناكم أيها الفقراء حق الوجود ، حق الوجود فقط ، لكنكم ، لم تحصلوا على حق التكاثر ، ولا على حق الوجود كما يليق البشر ، انتم

---

* المقصود هنا ، هو أنهم يحجمون الفقراء طبقاً لمقاييسهم ، و « بروكروستيان » هذا كان قاطع طريق ، يضع ضحاياه فى سريره ، ويقطع ما طال من أطرافهم ، أو يشد ماقصر، حتى يناسبوا سريره (المترجم) .

وباء ، وإن لم نستطع التخلص منكم كما نتخلص من الأوبئة الأخرى فإنكم ستشعرون على الأقل بأنكم وباء ، كما يجب على الأقل ، أن تمنعوا من تقديم « فائض » آخر إلى العالم ، إن ذلك سيحدث . إما بشكل مباشر وإما عن طريق ترغيب الآخرين فى الكسل والبطالة . ستعيشون ، ولكن عيشوا كإنذار مخيف لكل هؤلاء الذين يمكن أن تجول بخاطرهم رغبات فى أن يصيروا فائضاً » .

وطبقاً لذلك ، قدموا « قانون الفقراء الجديد » ، والذى وافق عليه البرلمان عام ١٨٣٤ ، وما زال سارى المفعول حتى يومنا هذا . لقد ألغيت كل معونة نقدية أو فى صورة مؤن . إن المعونة الوحيدة التى سمح بها ، هى الإدخال فى دور تشغيل الفقراء ، والتى تم تشييدها فى الحال . ووضعت القواعد المنظمة لدور تشغيل الفقراء هذه ، أو كما أطلق الناس عليها « باستيلات* قانون الفقراء » ، بصورة تفزع كل إمرىء لديه أقل من أمل فى الحياة ، دون الحاجة إلى هذا الشكل من الصدقة العامة ، ولتؤكد أن المعونة ستطبق فى أشد الحالات ضرورة ، وبعد فشل كل جهد آخر . لقد أقيمت دور تشغيل الفقراء ، كابشع أماكن للإقامة ، يمكن أن يبتكرها الذكاء « المالتوسى » الزائق . إن الطعام أردأ من طعام أسوأ العمال أجراً أثناء إشتغاله ، والعمل أشد قسوة ، وإلا فضل العمال دار تشغيل الفقراء عن وجودهم التعس خارجها . إن تلك الدور نادراً ما تقدم اللحم ، وخاصة اللحم الطازج ، إنها تقدم البطاطس أساساً ، كما تقدم أسوأ ما يمكن من الخبز وحساء الشوفاء ، وقليل من البيرة أو لا بيرة . إن طعام السجناء المجرمين كقاعدة أفضل من طعام تلك الدور ، حتى أن المعوزين غالباً ما يرتكبون جنحة ما حتى يزج بهم فى السجن . حيث أن دار التشغيل سجن أيضاً ، إذ أن ذلك الذى لا ينهى ما كلف به من عمل ، لا ينال شيئاً يأكله ، وهذا الذى يود الخروج ، لا بد وأن يطلب إذناً ، وهو إذن ربما يمنح له أو لا يمنح ، وذلك طبقاً لسلوكه أو هوى المفتش ، الدخان ممنوع وكذا إستلام العطايا من الأقارب والأصدقاء من خارج الدار ، إن المعوزين يرتدون بزة خاصة بدار تشغيل الفقراء ، وهم يسلمون —

* نسبة إلى سجن الباستيل (المترجم) .

عاجزين ودون أن يمنحوا ما يعوضهم — إلى مزاج المفتش الشاذ . إنهم يكلفون بأعمال لا جدوى منها على وجه التقريب ، حتى لا ينافس عملهم تلك المشروعات التى فى الخارج ، إن الرجال يحطمون الأحجار ، والقدر المطلوب منهم ، هو ذلك « القدر الذى يستطيع رجل قوى أن ينجزه بالجهد فى يوم » ، وتقوم النساء والصبية والمسنون بجمع نسالة حبال القنب ، التى لا أعرف لأى غرض تافه تجمع . وتفرق العائلات لمنع « الفائض » من التكاثر ، ولمنع الوالدين « فاسدى الأخلاق » من التأثير على أطفالهم ، إن الزوج يوضع فى جناح ، والزوجة فى جناح آخر ، والأطفال فى جناح ثالث ، ولا يسمح لهم برؤية بعضهم البعض إلا فى أوقات محددة وعلى فترات طويلة ، وإلا عندما يكونوا ، فى رأى المسئولين ، قد سلكوا سلوكا طيباً. كما لا يسمح للنزلاء بالزيارة إلا بموافقة المسئولين وفى حجرات الإستقبال ، ولا يتم إتصالهم عامة بالعالم الخارجى ، إلا بعد إذن وتحت إشراف ، وذلك لفصل العالم الخارجى عن دنس العوز الموجود داخل تلك الباستيلات .

ومع هذا ، فالمفروض رغم كل ذلك ، أن يكون الطعـــام صحياً والمعاملة إنسانية . إلا أن قصد القانون صريح للغاية بالنسبة لهذا التكليف والكيفية التى ينفذ بها . إن « مندوبى لجنة قانون الفقراء » وكل البورجوازية الإنجليزية يخدعون أنفسهم إن هم صدقوا أنه فى الإمكان تنفيذ هذا القانون دون هذه النتائج . إن المعاملة التى يشير بها الخطاب المصاحب للقانون ، لتتناقض تناقض مباشراً مع روحه . إذ طالما أن القانون فى جوهره ، ينادى بأن الفقراء مجرمون ، وأن دور تشغيل الفقراء سجون ، وأن نزلاءها إنما هم خارج حظيرة القانون ، خارج حظيرة الإنسانية ، عناصر مثيرة للإشمئزاز والقرف ، فإن كل الأوامر المناقضة لذلك تصبح أموراً لا جدوى منها . إن روح القانون ، وليس الخطاب المصاحب له ، هى التى تتبع فى التطبيق عند معاملة الفقراء ، كما هو موضح فى الأمثلة القليلة التالية :

« عوقب صبى فى الخامسة من عمره ، فى دار تشغيل الفقراء فى «جرين ويش» فى صيف عام ١٨٤٣ ، بالحبس فى حجرة الموتى ، حيث كان عليه أن ينام على أغطية التوابيت . وفرضت نفس العقوبة على فتاة صغيرة ، فى دار تشغيل الفقراء

فى « هيرن » لأنها بللت السرير ليلا ، ويبدوا أن هذا الأسلوب من العقاب هو الأسلوب المفضل . إن دار تشغيل الفقراء تلك ، والتى تقع فى واحدة من أجمل مناطق « كنت » لدار غريبة، إلى حد أن نوافذها لا تطل إلا على الفناء فقط، ماعدا نافذتين تم فتحهما منذ عهد قريب ، فأمدا النزلاء بلمحة على العالم الخارجى » .
إن الـكاتب الذى يروى هذه الوقائع فى « الأيليومينا تد ماجازين » ، ينهى وصفه بالـكلمات التالية « إن كان الله يعاقب الرجال عن جرائمهم ، كما يعاقب الإنسان الإنسان لفقره، إذن فالويل لبنى آدم » .

مات فى نوفمبر ١٨٤٣ رجل من « ليسستر » . كان هذا الرجل قد طرد من دار تشغيل الفقراء فى « كوفنترى » ، قبل ذلك بيومين . إن تفاصيل معاملة الفقراء فى هذه المؤسسة تثير الاشمئزاز. لقد كان الرجل «جورج روبسون» مصاباً بجرح فى كتفه ، وقد أهمل علاج هذا الجرح إهمالا تاماً . كان يعمل على المضخة مستخدما ذراعه السليمة ، وكان يعطى له طعام دار تشغيل الفقراء المعتاد فقط ، وكان هو عاجز تمام العجز عن هضمه بسبب جرحه غير الملتئم وضعفه العام ، مما جعله بالضرورة يزداد ضعفاً ، وكان يعامل بوحشية أكثر كلما اشتكى أكثر . وعندما حاولت زوجته أن تحضر له نصيبها من قطرات البيرة ، وبخت وأجبرت على أن تشربها بنفسها فى حضور واحدة من السجانات . لقد أصابه المرض ، إلا أنه لم يتلق معاملة أفضل . وفى النهاية ، وبناء على طلبه ، طرد من الدار تصحبه زوجته بعد أن أهين وحتر أشد تحقير . ومات فى « ليسستر » بعد ذلك بيومين ، نتيجة الجرح الذى أهمل ، والطعام الذى أعطى له ، والذى كان عسير الهضم بالنسبة لإمرىء تلك حالته، كما شهد بذلك الطبيب الجراح الذى حضر التحقيق فى سبب الوفاة . وعندما طرد سلمت له خطابات تحوى نقوداً ، وكانت تلك الخطابات قد ظلت على حالها ستة أسابيع، ثم فتحها أحد المفتشين طبقاً لواحد من قواعد المؤسسة ! إن مثل تلك الوقائع الفاضحة تحدث فى « برمنجهام » أيضاً ، حتى أنه أرسل أخيراً فى عام ١٨٤٣ ، بموظف رسمى لتحقيق الحالة هناك ، فوجد أن أربعا من المتشردين قد حبسوا عرايا فى حجرة مظلمة تحت بئر السلم، لمدة تتراوح من ثمانية إلى عشرة أيام ، كانوا يحرمون من الطعام ، فى غالب الأحوال ، حتى الظهيرة ، وقد حدث هذا فى ظل أقسى فصول السنة . كما وجد أن صبياً صغيراً قد

مر بكل درجات العقـــاب المعروفة فى المؤسسة ، فقد حبس أولا فى حجرة الكراكيب الرطبة المقباة الضيقة ، ثم حبس فى جحر الكلاب مرتان ، كانت الثانية منهما لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالى ، ثم حبس نفس المدة الزمنية فى جحر قديم للكلاب ، وكان هذا الجحر أسوأ من الجحر الآخر ، ثم حبس فى حجرة المتشردين ، وهى جحر قذر كريه الرائحة ، به دكك خشبية للنوم ، حيث وجد الموظف الرسمى ، أثناء تفتيشه ، صبيين آخرين يرتعدان من البرد وهما فى أسمال بالية ، وكان عليهما أن يقضيا هناك ثلاثة أيام . كان يحبس فى جحر الكلاب هذا فى غالب الأحوال ، سبعة أفراد ، وفى حجرة المتشردين عشرون رجلا ، مكدسين معاً . كانت النسوة أيضاً ، توضع فى جحر الكلاب ، لأنهن يرفضن الذهاب إلى الكنيسة ، ولقد حبست إحدى النسوة فى حجرة المتشردين أربعة أيام ، والله يعلم فى أية صحبة كانت ، حدث ذلك بينما كانت المرأة مريضة وتتعاطى دواء أكما وضعت إمرأة أخرى فى قسم المجانين لتأديبها ، رغم أنها كانت عاقلة تمام العقل . ولقد كشف تحقيق مماثل ، أجرى فى دار تشغيل « باكتون » فى « سوفولك » فى يناير من عام ١٨٤٤ ، عن أن إمرأة ضعيفة العقل قد أستخدمت كممرضة ، وبالتالى كان عليها أن ترعى ، بينما كان المصابون الذين يعانون ، والذين يقضون الليل فى غالب الأحوال قلقين ، أو الذين يحاولون القيام ، كانوا يربطون بقوة بحبال تمرر من فوق الأغطية وتحت اسرر ، حتى توفر على الممرضات مشقة السهر ليلا . ولقد وجد أحد المرضى ميتاً ، وهو مقيد على تلك الحال ، ومات فى دار « سانت بانكراس » لتشغيل الفقراء فى لندن (حيث تصنع القمصان الرخيصة كما ذكرنا آنفاً) أحد المصابين بالصرع مختنقاً ، عندما أصابته أزمة وهو فى السرير ، ولم يخف أحد لنجدته . وينام فى السرير الواحد ، فى نفس تلك الدار ، من أربعة إلى ستة صبية ، بل وثمانيه فى بعض الأحيان . وفى دار « شورديتش » لتشغيل الفقراء ، وضع رجل مع آخر ، مصاب بالحمى ومريض للغاية ، فى سرير واحد ترتع فيه الحشرات . وحبست إمرأة فى دار « بثنال جـــرين » لتشغيل الفقراء ، وهى فى الشهر السادس من حملها ، ومع طفلها البالغ من العمر عامين فى حجرة الإستقبال ، من ٢٨ فبراير حتى ٢٠ مارس ، دون السماح لها بدخول دار التشغيل ذاتها ، ودون أن يكون بالحجرة أى أثر لسرير أو وسائل إشباع أشد الضرورات الطبيعية . ولقد توسل زوجها ، والذى كان هو نفسه قد أحضر إلى دار التشغيل ، لإطلاق

سراح زوجته من هذا السجن ، فسجن هو أيضاً أربع وعشرين ساعة على الخبز والماء ، جزاء له على وقاحته . وفى دار « سلو » لتشغيل الفقراء قرب « وندسور » كان يرقد رجل يعانى سكرات الموت فى سبتمبر ١٨٤٤ . وسافرت زوجته إليه ، فوصلت فى منتصف الليل ، وأسرعت إلى دار التشغيل فرفض السماح لها بالدخول . لم يسمح لها برؤية زوجها إلا فى صباح اليوم التالى ، وفقط فى حضور سجانة ، وكانت السجانة تفرض وجودها على الزوجة فى كل زيارة لاحقة ، طاردة إياها بعد مرور نصف ساعة على الزيارة . وفى دار تشغيل الفقراء فى « ميدلتون » فى « لانكشاير » ، كان ينام إثنى عشر ، وفى بعض الأحيان ثمانية عشر ، معوزاً من كلا الجنسين فى غرفة واحدة . إن هذه المؤسسة ليست خاضعة لقانون الفقراء الجديد ، لكنها تدار طبقاً للائحة قديمة خاصة (لائحة جيلبرت) ، ولقد أقام المفتش فى هذه الدار مصنعاً للبيرة لحسابه الخاص. وأحضر من « ستوك بورت » فى ٣١ يوليو ١٨٤٤ ، رجل فى الثانية والسبعين من عمره أمام قاضى الصلح ، لرفضه تكسير الأحجار ، وإصراره على ذلك ، بسبب كبر سنه وركبته المتصلبة ، لم يكن لائقاً لهذا العمل . وعبثاً عرض القيام بأى عمل يناسب قدرته الجسدية ، لقد حكم عليه بالعمل أسبوعين على الآلة الدوارة لتعذيب المذنبين. ووجد موظف رسمى يقوم بالتفتيش فى دار تشغيل الفقراء فى « باسفورد » أن الملاءات لم يتم تغييرها منذ ثلاثة عشر أسبوعاً ، والقمصان منذ أربعة أسابيع ، والجوارب منذ عشرة شهور ، حتى أنه لم يكن هنالك غير ثلاثة صبية من خمسة وأربعين لديهم جوارب ، وكانت كل قمصانهم مهلهلة ، والسرر مكتظة بالحشرات، وأدوات المائدة تغسل فى داو قذر المياه . وأصاب بواب فى دار تشغيل للفقراء فى غرب « لندن » ، أربع فتيات بالزهرى ولم يطرد ، واحتجز آخر فتاة طرشاء بكماء فى سريره أربعة أيام وليالى ، وما زال مبتمياً عليه .

وفى الموت كما فى الحياة ، يلقى بالفقراء إلى الأرض كمواش مصابة . إن أرض « سان بريدس » فى لندن ، لدفن المعوزين ، هى أرض غرق ، تستخدم كمقبرة منذ أيام « تشارلس الثانى » ، وهى مليئة بأكوام العظام ، أن المعوزين يلقى بهم كل يوم أربعاء فى حفرة يبلغ عمقها أربعة عشر قدما ، عليها قسيس يثرثر باللاتينية بأقصى سرعة ، وتغطى الحفرة بغطاء مفكك ، حتى تفتح فى الأربعاء القادم ، وتملأ بالجثث طالما فى الإمكان حشر واحدة أخرى فيها ، ولذا يلوث العفن المتولد كل

الجوار . وتقع مدافن المعوزين في « مانشستر » أمام « المدينة القديمة » على نهر « الايرك » ، وتلك هي أيضاً مكان وعر موحش ، شقت سكة حديدية عبره منذ عامين تقريباً . ما مدى صراخ البورجوازية ورجال الدين على هذا التدنيس ، إن كانت تلك المقبرة ، مقبرة محترمة ! إلا أنها كانت مدافن المعوزين ، مكان راحة راحة المنبوذين والفائض ، ولذا لا يشغلن أحد نفسه بها . إن أحداً لم يفكر ولو لبرهة ، في نقل الأجساد التي تعفنت جزئياً إلى الجانب الآخر من المقابر ، كانت تكدس حيث هي ، وكان يدفع بالأكوام منها إلى قبور جديدة ، حتى أن المياه كانت تنشع من الأراضي الموحلة ، حبلى بالمواد العفنة ، وتملأ الجوار بأشد الغازات خطراً وإثارة للإشمئزاز . إنني لاأستطيع أن أصف الوحشية المتمززة التي صاحبت ذلك الأمر بتفاصيل أكثر من تلك .

هل يمكن أن يندهش أي إمرىء ، من أن الفقراء يعتـــذرون عن قبول المعونة العامة في ظل تلك الظروف ؟ من أنهم يموتون جوعا ولا يدخلون هذه الباستيلات ؟ من أن لدى تقارير حالات أفراد ماتوا جوعا بالفعل ، إذ عندما رفض الأوصياء أعطاءهم معونة وهم خارج دور التشغيل ، عادوا إلى منازلهم التعسة ، وماتوا جوعاً ، بدلا من أن يدخلوا هذا الجحيم . إلى هذا الحد حقق مندوبو لجنة قانون الفقراء غرضهم . وفي نفس الوقت ، فإن دور تشغيل الفقراء قد كثفت على أي حال ، أكثر من أي إجراء آخر اتخذه الحزب الحاكم ، كراهية الطبقة العاملة للقابضين على الملكية ، والذين هم بشكل عام ، معجبون أشد الإعجاب « بقانون الفقراء الجديد » .

لا يوجد من « نيوكاسل » إلى « دوفر » إلا صوت واحد بين العمال . هو صوت الكراهية ضد القانون الجديد . لقد قننت البورجوازية في هذا القانون مفهومها عن واجباتها قبل البروليتاريا بوضوح تام ، حتى أن أغبى الأغبياء قد عرف قدر هذا القانون حق المعرفة . إن هذا المفهوم ، والذي يحدد أن الطبقة التي لا تملك إنما توجد فقط بغرض إستغلالها ، وأن عليها أن تموت جوعاً عندما يصبح القابضين على الملكية في غير حاجة لإستخدامها ، هذا المفهوم لم يقنن من قبل بمثل هذه الصراحة والجسارة . ومع ذلك ، فإن ذلك القانون نفسه ، هو الذي عاون إلى حد بعيد ، في زيادة سرعة الحركة العمالية ، وخاصة في نشر الميثاق ،

وحيث أنه ينفذ فى الريف على أوسع نطاق ، فإنه ييسر بذلك تطور الحركة البروليتارية الناشئة فى المناطق الزراعية .

دعنى أضيف قانوناً مماثلا ، يسرى مفعوله فى إيرلنده منذ عام ١٨٣٨ ، إنه يقدم مأوى لثمانين ألف معوز . هنا أيضاً ، جعل القانون من نفسه أمراً كريهاً ، وكان من الممكن أن يكون مكروهاً بصورة أكثر كثافة ، لو حظى بوضع مماثل فى الأهمية ، ما لوضع القانون فى انجلترا . إلا أنه فى بلد يوجد به مليونان ونصف من البروليتاريين ، ما هو الفرق الذى يفعله سوء المعاملة لثمانين ألف منهم ؟ أما فى اسكتلندا ، مع إستثناءات محلية ، فلا توجد « قوانين للفقراء » .

إننى آمل بعد هذه الصورة عن « قانون الفقراء الجديد » ونتائجه ، ألا يرى أحد فيما قلته عن البورجوازية الإنجليزية ، أية خشونة أو قسوة زائدة . إن البورجوازية التى تتجسد فى هذا الإجراء العام ، بإعتبارها القوة الحاكمة ، تتمنى نواياها الحقيقية ، وتكشف عن الغرض من تلك المعاملات الأقل شأنا مع البروليتاريا ، والتى يلقى اللوم فيها بوضوح على الأفراد . ان كون هذا الإجراء لم ينبع عن أى قطاع بمفرده من البورجوازية ، وأنه يتمتع بموافقة الطبقة كلها ، أمر تثبته المناقشات البرلمانية لعام ١٨٤٤ . لقد صدق « حزب الأحرار » على « قانون الفقراء الجديد » ، ويدافع عنه « حزب المحافظين » وعلى رأسه رئيس وزرائه ، الذى لم يغير فى «لائحة إصلاح قانون الفقراء» لعام ١٨٤٤ ، إلا بعض الصغائر التافهة. إن أغلبية من «الأحرار» قد دعمت للائحة، وأغلبية من المحافظين قد وافقت عليها ، وقد أعطى « للوردات النبلاء » موافقتهم فى كل مرة. وبذلك يتم صراحة إبعاد البروليتاريا عن الدولة والمجتمع ، وبذلك ينادى علناً بأن البروليتاريين ليسوا بشراً ، ولا يستحقون أن يعاملوا كما يعامل البشر . دعونا نترك لبروليتارى* الإمبراطورية البريطانية أن يظفروا من جديد ، بحقوقهم الإنسانية * .

---

* منعا لسوء الفهم والاعتراضات المترتبة عليه ، كان على أن رأى ى الحديث عن البورجوازية كطبقة ، وأن كل تلك الحقائق المنسوبة إلى الأفراد ، إنما تخدم فقط كدليل على طريقة تفكير وعمل « الطبقة » ومن ثم فانى لم أدخل فى الفروق بين الأقسام المختلفة ، فى جزئيات وأحزاب الطبقة ، والتى لها دلالة تاريخية ونظرية فقط . وفى وسعى لنفس السبب=

ذلك هو حال الطبقة العاملة الإنجليزية كما عرفتها خلال واحد وعشرين شهراً، عن طريق الرؤية، من خلال التقارير الرسمية، وتقارير أخرى موثوق بها. إنني عندما أسمى هذه الحالة، بالحالة التى لا يمكن إحتمالها البتة، كما فعلت كثيراً فى الصفحات السابقة، فإننى لست الوحيد الذى يفعل ذلك. لقد أعلن «جاسكال» مبكراً عام ١٨٣٣، أنه قد يأس من مخرج سلمى، وأن ثورة تلى ذلك أمر ممكن الحدوث. وفسر «كارليل» عام ١٨٣٣، «الميثاقية» والنشاط الثورى للعمال، على أساس أنه أمور ناشئة عن الشقاء الذى يعيش العمال فيه، وأن الذى أدهشه فقط، هو جلوسهم هكذا ساكنين ثمانى سنوات طوال إلى «وليمة البراسكة»(٢٤)، تلك التى أتحفتهم بها البورجوازية الليبرالية بوعود فارغة. وأعلن، عام ١٨٤٤، أن مهمة تنظيم العمل يجب أن تبدأ على الفور.

= أن أذكر ولكن بشكل عرضى، العدد القليل من البورجوازيين الذين ظهروا كاستثناءات شريفة. هؤلاء، من ناحية، هم «الراديكاليين» البارزين، والذين هم فى الغالب «ميثاقيين»، مثال بعض أعضاء «مجلس العموم» القليلين، أصحاب المصانع «هيندلى» عن (أشتون) و (فييلدث) عن (تودموردون) (لانكشاير)، ومن ناحية أخرى (أعضاء حزب المحافظين) الإنسانيين، والذين نظموا أنفسهم منذ عهد قريب «كانجلترا الشابة»، ومن بينهم «أعضاء البرلمان» «ديزرائيلى»، «بورت ويك»، «فيراند» و «لورد جون ما نرز»... الخ. إن «لورد أشلى» أيضاً يتعاطف معهم. إن أمل «إنجلترا الشابة» هو إرجاع «انجلترا المرحة» بسماتها المتألقة وإقطاعها الرومانسى. إن هذه المسألة بالتأكيد أمر مضحك ولا يمكن تحقيقه، إنه قدح فى كل التطور التاريخى الا أن النية الطيبة والشجاعة، فى مقاومة الأوضاع القائمة والإجحاف السائد، وادراك دناءة حالتنا الراهنه، لأمر يستحق شيئاً ما، على أى حال. ويقف على حدة تماما «توماس كارليل». ذلك الرجل الانجليزى نصف الألمانى، والذى هو أصلا من «حزب المحافظين»، والذى يذهب أبعد من كل هؤلاء الذين ذكروا من قبل. لقد سبر غور الفوضى الاجتماعية بطريقة أكثر عمقا من أى بورجوازى انجليزى آخر [آمل أ «كارليل» الذى وجد الطريق الصحيح، أن يكون قادراً على اتباعه. وله منى ومن عديد من الألمان الآخرين أطيب الأمنيات (محذوفة من النسخة الانجليزية المصرح بها)] [الا أن ثورة فبراير صيرته رجعيا تماما ان سخطه العادل ضد «المعادين»، قد تحول الى عداء غاضب يتأفف من هذا التاريخ الذى ألقى به الى الشاطىء (أضيفت الى النسخة الألمانيه عام ١٨٩٢)]

« إن ظلت أوربا ، أو انجلترا على الأقل ، مسكونة أمداً طويلا » .

وتقول « التايمس » ، « أول جريدة فى أوربا » فى يونيو ١٨٤٤ :

« الحرب للقصور ، السلام للأكواخ ، تلك معركة ، صرخة رعب يمكن أن تدوى فى كل مكان من بلدنا . فليحذر الأثرياء ! » .

* * *

دعونا فى تلك الأثناء ، نستعرض فرص البورجوازية . إن إمكانية نجاح الصناعة الأجنبية وخاصة الأمريكية أمام المنافسة الإنجليزية ، حتى بعد إلغاء قوانين القمح ، أمر لابد منه ، خلال سنوات قليلة فى أسوأ الأحوال . إن الصناعة الألمانية تبذل الآن جهوداً ضخمة ، وتلك الأمريكية قد تطورت بخطى عملاقة. إن أمريكا بمواردها التى لا تنضب ، وحقول فحمها وحديدها التى لم تمسح بعد ، وثروتها من الطاقة المائية التى لا مثيل لها ، وأنهارها الصالحة للملاحة ، وهى على وجه الخصوص ، بسكانها النشطين ذوى العزم إن قورنوا بما عليه الانجليز من لكاعة وفتور — قد خلقت فى أقل من عشرة أعوام ، صناعة تنافس إنجلترا بالفعل فى السلع القطنية السميكة ، وهى قد أخرجت الإنجليز من أسواق أمريكا الشمالية والجنوبية ، وأصبح لها أسواقها فى الصين جنباً إلى جنب مع إنجلترا . وإن كان هنالك بلد مهيأ للإمساك باحتكار للصناعة ، فإن ذلك البلد هو أمريكا . وإن حدث وقهرت الصناعة الإنجليزية نتيجة ذلك — وهو أمر لا مفر منه فى غضون العشرين سنة القادمة ، إن إستمرت الأوضاع الحالية دون تغيير — فإن غالبية البروليتاريا لابد وأن تصبح فائضاً إلى الأبد ، ولن يكون أمامها من إختيار سوى الموت جوعاً أو التمرد . هل تفكر البورجوازية الإنجليزية فى هذا الأمر المحتمل ؟ العكس صحيح ، إذ أن إقتصاديها المفضل « ماك كولك » ، يدرس طلابه ، أن بلداً شاباً مثل أمريكا ، وهى بلد غير مسكونة كما يجب ، لا يمكنها أن تدير صناعة ناجحة ، أو تحلم بمنافسة بلد صناعى قديم مثل إنجلترا . وأنه كان جنونا من الأمريكيين أن يقوموا بتلك المحاولة ، لأنها لن تعود عليهم إلا بالخسارة ، وأنه من الأفضل كثيراً لهم ، أن يثابروا على

زراعتهم ، وعندما يكونون قد وضعوا بلدهم كله تحت المحراث ، فربما يأتى حينئذ وقت يستطيعون فيه إدارة صناعة مربحة . هذا ما يقوله الإقتصادى الحكيم ، والبورجوازية كلها تمجده ، بينما يضع الأمريكيون أيديهم على سوق بعد الآخر ، وفى الوقت الذى قام فيه مضارب أمريكى جسور ، بإرسال شحنة من السلع القطنية الأمريكية إلى إنجلترا ، حيث بيعت كواردات مصدرة .

ولكن إلى ما يقود الزعم بأن إنجلترا قد إحتفظت باحتكارها للصناعات ، وبأن مصانعها تتضاعف بصورة أبدية ؟ إن ذلك الزعم يقود إلى إستمرار الأزمة التجارية ، ونموها بصورة أكثر عنفاً ، وأكثر بشاعة ، مع إتساع الصناعة وتضاعف البروليتاريا . إن البروليتاريا سوف تزداد بنسبة مطردة ، نتيجة الدمار المتصاعد للطبقة الوسطى الدنيا ، وللخطوات العملاقة التى يركز بها رأس المال نفسه فى أيدى القلة ، ولسوف تشمل البروليتاريا كل الأمة بإستثناء عدد قليل من المليونيرات ، إلا أنه سوف تأتى مرحلة فى هذا التطور ، تدرك فيها البروليتاريا مدى سهولة الإطاحة بالسلطة القائمة ، وحينئذ سوف تلى هذا الإدراك ثورة .

إلا أنه من غير المتوقع ، على أى حال ، إحتمال قيام أى واحد من تلك الأوضاع المفترضة . إن الأزمات التجارية ، وهى أعظم مرتكزات كل تطور مستقل للبروليتاريا ، ستقصر فى الغالب أمد العملية ، إنها تفعل فعلها فى توافق مع المنافسة الأجنبية ، والدمار المستحكم للطبقة الوسطى الدنيا . إننى أعتقد أن الشعب لن يحتمل أكثر من أزمة واحدة أخرى . إن الأزمة التى ستقع فى عام ١٨٤٦ أو عام ١٨٤٧، ستجلب معها فى الغالب، إلغاء «قوانين القمح» * وفرض « الميثاق » . إن أى حركات ثورية يمكن أن تنجم عن الميثاق إنما هى أمر يمكن إدراكه . ولكن ، عندما يحين زمن الأزمة التاليه ، والتى يجب أن تنشب عام ١٨٥٢ أو عام ١٨٥٣ قياساً على الأزمات التى سبقتها ، ما لم تعطل ، ربما بإلغاء « قوانين القمح » ، أو تعجل بتأثير مؤثرات أخرى كالمنافسة الأجنبية — فإن

---

* وقد فعلت ذلك بالفعل .

الشعب الإنجليزى سيكون قد عانى ما يكفى من نهب الرأسماليين له ، وتركه للموت جوعاً حين يصبح الرأسماليون فى غير حاجه لخدماته . إن البرجوازية الإنجليزية، إن لم تتوقف حتى ذلك الحين لتفكر — وتشير كل الدلائل إلى أنها لن تفعل ذلك بالتأكيد — فإن ثورة لا يمكن مقارنتها بأى ثورة حدثت من قبل ، سوف تلى ذلك . إن البروليتاريين وقد دفع بهم إلى اليأس ، سوف يمسكون بالمشعل الذى بشرهم به « ستيفنس » ، وسيحل إنتقام الشعب فى غضب شديد . لن يكون هياج ١٧٩٣ بقادر على إعطاء فكرة حقيقية عن هذا الإنتقام . إن حرب الفقراء ضد الأغنياء ستكون أشد حرب دموية قامت على طول المدى ، حتى أن ائتلاف جزء من البورجوازية مع البروليتاريا ، وحتى إصلاح البورجوازية بشكل عام ، لن يكون مجدياً . وإلى جانب ذلك ، فإن تغيير لب البورجوازية ، يمكن أن يمضى فقط ، إلى الحد الذى يماثل بالضبط فتور الوسط المحيط ، إن أشد الإئتلافات تصميماً بين البورجوازية والعمال ، سيشكل فقط « جيروند » جديد ، يموت خلال مجرى التطور الهائل. إن إيذاء طبقة كاملة أمر لا يمكن أن يوضع جانباً كمعطف قديم ، على أقل تقدير بالنسبة لهؤلاء البورجوازيين المتمكنين ، ضيق الأفق ، الأنانيين . تلك هى كل الاستنتاجات التى يمكن استخلاصها بأكبر قدر من اليقين ، إنها نتائج ، مقدماتها حقائق لا يمكن نكرانها ، جزئياً من التطور التاريخى ، وجزئياً من الحقائق الفطرية فى الطبيعة الإنسانية . إن إمكانية التنبوء فى إنجلترا ، حيث كل العناصر المكونة للمجتمع محددة بشكل واضح ، ومنفصلة بشكل حاد ، أسهل من إمكانية التنبؤ فى أى مكان. لابد للثورة أن تجىء ، إن الوقت بالفعل قد تأخر تماماً للسعى إلى حل سلمى ، إلا أنه يمكن للثورة أن تكون أكثر ليناً مما تم التنبؤ به فى الصفحات السابقة . إن هذا يتوقف على أى حال ، على تطور البورجوازية أكثر مما يتوقف على البورجوازية . إنها مسألة نسبية ، فبقـــدر ما تستوعب البروليتاريا المبادىء الإشتراكية والشيوعية، بقدر ماتقلل الثورة من سفك الدماء والإنتقام والوحشية. إن الشيوعية تقف فى الأساس، فوق الشق الذى بين البورجوازية والبروليتاريا، إنها تدرك فقط دلالاته التاريخية بالنسبة للحاضر ، لكنها لا تسلم بما يبرر به من أجل المستقبل : إنها ترغب ، فى الحقيقة ، فى إجتياز تلك الهوة ، من التخلص من

كل العداوات الطبقية ، ومن ثم فإنها تدرك كما ثبت سخــط البروليتاريا نحو مضطهديها كضرورة ، طالما ظل الصراع قائماً ، كأهم مرتكز لحركة عمالية فى بدايتها ، إلا أنها تتجاوز هذا السخط ، لأن الشيوعية هى قضية الإنسانية وليست قضية العمال وحدهم . يضاف إلى ذلك ، أن أى شيوعى لا يرغب فى الإنتقام لنفسه من الأفراد ، أو يؤمن بشكل عام ، أن فى مكنة البورجوازى الفرد أن يفعل خلافا لما هو فاعل بالفعل ، فى ظل الظروف القــائمة . إن الإشتراكية الإنجليزية أى الشيوعية ، ترتكز مباشرة على عدم مسئولية الفرد . وبالتالى ، فإنه كلما استوعب العمال الإنجليز الأفكار الشيوعية كلما بدت مرارتهم الحالية أزيد مما يجب ـ إذ لو استمرت تلك المرارة على عنفها الراهن فهى لن تنجز شيئاً ـ كما يفقد فعلهم المعادى للبورجوازية عنفه الوحشى بصورة أكثر . وفى الحقيقة ، لو كان فى الإمكان جعل البروليتاريا كلها شيوعية قبل أن تنشب الحرب ، فإن النهاية ستكون سلمية للغاية ، إلا أن ذلك لم يعد ممكناً ، فقد فات الوقت . إننى أعتقد ، أنه خلال ذلك ، قبــل نشوب الحرب المكشوفة المعلنة للفقراء ضد الأغنياء ، سيتوفر بين البروليتاريا إدراك ذكى كاف للمسألة الإجتماعية ، يمكن الحزب الشيوعى ، وبمساعدة الأحداث ، من هزيمة العنصر الوحشى للثورة ، وأن يمنع حدوث « ثيرميدور تاسع » . إن الخبرة التى عاناها الفرنسيون لن تكون عبثاً على أى حال ، كما يضاف إلى ذلك أن غالبية قادة « الميثاقيين » هم شيوعيون بالفعل . وحيث أن الشيوعية ، تقف فوق النزاع بين البورجوازية والبروليتاريا ، فإنه سيكون من الأيسر على العناصر البورجوازية الافضل (والتى هى على أى حال قليلة بصورة محزنة ، وفى الإمكان القيام بالبحث عن مجندين ، وسط الجيل الصاعد فقط) ان تأتلف معها ، عن أن تأتلف مع الميثاقية البروليتارية الخالصة .

إن كانت تلك النتائج لم ترسخ ، خلال العمل الحالى ، بصورة كافية ، فربما تكون هنالك فرصاً أخرى ، لإثبات أنها نتــائج ضرورية للتطور التاريخى لانجلترا . إلا أننى أزعم ، أن هذه الحرب ، حرب الفقراء ضد الأغنياء ، والتى تجرى حالياً بالقطاعى وبشكل غير مباشر ، سوف تصبح حرباً مباشرة وعامة . إن الوقت متأخر للغاية بالنسبة لحل سلمى . إن الطبقات تنقسم بصورة

حادة أكثر فأكثر ، إن روح المقاومه تتخلل العمال ، والمرارة تتكاثف ، إن مناوشات حرب العصابات قد تركزت فى المعارك الأكثر أهمية ، وعما قريب ، سيكفى باعث طفيف على تحريك الإنهيار الثلجى . وحينئذ ، سوف تدوى حقاً صرخة الحرب عبر الأرض : « الحرب على القصور ، السلم للأكواخ » — إلا أن الوقت حينذاك ، سيكون قد فات على الأغنياء ، فليحذروا .

□

ملاحظات

١ — كتب « انجلز » هذا الكتاب فى « بارمن » ، فى المدة ما بين سبتمبر ١٨٤٤ ومارس ١٨٤٥ . لقد درس « انجلز » حال البروليتاريا الإنجليزية عندما عاش فى إنجلترا من نوفمبر ١٨٤٢ إلى أغسطس ١٨٤٤ . كان ينوى فى بادىء الأمر أن يتناول هذا الموضوع فى فصل واحد ، فى عمل عن التاريخ الاجتماعى لإنجلترا ، والذى كان بصدد كتابته ، وعلى أى حال ، فإن إدراك الدور الخاص للبروليتاريا فى المجتمع البورجوازى ، إقتضى من « أنجلز » أن يكتب كتاباً منفصلا ، يتقصى حال الطبقة العاملة فى انجلترا .

لقد نشر الكتاب أول ما نشر فى « ليبزيج » عام ١٨٤٥ ، وظهرت الطبعة الألمانية الثانية عام ١٨٩٢ . وفى تلك الأثناء ، رخص رسميا بنشر طبعتين مترجمتين إلى الإنجليزية ، واحدة منهما فى نيويورك عام ١٨٨٧ ، والأخرى فى لندن عام ١٨٩٢ . ولقد كانت كلا الطبعتين الأمريكية والإنجليزية معنونة بـ « حال الطبقة العاملة فى انجلترا ، فى عام ١٨٤٤ » . ولم يدخل انجلز أى تغييرات جوهرية على النص الأصلى عندما كان يعد طبعات جديدة من كتابه ، إلا أنه رأى ، أنه من الضرورى الإشارة فى ملحق الطبعة الأمريكية (١٨٨٧) ، والذى يكاد يكون متضمنا بالكامل فى مقدمات الطبعات الانجليزية والألمانية لعام ١٧٩٢ ، إلى أن «حال الطبقة العاملة فى انجلترا» لا يمكن إعتباره عملا ماركسيا ناضجاً . كتب يقول « إن هذا الكتاب يظهر فى كل موضع ، إنحدار « الاشتراكية الحديثة » ،

---

* دار التقدم ، ١٩٧٣

* ترجمه الى الإنجليزية ناشروا التقدم ، ١٩٧٣ .

من واحد من أسلافها ، من الفلسفة الألمانية . ومن هنا وضع ثمل كبير على الرأى الخاص بأن الشيوعية ليست مجرد عقيدة حزب الطبقة العاملة ، ولكنها نظرية تحيط بتحرير المجتمع ، بوجه عام ، من أوضاعه الحرجة الحالية ، بما فى ذلك الطبقة الرأسمالية ، إن هذا الأمر صحيح فقط من الناحية النظرية ، إلا أنه باطل تمام البطلان ، بل وأحيانا أسوأ من ذلك ، فى التطبيق . إذ طالما أن الطبقات الثرية لا تشعر ، ليس فقط ، بالحاجة إلى أى تحرر ، بل إنها تعارض بنشاط ، تحرير الطبقة العاملة لنفسها ، فإن الثورة الاجتماعية لابد وأن تعد وأن تحارب بواسطة الطبقة العاملة وحدها » . ويمضى « إنجلز» مفسراً لماذا ثبت خطأ نبوءته فى عام ١٨٤٥ ، عن ثورة إجتماعية وشيكة . إنه يشهد سبب إنحطاط « الميثاقية » بعد عام ١٨٤٨ ، والانتصار المؤقت للإنتهازية فى حركة الطبقة العاملة الإنجليزية فى الاحتكار الصناعى البريطانى فى السوق العالمى ، ويقول فى ثقة « ستكون هنالك إشتراكية مرة أخرى فى إنجلترا » ، بمجرد أن تفقد إنجلترا وضعها الاحتكارى .

٢ — إن المناشدة التى وجهها انجلز« إلى الطبقة العاملة فى بريطانيا العظمى» « كتبت بالإنجليزية ، حيث أنه كان ينتوى نشرها ككتيب منفصل ، وإرسالها إلى بعض قادة الأحزاب السياسية الإنجليزية ، رجال الأدب وأعضاء البرلمان . وقد تضمنت الطبعات الألمانية لكتاب « حال الطبقة العاملة فى إنجلترا » (١٨٤٥ و ١٨٩٢) النص الأصلى الإنجليزى للمناشدة ، إلا أنها لم تكن متضمنة فى الطبعة الأمريكية (١٨٨٧) والطبعة الإنجليزية (١٨٩٢) .

٣ — إشارة إلى هبة نساجى « سيليزيا » من ٤ — ٦ يونيو عام ١٩٤٤ ، وهى أول معركة طبقية بين البورجوازية والبروليتاريا فى ألمانيا ، وإلى الاضطرابات التى نشبت بين عمال بوهيميا ، مشتملة النساجين فى ضواحى «براج» فى صيف ١٨٤٤ .

٤ — نشر تقرير « الستون » أول ما نشر فى الـ « ويكلى ديسباتش » ، جريدة البورجوازية الراديكالية ، ثم أعيد طبعه فى ١٠ أغسطس عام ١٨٤٤ ، فى العدد رقم ٣٣٨ فى الـ « نورثن ستار » ، جريدة « الميثاقيين » .

٥ — نشر تقرير اللجنة ، التى عينها اجتماع مواطنى « هودرسفيلد » من ١٩ يوليو عام ١٨٤٤ ، من أجل مسح المدينة فى ١٠ أغسطس عام ١٨٤٤ فى العدد رقم ٣٥٢ من « النورثن ستار »

٦ — « كيرسال مور » — تل قرب « مانشستر » حيث كان العمال يعقدون اجتماعاتهم عادة . ويطلق « انجلز » على هذا التل اسم الجبل المقدس ، قياساً على « الجبل المقدس » فى روما القديمة ، والذى إنسحب إليه العوام عام ٤٩٤ قبل الميلاد ، بعد ثورتهم ضد النبلاء، كما تقول بذلك القصة المروية عن القدماء .

٧ — إن الرسوم المنسوخة فى هذا الكتاب وكذا النصوص المناسبة مأخوذة عن الطبعة الألمانية لهذا الكتاب .

٨ - إن تقرير المبجل « د. شامبنيس » ، عن حال العاملين فى مرفأ لندن ، قد نشر أول ما نشر فى الـ « ويكلى ديسباتش »، ثم أعيد طبعه فى ٤ مايو ١٨٤٤ فى العدد ٣٣٨ من الـ « نورثن ستار » .

٩ — نشرت مقالة دكتور «كوين» ، « إحصائيات ضرورية عن «جلاسجو» ، تبين حال السكان الصحية » فى أكتوبر ١٨٤٠ فى « جـــريدة جمعية الإحصاء بلندن » .

١٠ — تبنى البرلمان البريطانى ، « لائحـــة مبانى العـاصمة » ، فى عام ١٨٤٤ .

١١ — « قوانين القمح » هى التى أدخلت تعريفة عالية على الحبوب ، بغرض تقييد أو حظر واردات الحبوب ، وتمد أقرها البرلمان البريطانى لصالح كبار ملاك الأراضى ، وقد انتهى الصراع بين البورجوازية الصناعية وأصحاب الأراضى الإرستقراطية ، حول قوانين القمح بإلغائها عام ١٨٤٦ . إن هذا الإجراء ، والهبوط الناتج عنه ، فى أسعار الحبوب ، قد أدى إلى تخفيض معين فى تكاليف الحياة ، وفى النهاية ، إلى تخفيض الأجور ، وزيادة أرباح البورجوازية . إن إلغاء قوانين القمح قد وجهت لطمة إلى أصحاب الأراضى الإرستقراطيين، وعجلت بتطور الرأسمالية فى انجلترا .

١٢ — إن « قانون ١٨٠٢ » قد قيد ساعات العمل للصبية الأحداث إلى ١٢ ساعة ، ومنع تشغيلهم ليلا ، وعلى أى حال ، فإن تطبيقه قد قصر على الصناعات القطنية والصوفية فقط . ولم يوفر رقابة عن طريق معاينة المصنع . وما حدث فى الواقع ، هو أن أصحاب المصانع لم يكترثوا بهذا القانون .

١٣ — منع « قانون ١٨١٩ » كل تشغيل للأطفال دون سن التاسعة ، فى مصانع غزل القطن ونسجه ، كما منع التشغيل الليلى للصبية وحديثى السن دون السادسة عشر . لقد تقرر أن يكون يوم عملهم ، هو إثنى عشر ساعة ، لا تحتسب فيها فترات إستراحة لتناول الوجبات ، حيث كان أصحاب المصانع أنفسهم هم الذين ينظمون هذه الفترات ، وبذا إستطال يوم العمل من الناحية الفعلية إلى أربعة عشر ساعة وأكثر .

ولقد قرر « قانون ١٨٢٥ » أن فترات الإستراحة الخاصة بالوجبات يجب ألا تزيد فى إجمالها عن ساعة ونصف ، وبذا يجب ألا يزيد يوم العمل عن ثلاثة عشر ساعة ونصف . إلا أن هذا القانون أيضاً ، مثله فى ذلك مثل قانون ١٨١٩ ، لم يوفر عملية الرقابة على المصنع ، كما لم يراع أصحاب المصانع .

١٤ — « نشرات الأسطول » كتيبات أسبوعية كتبها « أوستلر » — الذى كان محبوساً فى « سجن الأسطول » بسبب ما عليه من ديون — فى صورة رسائل وقد ظهرت تلك النشرات فيما بين عام ١٨٤١ و ١٨٤٤ .

١٥ — الـ « نورث ستار » — جريدة بريطانية أسبوعية ، وهى الجريدة المركزية « للميثاقيين » . صدرت أول ما صدرت فى « ليدز » من عام ١٨٣٧ إلى عام ١٨٥٢ ، وصدرت فى « لندن » عام ١٨٤٤ . كان مؤسسها ورئيس تحريرها هو « فيرجس أوكونور » . كما رأس تحريرها أيضاً « جورج هارنى » فى الأربعينيات . وقد راسل « انجلز » هذه الجريدة من سبتمبر ١٨٤٥ إلى مارس ١٨٤٨ .

١٦ — إن ترجمة « انجلز » الألمانية لهذا الشعر متضمنة فى الطبعة الألمانية

فى هذا الكتاب . أن النص الإنجليزى الحالى مأخوذ من الـ « نورثن ستار » الصادرة فى ١١ فبراير عام ١٨٤٣ .

١٧ — تقول أسطورة « السناتور الرومانى مينينيوس أجريبا »، أنه أغرى العوام المتمردين عام ٤٩٤ قبل الميلاد بالإستسلام ، وذلك بأن قص عليهم حكاية تمرد أجزاء من الجسم البشرى على المعدة .

١٨ — الإشارة هنا إلى الصدامات التى وقعت بين « الميثاقيين » والشرطة ، والتى دبرتها العناصر الاستفزازية فى « شيفيلد » ، « براد فورد » ومدن أخرى ، ولقد نتج عن تلك الصدامات عمليات قبض عديدة على قادة الحركة وأعضائها .

١٩ — معاهد الميكانيكا — مدارس ليلية يدرس فيها العمال موضوعات معينة عن المهارات الفنية والعلوم الأدبية . ولقد ظهرت تلك المدارس أول ما ظهرت فى عام ١٨٢٣ فى جلاسجو ، وفى عام ١٨٢٤ فى لندن . وفى أوائل الأربعينيات كان هنالك أكثر من مائتى مدرسة من هذه المدارس، أساساً فى مدن « لانكشاير » و « يوركشاير » الصناعيتين . ولقد إستخدمت البورجوازية هذه المدارس فى تدريب العمال الصناعيين المهرة التى تحتاج إليهم ، وبالتالى فى التأثير عليهم .

٢٠ — وافق البرلمان فى ١٠ أغسطس عام ١٨٤٢ على القانون الخاص بإلغاء تشغيل النساء والصبية الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات ، فى العمل تحت الأرض .

٢١ — فرضت الحكومة الإنجليزية الاتحاد الأنجلو — أيرلندى على أيرلندا بعد قمع هبة الأيرلنديين عام ١٧٩٨ . ومحا الإتحاد الذى غدا معمولا به منذ ١ يناير ١٨٠١ ، آخر بقايا الحكم الذاتى فى إيرلنده ، وألغى البرلمان الأيرلندى . إن شعار إلغاء الاتحاد كان أكثر الشعارات شعبية فى أيرلنده منذ العشرينيات . ولقد تأسست « جماعة الداعيين لفسخ الاتحاد » عام ١٨٤٠ .

٢٢ — يشير « أنجلز » إلى مقالته ، « وضع انجلترا . الماضى والحاضر بقـلم « توماس كارليل » . (أنظر أعمال ماركس / أنجلز الجزء الأول صفحة ٥٢٥ — ٥٤٩) .

٢٣ — دعه يعمل ، دعه يمر ، شعار الداعيين إلى « حرية التجارة » ، أى الاقتصاديين البورجوازيين المدافعين عن حرية التجارة وعدم تدخل الدولة فى العلاقات الاقتصادية .

٢٤ — تلميح إلى القصة الواردة فى « ليالى العرب » ، والتى تتحدث عن شحاذ كان يستهزأ به بتقديم العديد من الأطباق الفارغة له .

محتـــــويات *

صفحة

(*) ان فهرس المحتويات الموجود هنا ، انما يرجع الى ذلك الذى أعده انجلز للطبعة الألمانيه الأولى « لحال الطبقه العاملة الإنجليزية » صدرت عام ١٨٤٥ . أرقام الصفحات الموجودة بين الأقواس تشير الى صفحات الكتاب الحالى .

صفحه

رقم الايداع ٤٠٥٨ / ١٩٨٠

مطبعة عابدين
٩ ش المقاول ت ٩٠٢٧٧٤